

مطبوعات برنامج الإعداد العلمي العام (٩)

القراءة العلمية

تأليف
عبد العزيز بن داخل المطيري

القراءة العلمية

الطبعة الأولى

شعبان ١٤٣٩هـ



afaqattaiseer | 0505941199 | www.afaqattaiseer.com

afaqattaiseer | afaqattaiseer | afaqattaiseer@gmail.com

القِرَاءَةُ العِلْمِيَّة

تأليف

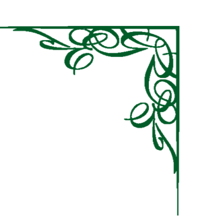
عبد العزيز بن داخل المطيري



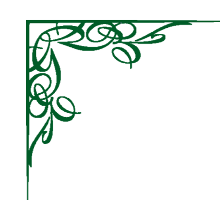




بسم الله الرحمن الرحيم



تمهيد



الحمد لله الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وصلى الله على النبيّ المعلَّم، والكريم المكرَّم، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، أما بعد:

فلا يخفى على مشتغل بالعلم حاجة طلابه إلى القراءة، وصلتهم الوثيقة بالكتب على اختلاف أنواعها ومراتبها، وقد بلغني من شكوى كثير ممن لهم رغبة في طلب العلم واشتغالٍ به من العشوائية في القراءة، وكثرة التذبذب والتنقّل بين الكتب والمناهج، واستيلاء الملل والفتور على بعضهم، وكثرة الخطأ في فهم المسائل العلمية، وضعف التحصيل العلمي، وغير ذلك من الآفات التي توجب على المشتغلين برعاية طلاب العلم وتوجيههم الاجتهادَ في نصيحتهم، وتعريفهم مناهجَ أهل العلم في القراءة، وشرح طرائقهم فيها، والكشف عن أسباب تمكّنهم، وتحذير طلاب العلم من الآفات التي تحول بينهم وبين ما يأملون من الانتفاع بالقراءة وإحسان التحصيل العلمي، وبيان ما يعينهم على القراءة الصحيحة النافعة، ويشدّ من عزائمهم، ويهوّن عليهم كثيراً مما يجدون من المشقّة واللأواء.

ولتحقيق هذه المقاصد الجليلة حرصت على إقامة دورة في بيان أصول القراءة العلمية، اشتملت أبوابها على التذكير بفضائل القراءة، والحديث عن عناية العلماء بها، وبيان أصول القراءة النافعة، وأنواعها، والكشف عن مراحل التحصيل المعرفي بالقراءة، وأركان عملية القراءة، والتعريف بجملة من المهارات المعينة على تحسين استفادة الطالب من الكتاب الذي يقرأه، والأدوات العلمية المعينة على استكشاف ما وراء الكتاب من الفوائد التي قد تكون أنفع للقارئ من مجرّد فهم محتوى الكتاب، وتبصير الطالب بالطريقة المثلى لتنظيم قراءاته، ورسم خطّته المعينة على

إتمام بنائه العلمي، وتقريب الأدوات التي تعينه على قياس مستوى تحصيله العلمي من القراءة.

وكنت قد شرعت في إعداد مسوّدة هذه الدورة عام ١٤٣٠هـ، وألقيت بعض ما فيها في دورات متفرقة، وكنت أزيد فيها ما يتيسّر لي من قراءات متنوّعة على سنوات عدة، وأضيف ما أقف عليه من الفوائد واللطائف حتى أجمعت أمري في أوّل شهر ربيع الثاني من عام ١٤٣٩هـ على إتمام أبواب هذا الكتاب؛ فتفرّغت لها نحو شهرين حتى أتممتها بفضل الله تعالى ليلة الجمعة ٢٨ من شهر جمادى الآخرة عام ١٤٣٩هـ.

ثمّ عدت إليها بالمراجعة في أواخر شهر رجب من العام نفسه لتخرج في كتاب يسهل نشره وتداوله، والله المستعان وبه التوفيق.



الباب الأول: بيان فضائل القراءة

القراءة من أعظم سبل تحصيل العلم، وأكثرها شيوعاً، وأحسنها أثراً، وأقربها نفعاً، وإذا أحسن طالب العلم اختيار ما يقرأ، وأحسن القراءة وداوم عليها؛ نبغ نبوغاً مبكراً وحصَّل تحصيلاً عظيماً يختصر عليه كثيراً من الجهد والوقت.

ويكفي في فضل القراءة وشرفها ودلالتها على العلم والحكمة أنَّ أولَّ ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

والقراءة قد تكون من محفوظ وقد تكون من مكتوب، ولذلك يصحّ أن يقرأ الأميّ من حفظه.

وأما كون النبي صلى الله عليه وسلم أميّا ففيه حكمة جليلة بيّنها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾.

قال قتادة: «**كان نبيّ الله لا يقرأ كتابا قبله، ولا يخطه بيمينه، كان أُمِّيا، والأميّ الذي لا يكتب،** ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾ **إذن لقالوا: إنما هذا شيء تعلَّمه محمد صلى الله عليه وسلم وكتبه**». رواه ابن جرير.

فلأجل ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم أميّا لا يكتب، وهو أعلم الناس لأنّه تلقّى علمَه بالوحي المبين من ربِّ العالمين كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

وقد تكفّل الله له بحفظ الوحي وبيانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾.

فكونه صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ليس فيه غضّ من مكانته، بل هو وصف كمال في حقه لأنه يفيد تمحّض ما تلقَّاه من أخبار الغيب عن ربّه جلّ وعلا، لم يتلقّه بالقراءة في كتب الأولين.

وهذا يفيدنا فائدة مهمّة وهي أنّ القراءة في الكتب أحد أسباب المعرفة لا جميع أسبابها، وأنّ المطلوب هو تحصيل المعرفة الحسنة، ولذلك تنوّعت مصادر المعرفة عند العلماء فجمعوا بين القراءة في الكتب، وسؤال العلماء، وملازمتهم وسبر أحوالهم، والاستفادة من التجارب، والاعتبار بالعبر القديمة والحديثة، وعَقل الأمثال، والتفكّر والتدبّر، ونحو ذلك من مصادر المعرفة النافعة.

فلذلك ينبغي لطالب العلم أن يدرك المقصد السامي من القراءة وهو تحصيل المعرفة النافعة الصحيحة؛ وكلّ ما أعان على هذه المعرفة فينبغي له أن يأخذ به ولا يحصر نفسه عند رسوم مطالعة الكتب، فقد يكون لقاؤه بعالم من العلماء وسؤاله عما أشكل عليه واستفادته من علمه وخبرته أنفع له من قراءة كتب كثيرة كما قال النووي رحمه الله: (ومذاكرة حاذق في الفن ساعة أنفع من المطالعة والحفظ ساعات بل أياما).

الفنّ هنا هو أي فرعٍ من فروع العلم؛ سُمّي فنّا لأنه يتفرّع من أصل العلم كما تتفرّع أغصان الشجرة وأفنانها.

وهذه المذاكرة ينتفع بها الانتفاع الأمثل مَن كان له تحصيلٌ حسن من المعرفة بالقراءة والمطالعة والبحث والدراسة ورصد المشكلات وتقييد الملحوظات والتعرف على مسالك المسائل؛ فإنه إذا ظفر بعالم حاذقٍ في علمٍ من العلوم بعد هذه المعرفة انتفع به انتفاعاً كبيراً.

والمقصود هنا بيان أنّ القراءة أحد أسباب المعرفة بل هي من أهمّ أسبابها، وأن النبي صلىّ الله عليه وسلم وإن لم يكن قارئاً فتحصيله للمعرفة أحسنَ التحصيل لأنه تلقاه بالوحي المبين، وأنّ هذا وصف كمال في حقّه.

وهذا نظير كونه صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩﴾؛ فإنه وصف كمال في حقّه لأنه دليل على أن ما أتى به من الوحي هو من ربّ العالمين لم يؤلّفه من تلقاء نفسه.

ولما أنعم الله عليه بالقرآن كان هديه في قراءته أحسن الهدي إذ جمعَ المداومة على القراءة، وإحسان التلاوة بتدبّر ما يقرأ وعقل معانيه والعمل بما فيه، والتخلّق بأخلاق القرآن، والتأدّب بآدابه، واتباع هداه، ولذلك لمّا سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «**كان خُلقه القرآن**».

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ربّما قام في الليلة الواحدة بنحو عشرة أجزاء من القرآن سوى ما يقرأه في النهار من ورده الذي كان يحافظ عليه.

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بين كثرة التلاوة وحسنها وحسن العمل بما قرأه من القرآن.

ولو أنّ أحدنا أخذ نفسه بهذه الأمور الثلاثة: كثرة تلاوة القرآن، وحسن تلاوته، وحسن العمل به؛ لانتفع انتفاعاً كبيراً، وارتفعت درجته ارتفاعاً عظيماً.

ولمّا هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وتأسست الدولة الإسلامية في المدينة النبوية كان من أوائل ما اعتنى به النبي صلى الله عليه وسلم أن حثَّ الصحابة على تعلّم الكتابة.

قال ابن عباس: «**كان ناسٌ من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء؛ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة**». رواه أحمد وابن المنذر والحاكم والبيهقي كلهم من طريق داوود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس به.

وقالت الشفاء بنت عبد الله الأنصارية رضي الله عنها: دخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة فقال لي: «ألا تعلّمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة». رواه أحمد وأبو داوود والنسائي وغيرهم من حديث أبي بكر ابن أبي حثمة عن جدته الشفاء بنت عبد الله.

وفي الباب أحاديث عن زيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم.

والقراءة لها فضائل عظيمة:

فمن أعظم فضائلها: أنها من أهم أسباب تحصيل العلم، والتفقه في أحكام الدين، ومعرفة الهدى فيما يأتي ويذر.

ومن فضائلها: أنها توسّع المدارك وتغذّي العقل وتنمّيه، وتسمو بالهمّة وتقوّي العزيمة إذا أحسن القارئ اختيار ما يقرأ.

ومن فضائلها: أنها تزكّي النفس وتهذبها وتقوّيها، فللقراءة تأثير روحيّ لا ينكر؛ لأنها من غذاء الروح، وإذا تغذّت الروح قويت، وفي اشتغال المرء بالقراءة انصراف عن كثير من اللغو وما يفسد النفس والعقل؛ وإذا اجتمع للنفس غذاء وحماية زكت ونمَت وقويت.

ففي القراءة أنس وسرور وراحة وحبور، وما أحسن ما قال الثعالبي في كتابه "التمثيل والمحاضرة": (الكتب بساتين العقلاء).

فهي لهم كالبساتين اليانعة التي فيها من كل الثمرات، وفيها الرَّوح والبهجة وتنوّع الحقول؛ **فيقرأ القارئ لكلّ حالة ما يناسبها من الكتب والفصول:**

- إن وجد في نفسه عزيمة للتفقّه في الدين وتفهّم المسائل قرأ في كتب أهل العلم من المفسرين والمحدّثين والفقهاء.

- وإن أراد معرفة أخبار الماضين واستلهام العبر والدروس منها قرأ في كتب التاريخ.

- وإن أراد الاسترواح إلى اللطائف والأمثال والحكم والأشعار قرأ في كتب الأدب والأشعار وطرائف الأخبار.

فهو كالمتنقّل بين البساتين؛ يجتني من ثمراتها، وينعم بتنوّع حقولها.

ومن فضائلها: أنها تختصر الوقت والجهد على طالب العلم إذا أحسن سلوك المنهج الصحيح للقراءة النافعة؛ فالطالب الذي يقرأ قراءة علمية صحيحة يحصّل في مدّة وجيزة أضعاف ما يحصّله غيره في سنوات طويلة.

ومن فضائلها: أنها تضيف إلى علم القارئ علم غيره وتجاريبهم ووصاياهم فينتفع بها انتفاعاً كبيراً، ويتجنّب الوقوع فيما حذّروا منه من الأخطاء والمزالق، ويسترشد بما دلّوا عليه من كنوز العلم والمعرفة فيرتقي بذلك.

والكلام في تعداد فضائل القراءة يطول، وقد تكلم جماعات من العلماء والأدباء في فضل القراءة والتنبيه على فوائدها وآثارها والتحفيز على استثمار الأوقات في القراءة النافعة بكلام كثير مبثوث في مظانه.

ونظم بعضهم في فضل القراءة أشعاراً حسنة، من أجودها قول ابن الأعرابي:

لنا جلساء ما نمل حديثهم ... ألبّاء مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ... وعقلاً وتأديباً ورأياً مسددا
بلا فتنة تخشى ولا سوء عشرة ... ولا نتقي منهم لساناً ولا يدا
فإن قلتَ أموات فما أنت كاذباً ... وإن قلتَ أحياء فلستَ مفندا

وقول المتنبّي:

أعز مكان في الدنيا سرج سابح ... وخير جليس في الزمان كتاب

واليقين بفضائل القراءة وأهميتها له أثر كبير في تحفيز النفس لها والحرص عليها ومغالبة الشواغل والعوائق، والاحتيال لاستغلال الأوقات وفي كل ذلك قصص وأخبار وأعاجيب عن كبار القرّاء وروّادهم من المتقدّمين والمتأخرين.

وفي الباب القادم بإذن الله تعالى بيان شيء من ذلك.



الباب الثاني: بيان عناية العلماء بالقراءة

قدّمت في الباب السابق الحديث عن فضائل القراءة وبيان بعض ثمارها وآثارها لأنَّ العلم بفضائل الشيء يغري بالعناية به، ويرغّب في اكتساب فضائله، وإذا بلغ علمُ القارئ بفضل القراءة وحُسْنِ أثرِها وعظيمِ نفعها درجةَ اليقين أورثَ صاحبَه الحرصَ الشديدَ عليها، والاجتهاد في الازدياد من فضائلها؛ فإنَّ العاقل يحرص على ما ينفعه، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا اليقين يفيد في مغالبة الشواغل والعوائق والمثبّطات التي حرم بسببها كثيرون من القراءة وفوائدها؛ فقد يكون لدى بعض محبّي القراءة رغبةٌ كامنة في القراءة لكنّه يؤجّلها لأدنى عارض؛ ويسوّف فيها كثيراً، ويقرأ أحيانا قراءات متقطّعة لا تبني له علماً ولا يحصل منها إلا معلومات متفرّقة متقطّعة لا يُعتمد عليها، وهذا غير لائق بطالب العلم؛ لأن هذه القراءات الضعيفة المتقطّعة لا تنمّي الملكية العلميّة في نفس طالب العلم، ولا يجتمع له بها في فرع من فروع العلم ما يكفيه لمعرفة أبوابه ومسائله وفقه أدلّته، وإذا اجتهد في ضبط مسائل معدودة بقيت لديه مسائل كثيرة في الباب يستوي هو والعامّة في العلم بها.

والجدّ في طلب العلم يورث صاحبه الحرص على القراءة في أكثر أحواله، ولو كان كثير المشاغل، ولو كان به مرضٌ لا يبلغ أن يمنعه من القراءة؛ لأن القراءة لروحه بمثابة الغذاء لبدنه، وقد كان بعض العلماء يُوضع له طعامُه وهو يقرأ في كتابه فيذهل عن الطعام حتى يبرد ويرفع، وهو ذاهل عنه من شدّة انهماكه في القراءة

والمطالعة، وقد ذكر نحو هذا عن الألباني رحمه الله؛ ونُقل عنه أنه ربما وقف على السُّلَّم في مكتبته ليتناول كتاباً من الأرفف العليا التي لا يبلغ أن يتناولها إلا بسُلَّم؛ فيتصفّح الكتاب وهو واقف على السلّم وقتاً طويلاً لا ينزل فيقرأه وهو جالس من شدّة انهماكه في القراءة وذهوله عن حال قيامه.

والباعث على هذا الانهماك الشديد في القراءة هو شدّة الحرص على العلم، والفرح بالفائدة العلمية، والتشوّق العظيم للظفر بما يبحث عنه، فلا يلتفت لما يعوّقه عن تلك القراءة مهما كانت لذّته.

بل ربّما غفل عن بعض حاجة نفسه وشهوتها من الطعام والشراب ولذيذ المآكل والمجالس، وقد روى العقيلي عن شعبة بن الحجاج رحمه الله أنه قال: «**كم من عصيدة فاتتني!**».

وقال النضر بن شُميل: (لا يجد الرجلُ لذَّةَ العلم حتى يجوعَ وينسى جوعه).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: (وإني أخبر عن حالي؛ ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أقرأه، فكأني وقعت على كنز).

قال: (ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد كأن أكثر، وأنا بعدُ في الطلب).

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان يقرأ وهو مريض؛ بل قد نهاه الطبيب مرّة عن القراءة فلم تطاوعه نفسه بترك القراءة.

حدّث عنه ابن القيم رحمه الله أنه قال: (ابتدأني مرضٌ فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض؛ فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك؛ أليستِ النفسُ إذا فرحت وسُرَّت قويت الطبيعةُ؛ فدفعتِ المرَضَ؟

فقال: بلى.

فقلت له: فإن نفسي تُسرّ بالعلم؛ فتقوى به الطبيعة فأجد راحة.

فقال: هذا خارج عن علاجنا أو كما قال).

وابن تيمية - رحمه الله - كان من أوسع العلماء اطلاعاً على الكتب والعلوم وأجودهم فهماً وتحريراً للمسائل، وهو من القلّة الذين بلغت مؤلفاتهم نحو ألف كتاب.

وقد اشتغل في أوّل حياته بنَسْخ الأجزاء الحديثية، حتى قال الذهبي وهو محدّث معاصر لابن تيمية: (كلّ حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث).

وهذا الوصف لا يتأتّى لأحد حتى يكون كثير القراءة شغوفاً بها لا يلتفت لما يشغله عنها.

وهو اعتراف من الذهبيّ لابن تيمية بالاطلاع الواسع على دواوين السنّة من الصحاح والمسانيد والسنن والمصنفات والأجزاء الحديثية، والذهبيّ من أهل الحديث واسع المعرفة بمتون الحديث ورجاله؛ فشهادته لابن تيميّة رحمه الله شهادة من رجلٍ بصيرٍ عارف.

وهذه الكلمة (كل حديث لا يعرفه فلان فليس بحديث) من الكلمات المأثورة عن بعض الأئمة لكنّهم كانوا لا يقولونها إلا لأفذاذ من العلماء عُرفوا بالبصيرة في الأحاديث وسعة المعرفة في المرويّات وأحوال الرجال.

- كما روى ابن عدي والخطيب البغدادي عن محمد بن مسلم ابن وارة أنه قال: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: (كل حديث لا يعرفه أبو زرعة ليس له أصل).

- وروى الخطيب البغدادي أيضاً عن محمد بن رافع النيسابوري أنه قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: (كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث).

- وروى الخطيب البغدادي عن محمد بن أبي حاتم الوراق أن أصحاب عمرو بن عليّ الفلاس ذاكروا محمدَ بن إسماعيل البخاري بحديث فلم يعرفه؛ فسرّوا بذلك وأخبروا شيخهم الفلاس فقال: (حديثٌ لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث).

- وذكر ابن عساكر في "تاريخ دمشق" عن أبي إسحاق الطالقاني أنه قال: سمعت عبد الله بن إدريس يقول: (كل حديث لا يعرفه ابن المبارك، فنحن منه براء).

وهذا الاطلاع الواسع لم يكن ليتأتّى لهم لولا توفيق الله عزّ وجل وفضله عليهم ثمّ ما كان لهم من النَّهْمة في القراءة التي تحملهم على مغالبة القواطع والشواغل والمثبّطات والازدياد الكثير من التحصيل العلمي.

قال ابن القيّم: (وأعرف من أصابه مرض من صداع وحمّى وكان الكتاب عند رأسه فإذا وجد إفاقةً قرأ فيه؛ فإذا غُلِبَ وَضَعَه)ا.هـ.

والظنّ أنّه يعني نفسه، وقد كان رحمه الله كثير القراءة واسع الاطلاع.

بل ربّما تمرّ ببعض العلماء أحوال عارضة يظنّ الظانّ بمن تمرّ به تلك الأحوال أنه من أبعد الناس عن القراءة؛ فإذا هو يحتال حتى يجد فرصة للقراءة.

وللعلماء في هذا الباب قصص وأخبار عجيبة تنبيك عن شدّة حرصهم على القراءة لما عرفوا من فضلها ووجدوا من نفعها.

من ذلك أنّ مجد الدين ابن تيمية جدّ شيخِ الإسلام وهو من فقهاء الحنابلة الكبار وصاحب كتاب "المنتقى" ذكر عنه ابن القيم أمراً عجيباً يبيّن شدّة حرصه على القراءة حيث قال: حدثني أخو شيخنا عبد الرحمن ابن تيمية عن أبيه قال: كان الجدّ إذا دخل الخلاء يقول لي: (اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع).

وكان الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي يغالب النومَ من شدّة حرصه على القراءة؛ فإذا نعس وهو يرى في نفسه قوّة على مواصلة القراءة قام من مكانه ومشى حتى يذهب عنه النعاس ثمّ عاد وعاود القراءة، ومن نَظَر في كثرة مؤلفاته وتنوّعها على صغر سنّه تعجّب من حاله؛ فقد مات وعمره نحو خمسة وثلاثين سنة، وترك مؤلفات نافعة في علوم عديدة.

وبعض العلماء بلغ به حرصه على القراءة أن يفضّل الطعام الذي لا يُحتاج في أكله إلى وقت كثير كما ذُكر ذلك عن أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي رحمه الله، وكان من

أعاجيب الزمان في كثرة التأليف، وقد ذُكر أن كتابه "الفنون" بلغ نحو خمسمائة مجلّد.

قال عنه ابن رجب: (كتاب كبيرٌ جداً فيه فوائد كثيرة جليلة في الوعظ والتفسير والفقه والأصلين والنحو واللغة والشعر والتاريخ والحكايات، وفيه مناظراته ومجالسه التي وقعت له، وخواطره ونتائج فكره قيَّدها فيه).

وقد اختُلف في عدد أجزاء هذا الكتاب؛ لكن قال الذهبي: (لم يُصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب، حدثني من رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربعمائة).

ونقل ابن رجب عن بعضهم أنه ثمانمائة مجلّد؛ ولعل من أسباب الاختلاف تفاوت النسخ أو أنّ بعضهم اطلّع على جزء مفرد فظنّ أن الكتاب يبلغ نحو رقم الجزء الذي وقف عليه.

قال ابن رجب في "ذيل طبقات الحنابلة": (وذكر ابن عقيل في فنونه: قال حنبلي -يعني نفسه -: أنا أُقصِّرُ بغاية جَهدي أوقات أكلي، حتى أختار سفّ الكعك وتحسّيه بالماء على الخبزة لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفرًا على مطالعة، أو تسطير فائدة، لم أدركها فيه)ا.هـ.

وقد ذكر الألباني رحمه الله في مقدّمة كتابه "أحكام الجنائز" في سياق إخباره عن قصة تأليفه للكتاب قال: (فاستخرت الله تعالى، وانكببت على الدراسة والمراجعة قرابة ثلاثة أشهر، أعمل فيه ليلاً ونهاراً، إلا ما لا بدّ منه من العمل في مهنتي، والنوم الذي لا غنى عنه لراحة جسمي، حتى تمكنت من إعداد هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم)ا.هـ.

وكتابه في أحكام الجنائز من أنفس ما كتب في موضوعه.

فإذا كان هذا حال العلماء من الانهماك في القراءة ومغالبة العوائق والقواطع الطبيعية التي لا بد من حاجة الإنسان لها في أصل أمره لكنّهم يحتالون ليقصّروا أمدها حتى يستفيدوا وقتاً أطول للقراءة وتحصيل العلم؛ فكيف يكون حالهم فيما دونها من المثبّطات التي ألهت كثيراً من طلاب العلم اليوم عن القراءة كما ينبغي.

وهذا الأمر وإن كان قد يستغربه من يستغربه فإن حقيقة المحبّة والاشتياق للقراءة واليقين بفضلها ونفعها يدفع لمثل هذا الحال؛ واعتبروا بحديث من تشتاقون لحديثه من أعزّ الناس إليكم والجلوس معه ألا يشعر المرء أنّه يودّ إطالة أمد اللقاء بل ربّما دافع احتياج نفسه للطعام والشراب وغيرهما ليظفر بمزيد من الوقت للاستئناس بحديثه والإقبال عليه والاستفادة من علمه إن كان من أهل العلم.

قال: نعيم بن حماد: كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته فيقال له: تكثر الجلوس في بيتك ألا تستوحش؟!!

فيقول: (كيف أستوحش و أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه و التابعين لهم بإحسان!!). رواه البيهقي في "شعب الإيمان".

ونقل ابن مفلح في «الآداب الشرعية» عن عبد الساتر بن علي بن عبد الساتر العدل أنه دخل على الحافظ أبي نصر السجزي وهو وحدَه؛ فقال له: أيها الشيخ أنت جالس وحدك؟

فقال: (لست وحدي أنا بين عشرين ألفاً من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين أتحدّث معهم وأحكي عنهم).

وأبو نصر السجزي رحمه الله كان من أئمة أهل السنة والجماعة في القرن الخامس الهجري.

وكثرة القراءة في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وآثار الصحابة والتابعين وأئمة الدين تورث محبّتهم وعيش القلب معهم، والمرء يُحشر مع من أحبّ.

ومن أعجب ما قرأت من قصص الانهماك في القراءة والكتابة والذهول عن الوقت ما نقله الذهبي في "تاريخ الإسلام" و"سير أعلام النبلاء" عن الحافظ شيرويه بن شهردار عن الحافظ الكبير إبراهيم بن الحسين الكسائي الهمذاني المعروف بابن ديزيل أنه قال: (كتبت في بعض الليالي، فجلست كثيرا، وكتبت ما لا أحصيه حتى عييت، ثم خرجت أتأمل السماء، فكان أول الليل، فعدت إلى بيتي، وكتبت إلى

أن عييت ثم خرجت فإذا الوقت آخر الليل، فأتممت جزئي وصليت الصبح، ثم حضرت عند تاجر يكتب حسابا له، فورخه يوم السبت فقلت: سبحان الله! أليس اليوم الجمعة؟

فضحك، وقال: لعلك لم تحضر أمس الجامع؟

قال: فراجعت نفسي، فإذا أنا قد كتبت لليلتين ويوما)ا.هـ.

وابن ديزيل كان من الأئمة الثقات المتقنين؛ بل قال الذهبي: (إليه المنتهى في الإتقان).

وكان بعض الأئمة من المحدّثين يعرضون كتبهم عليه ليصححها.

قال يحيى الكرابيسي: (صحَّحْنا كتبنا بإبراهيم).

وقال ابن ماجة القزويني صاحب السنن: (منعني الخروج إلى إبراهيم قلة ذات اليد).

قال الذهبي في "تاريخ الإسلام": (قَالَ صالح بن أحمد الحافظ: سمعت أبي يقول: سَمِعْتُ عَلِيّ بن عيسى يَقُولُ: إن الإسناد الذي يأتي به إبراهيم لو كان فيه أن لا يؤكل الخبز لوجب أن لا يؤكل، لصحة إسناده).

والمقصود أن شدة المحبة والأنس بالشيء تذهل عن ملاحظة الزمن وأحوال الإنسان من الجوع والعطش والسهر، وهذا الأمر لا يختصّ به العلماء؛ بل هو لكلّ من أحبّ القراءة حتى أدمنها؛ فمدمنو قراءة الروايات – مثلاً- يُذكر عنهم عجائب في طول أمد القراءة والانكباب عليها ليلاً ونهاراً، بل يبلغ الأمر ببعضهم أنه إذا شرع في قراءة رواية ذهل عمّن حوله وعن الوقت فلا يدري ما عليه من الليل والنهار.

فهذا الإدمان والحرص على القراءة يقع للعلماء ولغيرهم من مدمني القراءة لكن الفرق الكبير بين الفريقين أنّ العلماء يقرأون فيما ينفعهم من علوم الشريعة واللغة

العربية والعلوم النافعة، ويقرأون قراءة نافعة منظّمة تنمّي ملكاتهم العلمية وتوسّع مداركهم حتى يحققوا بها سعة الاطّلاع وحسن المعرفة.

والخلاصة التي نستفيدها من هذا الباب أن أئمة الهدى من أهل العلم قد اعتنوا بالقراءة عناية بالغة حتى انتفعوا وارتفعوا، وجرى لهم من الثناء الحسن وانتفاع الناس بعلومهم وتصانيفهم ما هو معروف مشهور.

وذِكْرُ بعض أخبار حرصهم على القراءة وأحوالهم فيها يفيد طالب العلم حسن التأسّي بهم في ذلك، وأن لا ينصرف عن القراءة لأدنى عارض وشاغل، ولا يثبّطه عن القراءة مثبّط بأيّ حجّة من الحجج، وسنأتي بإذن الله تعالى على بيان بعض ما يُثَبَّط به كثير من طلابُ العلم اليوم عن القراءة والردّ على تلك الإيرادات بإذن الله.

وإذا اجتمع للطالب الحرص الشديد على القراءة وتنظيم الوقت وتنظيم القراءة ومعرفة طرق القراءة النافعة فإنّه ينبغ بإذن الله تعالى مبكّراً، ويحصّل من العلم الغزير في سنوات يسيرة ما لا يحصّله غيره في سنوات كثيرة.

اللهم إنّا نسألك أن تحبّب إلينا طلب العلم النافع وأن تحبب إلينا القراءة النافعة وأن تعيننا عليها وتوفّقنا فيها توفيقاً مباركاً وتصلح نيّاتنا فيها إنك أنت السميع العليم.

وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



الباب الثالث: القراءة النافعة

القراءة النافعة لا تُدرك إلا بفضل من الله عزّ وجل وتوفيق منه لمن أراد الله به خيراً، لأنها من التفقيه في الدين، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». متفق عليه من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

ولذلك قد تجد رجلين أحدهما قراءته يسيرة دائمة يجعل الله فيها خيراً كثيراً وبركة عظيمة؛ فيحفظ بها من مسائل العلم والفوائد والعبر ما ينتفع به، وينفع به غيره.

وتجد الآخر كثير القراءة والحديث عمّا يقرأ لكنّ بركة قراءته ممحوقة، فلا يُحسن التفقه في الدين، ولا يتعلّم علماً صحيحاً يَنتفع به، ولا يعلّم الناس تعليماً صحيحاً ينفعهم، بل ربّما كان افتتانه بالقراءة عظيماً، وضرره على الناس كبيراً بما يثير من الشبهات المضلّة، ويسوّغ من الشهوات المحرمة بأنواع من الحيل والتأويلات الخاطئة.

وهل ضلّ من ضلّ ممن تتبّع كتب الفلاسفة والمتكلّمين ومقالاتهم إلا بسبب هذه القراءة الضارّة؟!

وما نراه من فتك القراءة الضارّة ببعض من كانوا ممّن يُرجى أن يكون لهم شأن بين أهل العلم، فانحرفوا إلى القراءة فيما يضرّهم ولا ينفعهم من الكتب التي تثير الشكّ في أصول الدين، وتغري بالتهاون في الواجبات واقتراف المحرمات، وتفعل في قلوب أصحابها ما تفعل الخمر في عقول المدمنين، من نشوة وانتفاش، وشعور بعظمة متوهّمة، ولهث وراء سراب لا حقيقة له، حتى إذا أفنى عمره، وقلّب أمره،

لم يجد معه من حقيقة العلم في تلك الكتب والمقالات شيئاً ينتفع به.

وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها». رواه مسلم.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سلوا الله علماً نافعاً، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع» رواه ابن ماجة.

فالقراءة السديدة النافعة نوع من أنواع العلم، وسبب من أسباب التفقّه في الدين، وإنما يوفَّق لها من أراد الله به خيراً.

أسباب الانتفاع بالقراءة

وللانتفاع بالقراءة أسباب ينبغي على طالب العلم أن يجتهد في تحصيلها، وأن يعرف أثرها في تحصيل المطلوب من القراءة:

السبب الأول: الإخلاص لله تعالى، وذلك بتصحيح النيّة في القراءة؛ فيقرأ بنيّة طلب الهدى من الله تعالى، وكلما عظمت هذه النية في قلبه ازداد حظّه من الانتفاع بما يقرأ والاهتداء به إلى ما ينفعه، فيُفتح له من أبواب العلم والفَهْم ما لا يفتح لمن يقرأ لمجرّد تحصيل المعلومات.

وللقراءة مقاصد صالحة إذا قامت في قلب القارئ أثيب على قراءته ؛ فمنها أن يقصد بها رفع الجهل عن نفسه وعن الأمة، وأن يطلب العلم الذي يحبّه الله ليتقرّب به إليه، وأن يعدّ العدّة لأعمال صالحة يحبّها الله لا يحسنها إلا بالعلم، وأن يرغب أن يأتسي بالعلماء الربانيين ويسلك سبيلهم، حتى يُعدّ منهم، ويُحشر في زمرتهم، وكلّ تلك المقاصد قد تجتمع في قلب القارئ حين قراءته، ومن علم الله منه الصدق في تلك النية كان نصيبه من التوفيق والفتح الإلهي أعظم.

السبب الثاني: الصدق في القراءة، وذلك بصدق العزيمة على القراءة النافعة، وصدق الحال فيها.

فالصادق في قراءته لا تجد قراءته عبثية متفرّقة، ولا قراءاته قراءة متململ فَتور، ولا قراءة مستكثر مُعجَب، بل قراءة طالب علم جادّ مجتهدٍ في طلبِ الهدى واتّباعه، وتحصيل العلم من وجهه، والانتفاع به، وتعليمه وتقريبه لمن ينتفع به.

والصدق كما يكون في القول فإنّه يكون كذلك في العمل والحال؛ ولما عدّ الله ما عدّ من أعمال البرّ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ...﴾.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾، وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

فالصدق يكون في حديث المرء، ويكون في عزيمته وعمله، ويكون في حاله؛ فمن جمع هذه الخصال الثلاث فهو من الصادقين، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالصدق»، وقال: «إن تصدق الله يصدقك».

- فصدق القول مطابقته للمخبَر عنه.
- وصدق العمل مطابقة أدائه لما عُزِم عليه وأريد منه؛ وهذا يستلزم صحة العزيمة واتباع الهدى.
- وصدق الحال مطابقته للهُدى والرشاد.

فلفظ الصدق يوصف به الحديث، ويوصف به العمل، ويوصف به الحال.

وأصل هذه الإطلاقات في اللغة ظاهر، وشواهد استعمالها في كلام العرب وفي نصوص الكتاب والسنّة وآثار السلف كثيرة، وقد ذكرت طائفة منها في شرح

التحفة العراقية.

والصدق عِصْمة للعبد بل هو سبب نجاته ورفعته وهو ميزان التفريق بين الإيمان والنفاق، وبين مَن يريد ما عند الله ومَن يريد متاع الدنيا وزينتها.

وإذا تخلّف الصدق عن العبد تداعت عليه الآفات من كلّ جانب؛ وضلّ في أودية الشقاء والحرمان؛ فإما أن **تصيبه آفات الوهن والفتور، أو تصيبه آفات العجب والغرور**:

- **فآفات النوع الأول** تَضعف بها عزيمته.
- **وآفات النوع الثاني**: ينحرف بها قصدُه عمّا يُحبّه الله، والعياذ بالله.

وإذا حلّ الصدق في قلب العبد أورثه الجدّ والاجتهاد، وإقبال القلب على أداء العمل بإحسان؛ فإن أدّاه كُتب له أجره، وبورك له في عمله، وإن عَرض له ما يمنعه كُتب له أجره كأنّه عمله، وبورك له في نيّته، وهذه من أعظم ثمرات الصدق.

وإذا تحققت هذه الصفة الحميدة في القارئ نفعته نفعاً عظيماً بإذن الله؛ لأنها تثمر في قلبه ما يثمر الصدق للصادقين من الجدّ والاجتهاد، وأخذ العمل بالقوّة التي يحبّها الله، وأدائه بإحسان.

ولذلك فإن القارئ الصادقَ لا يستسلم في قراءته للمثبّطات والمعوّقات التي تحجب أصحاب العزائم الضعيفة، ولا ينحرف قصده انحراف الذين يريدون العلوّ في الأرض بالشُّهرة والرياء والاحتيال على المطامع الدنيوية.

وبهذا تعلم أن بين الصدق والإخلاص تناسب وتلازم؛ فصحة الإخلاص تستلزم وجود الصدق، والصدق يقتضي الإخلاص.

فالإخلاص أن لا تشرك بالله شيئاً، وأن تريد بعملك وجه الله تعالى.

والصدق أن تجمع همَّتك على إحسانِ العمل.

ولابن القيم رحمه الله كلام حسن بديع بيّن به التناسب بين الصدق والإخلاص؛ فقال: (إن للعبد مطلوباً وطلباً؛ فالإخلاص توحيد مطلوبه، والصدق توحيد طلبه؛ فالإخلاص أن لا يكون المطلوب منقسماً، والصدق أن لا يكون الطلب منقسماً؛ فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب)ا.هـ.

ومن جمع الصدق والإخلاص فقد نصح لله ولرسوله، وبذلك يكون من المحسنين، وهذه غاية مطالب السالكين.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن المشايخ العارفين اتفقوا على أن أساس الطريق إلى الله هو الصدق والإخلاص.

وذُكِرَ للإمام أحمد رحمه الله الصدق والإخلاص فقال: (بهذا ارتفع القوم). أورده أبو يعلى في "طبقات الحنابلة" وابن مفلح في "الآداب الشرعية".

فإن قلت: ما الذي يحملنا على الصدْق؟ ومن أين يستمدّ الصادق صدقَه؟

فالجواب: أن سبب الصدق الحاملِ عليه هو اليقين؛ وكلما عظم اليقين في قلب العبد ارتفعت درجته في الصدق، وقوي تحرّيه إيّاه حتى يكون من الصدّيقين.

ومما يدلّ لذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أثقلُ صلاة على المنافقين: صلاةُ العِشاء وصلاةُ الفجرِ، ولو يعْلَمُونَ ما فيهما لأتوهما ولو حَبْوا» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

فلمَّا غاب عنهم اليقين بالوعد والوعيد والثواب والعقاب هان عليهم ترك هاتين الصلاتين، ولو كان هذا العلم يقينا في قلوبهم لأتوهما ولو حبواً.

وبهذا تعلم أن أصل الفلاح والنجاح هو اليقين لأنه يقتضي الصدق ويستلزمه، ولذلك كانت نعمة اليقين أعظم نعمة على الإطلاق، بل هي أعظم من نعمة العافية، ويدلّ لذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده والبخاري في "الأدب المفرد" وابن أبي شيبة في مصنفه وغيرهم أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام خطيباً على

المنبر بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم بسَنة؛ فقال: «**قام رسول الله مقامي هذا عامَ الأوَّل**» ثم بكى أبو بكر.

ثم قال: «**سلوا الله العفو والعافية فإن الناس لم يعطوا بعد اليقين شيئاً خيراً من العافية، وعليكم بالصدق فإنه مع البرّ، وهما في الجنة، وإيَّاكم والكذب؛ فإنه مع الفجور، وهما في النار**».

والمقصود في هذا الباب أن يقين القارئ بفضل القراءة وحسن أثرها وعظم شأنها يثمر له الصدق في طلبها وأدائها، ويورثه الجدّ والاجتهاد فيسلَم - بفضل الله ورحمته - من كثير من المثبّطات والمعوّقات والآفات التي يُبتلى بها غير الصادق ومَن ضَعُفَ صِدْقُه.

وقد أطلت في شرح هذا السبب لأنه أصل مهمّ في انتفاع القارئ بقراءته، ومن اجتهد في تحقيق هذا السبب فإنّه يُرجى له بإذن الله تعالى أن يوفّق لإحسان القراءة، وأن يرشده الله لما ينفعه فيها، ويبارك له فيما يقرأ، ويقرّب له أسباب التوفيق والبركة، ومن يصدق اللهَ يصدقه.

السبب الثالث: شكر نعمة القراءة، وذلك بأن يحسن تلقّي ما ينعم الله به عليه بسبب القراءة، وأن يؤدّي حقّ الله فيها، ومَن شكر الله عزّ وجل زاده الله من فضله كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ... ﴾.

فشكر التلقّي: يكون بأن يفرح بما يجده من الهدى، ويعظّم قَدْرَ تلك النعمة في نفسه، ويحمد الله، ويثني عليه بها.

والله تعالى يُحبّ أن تُتلَقّى نعمه بالفرح بفضله، والابتهاج بعطائه، ومعرفة قدرها، والثناء عليه بها؛ فمن فعل ذلك فقد أحسن قبول النعمة، ومن أعرض عن ذلك فقد كفر نعمة الله.

ويدلّ على هذا الأصل قول الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾، وكذلك ما في الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى

بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاةَ الصبح بالحديبية في إثر سماءٍ كانت من الليل؛ فلما انصرف أقبل على الناس؛ فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟!».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «قال: [أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ؛ فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافرٌ بي مؤمن بالكوكب]».

وهذا مما يدلّ على أنّ القول الذي يقوله العبد حين يتلقى النعمة له أثر في رضى الله عنه أو سخطه عليه، وهذا القول ناشئ عن العمل الأولي للقلب، وهو نظير قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى». متفق عليه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وينبغي أن يعي المؤمن هذا الأصل في النعم كلها ما استطاع؛ وما ظنّ المؤمن إذا قال قولاً حسناً يرضى الله به حين يتلقى نعمته ويعرف قدرها، ويفرح بفضل الله عليه بها !!

وقد روي من حديث جابر بن عبد الله وابن عمر أنهما قالا: قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم سورة الرحمن على أصحابه حتى فرغ، قال : «ما لي أراكم سكوتا؟!! لَلجنُّ كانوا أحسنَ منكم ردا؛ ما قرأت عليهم من مرة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: و لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد».

حديث جابر رواه الترمذي وابن عدي والحاكم وصححه وأبو الشيخ والبيهقي وغيرهم.

وحديث ابن عمر رواه البزار وابن جرير والخطيب البغدادي.

وفي كلا الحديثين ضعف في الإسناد، وقال الألباني: (لكن الحديث بمجموع الطريقين لا ينزل عن رتبة الحسن).

فهذا في شكر قبول النعمة وحسن تلقّيها، وهو نصف الشكر، فينبغي أن لا يغفل عنه القارئ اللبيب، **ويتحقق بأربعة أمور:**

أحدها: الفرح بفضل الله والابتهاج بعطائه. ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾.

والثاني: الاعتراف بالنعمة وتعظيم قدرها في النفس. «أبوء لك بنعمتك علي».

والثالث: حمد الله تعالى عليها والثناء عليه بنعمته، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

والرابع: أن لا يعيب نعمة الله عليه ولا يزدريها ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

وفي "مسند الإمام أحمد" من حديث أبي العلاء بن الشخير قال: حدثني أحدُ بني سليم ولا أحسبه الا قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تبارك وتعالى يبتلي عبده بما أعطاه فمن رضي بما قسم الله عز وجل له بارك الله له فيه ووسّعه، ومن لم يرضَ لم يبارك له».

إسناده صحيح، وجهالة اسم الصحابي لا تضرّ.

وأما شكر أداء حقّ النعمة فيتحقق بأربعة أمور أيضاً:

أحدها: أن يعرف حقّ الله تعالى في تلك النعمة من العلم والعمل والحال؛ فيؤدّيه لله مخلصاً له في ذلك، سليم القلب، طيّب النفس.

ومن كانت همّته من القرّاء أن يتفقّه في سُبُل شكر ما أنعم الله به عليه من نعمة القراءة؛ فإنه يُرجى له أن يمنّ الله عليه بنعم عظيمة، ويختصّه بفضل عظيم، وهذا السبب الخفيّ من أعظم أسباب تفاضل العلماء في الانتفاع بما يقرَأون.

وبه تعلم أن القراءة التي يكون قصد صاحبها التفقّه في الدين واتّباع الهدى وإعلاء كلمة الله تشتمل على عبادات وأحوال عظيمة يحبّها الله تعالى ويقرّب أصحابها، وهو من حين عزمه على القراءة عزماً صادقاً قبل شروعه فيها متلبّس

بعبادات جليلة يُثاب عليها.

والثاني: أن يحفظ تلك النعمة بما أمر الله أن تُحفظ به، وفي "مستدرك الحاكم" من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من تعلم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها» وأصله في "صحيح مسلم"، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه: «لا تكن مثل فلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل».

وكذلك من أنعم الله عليه بالقراءة ثمّ ترك القراءة فإنه يخشى عليه أن يُسلب بركة هذه النعمة، وأما من شكرها بالمحافظة عليها والمداومة على قراءة ما ينفعه فإنه يرجى له أن يبارك الله له في قراءته وينفعه بها.

والثالث: أن لا يقابل النعمة بالمعصية وفي هذا المعنى أحاديث؛ ومن أسوأ ما يقع من العبد أن يستعمل نعمة الله في معصيته؛ فيقرأ ما يغضب الله عزّ وجلّ من القراءات المحرّمة، وقد كثرت في هذا العصر وتفشّت وانتشرت نسأل الله السلامة والعافية منها.

والرابع: أن يقابل إحسان الله إليه بإحسان العمل، فيعمل عملا صالحا يشكر به ربه على نعمته، ولما كُلّم النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته وقيامه وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: «أفلا أكون عبدا شكورا»، وقال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾.

فالقارئ الشَّكور يستعمل قراءته في طاعة الله، طيّب النفس، صالح القصد، حسن الاتّباع للهدى؛ فيظهر أثر نعمة الله عليه، ويزيده الله من فضله، وهذه الزيادة التي يزيده الله إيّاها خير له من عمله، بل ربما كانت أعظم البركات في قراءته فيما زاده الله من فضله.

فمن حقق هذه الأمور فإنه يرجى له أن يكون من الشاكرين، وأن يُفتح له بسبب شكره ما لم يكن يخطر على قلبه، أو يناله عمله، أو يبلغه أمله.

ولذلك ينبغي لطالب العلم أن يربّي نفسه على الشكر لله تعالى في جميع أحواله، فإنه مفتاح خير عظيم له.

تأمّلوا قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

فبيّن الله تعالى أنّه يحبّ الإنعام على من يشكره من عباده، وأنّه يعلم أهل شكر نعمته.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

فقلب الشاكر قلب طيّب تُثمر فيه النعمة، ويظهر أثرها عليه، فيزيده الله من فضله حتى يبلغه الدرجات العلى.

وقلب الكَفور خبيث لا يقبل النعمة، ولا يظهر أثرها عليه، وإن اجتهد في بعضها فلا يلبث خبث طبعة وسوء قصده أن يغلبه فلا ينتفع بتلك النعمة، ولا يظهر عليه شيء من أثرها إلا بنكد ولأواء.

وهذا المثل من أجلّ الأمثال وأعظمها عبرة في باب النعم والمنع، والعطاء والحرمان، والتوفيق والخذلان، وقضاء الخير وقضاء الشرّ.

وشُكْرُ المتعلِّم نِعمةَ العلمِ يكون بحسن تلقّي ما يعلّمه الله، والفرح بفضل الله ورحمته وبما فتح له من أبواب العلم، وما يسّر له من معرفة الهدى، والبصيرة في الدين؛ فهذا شكر تلقّي النعمة.

وشكر أداء حقّها بأن يعمل بما علم ويعلّم غيره، وأن يتخلّق بأخلاق أهل العلم والإيمان، ويتأدّب بآدابهم.

وطالب العلم الجادّ كثير القراءة؛ فإذا كان يقرأ بقلبٍ منيب لله تعالى حريص على الهدى يفرح بفضل الله ويشكر نعمته؛ فإنه يرجى له أن يفيض الله عليه من فضله ورحمته وبركاته ويفتح له من أبواب العلم والهدى والخير ما لم يكن يخطر له على بال

ولا يدور في خيال، ولا يسار إليه بقدم، ولا يُطار إليه بجناح.

ولو لم يخرج الطالب من هذا الكتاب إلا بهذه الفائدة لكفته، لأنها مع صلاح النيّة أعظم الأسباب نفعاً؛ فكثير من الأسباب المادّية وطرق القراءة ومناهجها إذا لم يصاحبها توفيق الله عزّ وجل وبركته وفضله وعطاؤه عادت وبالاً على صاحبها.

السبب الرابع: الرفق، والرفق ما كان في شيء إلا زانه، حتى في قراءة الكتب ومطالعتها؛ فإنّ من حمل نفسه على ما يشقّ عليها أوشك أن ينقطع، والمنبتّ لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع.

وإنّ من الرفق أن يرفق طالب العلم بنفسه فلا يبغّض إليها طلبَ العلم، ولا ينفّرها منه، ولا يحملها على ما يشقّ عليها، ولا يعرّضها لما يفتنها.

ومن أخذ نفسه بالرفق والحزم انتظم له سيره، وصلح أمره.

والرفق من أسباب إعطاء الله تعالى، كما في "صحيح مسلم" من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطى على ما سواه».

وفي "صحيح مسلم" أيضاً من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «من يحرم الرفق يحرم الخير»، وفي رواية لأبي داوود «يُحرم الخير كلّه».

وهذا الأمر إن تأمّلته في أحوال من لم يرفقوا بأنفسهم في القراءة وجدته حقاً:

- فكم ممن كلّف نفسه ما لا تطيق المداومة عليه فلمّا ثقل عليه الأمر ترك القراءة كلها، أو ترك الانتظام فيما ينفعه منها، وصارت قراءاته متفرقة متناثرة لا تبني له علماً، ولا تفيده تحقيقاً.

- وكم من طالبٍ في مُقتبَل طَلَبِه لم يرفق بقلبه؛ فعرّضه لأنواع من الفتن؛ حتى انحرف قصده في القراءة، ومال إلى ما يضرّه ولا ينفعه.

فجرى لهذين الصنفين من الحرمان من خير القراءة وبركتها ما هو ظاهر بيّن، ونال المتحلّي بالرفق من الخير والبركة ما يغتبط به.

السبب الخامس: المداومة على القراءة بما يتيسّر له، والمداومة على المتيسّر من أعظم أسباب البركة وأنفعها.

وفي الصحيحين من حديث سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يا أيها الناس، خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل».

وفي رواية لمسلم من طريق القاسم بن محمد بن أبي بكر عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإنْ قل»، قال القاسم: «وكانت عائشة إذا عملت العمل لزمته».

وفي "مسند الإمام أحمد" من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: دَخلَ عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي امرأة حسنة الهيئة؛ فقال: «من هذه؟»

فقلت: هذه فلانة بنت فلان، يا رسول الله هي لا تنام الليل؛ فقال: «مَهْ مَهْ، خذوا من العمل ما تطيقون؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يملّ حتى تملّوا، وأحب العمل إلى الله عز وجل ما داوم عليه صاحبُه وإنْ قلّ».

وأصله في الصحيحين، وفي رواية لمسلم أن هذه المرأة هي الحولاء بنت تويت بن حبيب بن أسد بن عبد العزّى، من قرابة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى.

وقولها: «**لا تنام الليل**» أي تقوم الليل كلّه تصلّي.

فأرشدها النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن تأخذ من العمل ما تطيق المداومة عليه، وبيّن لها أنّ أحبّ العمل إلى الله أدومه، وإن قلّ.

وغير خفيّ على المؤمن اللبيب أنّ الله إذا أحبّ عملاً تقبّله وبارك فيه، ونفع صاحبه به؛ فما الظنُّ بأحبّ العمل إليه؟!!

وهذا التنبيه لا ينبغي أن يُقابل بترك العمل أو هضم النفس فيما تطيق المداومة عليه، فإنّ من حيل الشيطان التي يصدّ بها كثيراً من الناس عن الخير أن يزيّن لهم ترك الميسور من الأمر الذي لهم فيه خير كثير لاشتماله على بعض المعسور، ولو أنّهم أتوا الميسور لكان أرجى لهم أن ييسّر الله لهم ما تعسّر، أو يهيّئ لهم خيراً منه بعد أن يكونوا قد أبلوا عُذْرَهم في عمل الميسور، فإنّ المرء إذا صدق اللهَ صدقه الله.

وليعلم طالبُ العلم أن العلم لا يتهيأ لمن ينكبّ على القراءة بكليّته حتى إذا أحسّ بالملل أو استعجل الثمرة أو اصطدم بعائق نفض يده من القراءة وتركها حتى يطول عهده بها.

وإنما يحصل العلم بالمداومة الرفيقة عليه.

كما قال الزهري رحمه الله: (إنَّ هذا العلمَ إنْ أخذته بالمكاثرة له غلبك، ولكنْ خُذْهُ مع الأيَّامِ والليالي أخذاً رفيقاً تظفرْ به) رواه الخطيب البغدادي في كتابه "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع".

وقد يُبتلى طالب العلم بما يرى من ضعف الثمرة في أوّل الأمر، وتعسّر بعض أبواب العلم عليه، وتفوّق بعض أقرانه، لكنّه إذا صبر وداوم على ما يتيسّر له لم يلبث حتى يفتح الله له من فضله ورحمته ما يسرّه ويغتبط به، ويتفوّق به على كثير من أقرانه، وإن سبقوه في أوّل الأمر.

وهذا الأمر ظاهر لمن يتأمّل أحوال طلاب العلم اليوم، وما يبلغ إليه أكثرهم بعد سنوات من الطلب.

فلو أنّ طالب علم داوم على قراءة درسين يومياً لأمكنه أن يتمّ دراسة نحو عشرة متون علمية في عام واحد، ونحو عشرين متناً في عامين، وقليل من طلاب العلم اليوم من يبلغ هذا القدر.

ومن فُتح له في الحفظ فحفظ كلّ يوم عشرة أبيات أمكنه أن يحفظ في عام واحدٍ "ألفية ابن مالك" في النحو والصرف، و"ألفية العراقي" في علوم الحديث، و"نظم الآجرومية" للعمريطي أو للشنقيطي، و"نظم الورقات"، وغيرها.

وكذلك يُقال في حفظ الأحاديث، وقراءة كتب أهل العلم بتقسيم مقاديرها على الأيام والأسابيع.

وقد يُبتلى العبد ببعض الصوارف والقواطع والحوادث المعوّقة عن الانتظام في بعض الأيام، فإذا أخذ نفسه بالمجاهدة والانتظام على ما يطيق رُجي له أن يكتب له أجره كأنما عمل ذلك العمل، وأن يَفتح الله له ما يعوّضه عمّا فاته.

والمقصود التنبيه على هذا السبب المهمّ للانتفاع بالقراءة.

السبب السادس: اتباع سبيل أهل العلم في القراءة؛ فإنّ القراءة العلمية ليست وسيلة مستحدثة بل هي من صالح سنن أهل العلم الذين أحسنوا القراءة والتعلّم حتى تبوأوا من المكانة العالية في العلم والإمامة في الدين ما عُرف به فضلهم وسَبْقهم، وأن من أراد أن يظفر بمثل ما ظفروا به فعليه أن يسلك سبيلهم ويقتفي أثرهم.

وقراءة سير أهل العلم، وتعرّف طرائقهم في القراءة، وتنبيهات علماء كلّ فنّ على كتبهم ومؤلفات أئمته، من أعظم أسباب تمكن طالب العلم من المعرفة الحسنة بتنظيم قراءته وتحسينها.

وسنتناول في هذا الكتاب بعون الله تعالى شيئاً من ذلك.

السبب السابع: الإعراض عن اللغو، ولا سيما القراءة فيما لا نفع فيه، وما فيه فتنة لقلب صاحبه وتضييع لوقته.

ولا يخفى أنّ للقراءة تأثيراً على القلب والنفس، وكم من فتنة حصلت للعبد بسبب أمر قرأه، أو شيء اطّلع عليه فقاده للبحث والقراءة فيما يضرّه أو يضيع وقته.

وقد بيّن الله تعالى أن من أسباب فلاح عباده المؤمنين: إعراضهم عن اللغو كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ ...﴾.

ولا يستقيم للعبد حفظ وقته، وحفظ زكاة نفسه، وطهارة قلبه، وهو لا يعرض عن اللغو.

فلذلك فإنّ من أهمّ الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها القارئ اللبيب أن يعرض عن لغو القراءة، وقد كثر اللغو في هذا الزمان، وكثرت وسائل القراءة بتعدد وسائل تقنية المعلومات وكثرت الفتن وعظمت، ومن جاهد نفسه ليحفظ وقته من اللغو؛ فإنه يسلم بذلك من فتن كثيرة، ويحفظ قلبه من شرور عظيمة، ويجنب نفسه خسارات مني بها من تساهل في هذا الأمر، وفرّط في حفظ وقته وقلبه وزكاة نفسه.

ومن وقع في شيء من ذلك فليبادر إلى التوبة والاستغفار، وليحرص على إتباع السيئة الحسنةَ؛ فإنّ الحسنات يذهبن السيئات.

وهذه الأسباب تورث الآخذ بها الحرص على القراءة النافعة، واجتناب القراءة الضارّة، وتورثه تصحيح مقاصد القراءة وإحسانها؛ فيحسن اختيار الكتاب الذي يقرأه، ويكون همّه أن ينتفع بالكتاب بقراءته إيّاه؛ فيحرص على تفهّمه، ويعرف حقّ الله فيه.

وأما من يقرأ للتكثّر بالقراءة والزهو بها فإنّه على خطر من أن يحرم الانتفاع بقراءته والاعتبار بما يرى من العبر والآيات، وقد قال الله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾.

قال الإمام مسلم في مقدمة صحيحه في ذمّ من يتكثّر برواية الأحاديث فيجمع الصحيح والضعيف ورواية من لا يعتدّ بروايته تكثراً قال: (ولا أحسب كثيراً ممن يعرج من الناس على ما وصفنا من هذه الأحاديث الضعاف والأسانيد المجهولة،

ويعتد برواياتها بعد معرفته بما فيها من التوهن والضعف - إلا أن الذي يحمله على روايتها والاعتداد بها إرادة التكثر بذلك عند العوام، ولأن يقال: ما أكثر ما جمع فلان من الحديث، وألّف من العدد!!

ومن ذهب في العلم هذا المذهب، وسلك هذا الطريق فلا نصيب له فيه، وكان بأن يسمّى جاهلا أولى من أن ينسب إلى علم)ا.هـ.

وكان بعض العلماء لا يكثرون من اقتناء الكتب، وإنما ينتقون من الكتب أهمّها وأجمعها وأنفعها فيقبلون على قراءتها وتفهّمها وتكرارها حتى يستظهرون ما فيها.

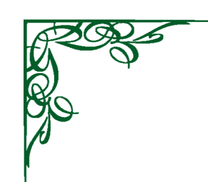
وهذا مذهب من يرى الاقتصار على ضبط القليل وترك الازدياد مما لا يستطيع ضبطه.

ومن أهل العلم من يهبه الله سعة اطلاع بعد أن يضبط أصول العلم؛ فيقرأ كتباً كثيرة جداً لكنها قراءة عن علم وبصيرة؛ ليست تكثّراً، ولا قراءة عشوائية، ولا لأجل أن يقال: ما أكثر ما قرأ فلان.

والمقصود أن القراءة إنما تنفع صاحبها إذا صحّت نيّته فيها، وصحّت طريقته، ولا ينال العبد ذلك إلا بتوفيق من الله تعالى؛ فعاد الأمر كلّه إلى فضل الله ورحمته، نسأل الله من فضله ورحمته.



الباب الرابع: أنواع القراءة



للقراءة أنواع متعددة بتعدد حاجات القرّاء وأغراضهم منها، وإنّ مما ينفع طالب العلم أن يتعرّف أنواع القراءة وأغراضها، وأن يأخذ من كلّ نوع ما يحتاجه، ويلائم حاله، وأن يفقه المقاصد من كلّ نوع، وما ينبغي أن تثمر له قراءته به.

وهذه المعرفة تعين طالب العلم على تنظيم قراءته، وتحسين تحصيله العلمي، ومعالجة جملة من الآفات الشائعة لدى كثير من القراء كاضطراب منهج القراءة، والتذبذب بين الكتب، وغلبة الفتور، والانصراف عن إتمام قراءة كثير من الكتب التي يشرع في قراءتها، وضعف التحصيل العلمي.

أنواع القراءة:

النوع الأول: قراءة التعلم والدراسة

وهي القراءة التي يكون غرض صاحبها دراسة مسائل العلم الذي يقرأ في كتبه دراسة شاملة مفصلة، وهذا النوع هو أهم أنواع القراءة، وألصقها بحاجة طالب العلم، وأحسنها أثراً، وهو المعتمد في التأسيس العلمي وبناء الأصول العلمية لطالب العلم، ومن سمات هذا النوع: أن القراءة فيه طويلة الأمد، ومقسّمة على مراحل، ومركّزة، بل قد يكرر القارئ قراءة بعض الكتب أو مواضع منها مراراً.

ولهذا النوع متطلبات مَن وُفّق للعناية بها حصّل في سنوات يسيرة علماً غزيراً مباركاً بإذن الله، **ومن ذلك:**

١. تنظيم القراءة على خطّة منهجية يتدرّج فيها الطالب في كلّ علم يقرأ فيه؛ فيبدأ بمختصرٍ فيه، ثم ينتقل إلى ما هو أوسع منه، ولا يزال يتدرّج في قراءة كتب ذلك الفنّ، ويتوسّع فيها حتى يكتسب معرفة حسنة واسعة بمسائل ذلك العلم.

ولذلك يوصى الطالب بالبدء بمختصر جامع لمسائل ذلك العلم يعرضها باختصار دون تطويل، حتى يكتسب المعرفة الإجمالية الشاملة لمسائل ذلك العلم، ثم يكون التفصيل والتوسّع في مراحل لاحقة.

٢. أن يُعنى بالتعرّف على معالم العلم الذي يقرأ فيه؛ فيحرص على معرفة أئمة ذلك العلم، ويقرأ في سيرهم وأخبارهم، وطرائقهم في طلب ذلك العلم، ويتعرّف كتبه التي تعدّ مراجع أصليّة فيه، يرجع إليها أهله وطلابه، ويعتنون بها، ويعرف في كلّ باب من ذلك العلم جملة وافرة من مسائله المهمّة.

وهذه المعرفة لا يكتسبها طالب العلم من أوّل ما يقرأ، لكن ينبغي أن يكون هذا المطلب حاضراً في ذهن القارئ وهو يقرأ في كتب ذلك العلم؛ فيقوده ذلك إلى العناية بما يتّصل بهذه المعالم في الكتب التي يقرأ فيها، ثم يقرأ في أوقات متفرقة في سير أئمة ذلك العلم، وينظر في بعض مصادره الأصلية ويتعرّف مناهج مؤلفيها، ويرجع إليها أحياناً، حتى إذا تأهّل لقراءة تلك الكتب لم يجدها غريبة عليه، بل يجد من نفسه إلفاً لها، ومعرفة بقدرِها ومكانتها لدى أهل ذلك العلم، وأثرها على الكتب المؤلفة في ذلك العلم بعده.

٣. العناية بضبط المسائل العلمية وتفهّمها، ولو مكث في الكتب المختصرة التي بدأ بها وقتاً يراه أكثر مما ينبغي لمجرّد قراءتها، فإنّ طالب العلم لا يختصر الوقت والجهد بمثل إتقان قراءة المختصرات، لأنها أصول يُبني عليها، وإذا كان الأصل قوياً متيناً، كان البناء عليه آمناً ميسوراً.

ولذلك قلّ أن يشتكي مَن يضبط المختصرات من صعوبة دراسة المسائل العلمية، وهي الشكوى التي تكثر لدى من يفرّط في ضبط مسائل المختصرات، ثمّ يرمي بنفسه في لجج المطوّلات على غير هدى.

وقليل من طلاب العلم مَن يثبت في فتنة الوقت الذي يقتضيه ضبط المختصرات، ويرى أن القراءة السريعة العابرة كافية لاجتيازها؛ وذلك لاشتغال نفسه برغبة الوصول السريع للمطولات.

٤. جمع العدّة التي يحتاجها لدراسة ذلك العلم بما يستطيع، ولكل أمرٍ ذي بالٍ عُدّته التي ينبغي للصادق في طلبها أن يحرص على حيازتها وإحسانها، وقد قال الله تعالى في ذمّ المنافقين الذين لم يصدقوا في رغبة الجهاد في سبيل الله: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾؛ فإعداد العدّة من علامات الصدق في الطلب، وكلّ صاحب صنعة إذا لم تكن عدّته وافية حسنة دخل عليه من الضعف والنقص بحسب ما فرّط فيها.

ومن العدّة التي يحتاج إليها طالب العلم في هذا العصر: اقتناء الكتب، والملفّات الإلكترونية، وتوفير الأدوات التي يحتاج إليها في الدراسة بما يناسب حاله، وتنظيم ملخصاته، وما يقيّد فيه فوائده من كتب أو ملفات إلكترونية، وتهيئة المكان الذي يدرس فيه، والصلة بطلاب العلم المتمكنين في ذلك العلم، إلى غير ذلك مما يحتاجه ليُحْسِنَ السير في رحلته العلمية الطويلة.

٥. الصبر على مداومة القراءة، وتنظيم ساعات اليوم بما يمكّنه من هذه المداومة، ومغالبة الشواغل والقواطع التي تصرفه عن القراءة، وإذا ابتلي بأمر يقطعه عن القراءة ولا قدرة له على دفعه، حرص على إشغال ذهنه بمراجعة ما مضى من تحصيله، وتثبيت العلم باستذكاره وتعاهده، وعَقَدَ العزم على معاودة القراءة والمداومة عليها متى أمكنه ذلك، وبَذَلَ ما يمكنه من الأسباب، ومن جاهد هُدي.

النوع الثاني: قراءة الجرد والتصفح

وهذا النوع مما يحتاجه طلاب العلم كثيراً، لما يظهر لهم من الحاجة لتصفح كتاب من الكتب غير المقيّدة في خطّة القراءة، أو لبحثٍ عن قول أو مسألة في كتاب معدودٍ من مظانّها.

ولقراءة الجرد والتصفّح فوائد كثيرة:

منها: أنّها تعرّف طالب العلم بما تضمنته بعض الكتب؛ فقد يحتاج إلى إدراجها في خطّة القراءة، وقد يقتصر على قراءة مواضع منها بحسب حاجته، وقد تدلّه على كتب أخرى.

ومنها: أنها توسّع مدارك طالب العلم، وتعرّفه بآفاق بحث المسائل التي درسها في المختصرات، فقد يقف فيها على جواب بعض ما أشكل عليه، أو معرفة أصول تلك المسألة التي درسها، وأساليب العلماء في بحثها وعرضها.

ومنها: أنها تعرّفه ببعض أخبار أئمة ذلك العلم، وطرقهم في بحث مسائله وعرضها.

والمداومة على قراءة التصفّح من وقت لآخر تعين القارئ على اكتساب سعة الاطلاع، ومعرفة مناهج المؤلفين وطبقاتهم، ومراتب الكتب، وتفرّع بعضها من بعض.

ولإحسان التصفّح والانتفاع به ينبغي أن يراعي القارئ جملة من الأمور:

منها: أن يعيّن غرضه من التصفّح ثمّ تنصرف همّته لتحقيق ذلك الغرض، ولا يتشاغل بغيره حتى يتمّه، ثم له بعد ذلك أن يقف عند ما شاء من الفوائد واللطائف، لأن الاشتغال بغير المقصود أصلاً يفضي به إلى التشتت والتذبذب؛ وذلك لأنه إذا سعى لتحقيق جملة من الأهداف ثم عرض له ما يثير انتباهه اشتغل به عن تلك الأهداف، وتراءت له أهداف أخرى تصرفه عن مساره، ومن كان هذا شأنه في القراءة اضطرب نظامه فيها ولا بدّ.

ومنها: أن يلحظ ما في ذلك الكتاب من الأمور التي تثري أصوله العلمية، وتزيد من معرفته بمعالم ذلك العلم، من غير أن يشغله ذلك عن تحقيق مقصده الأصلي من التصفح.

ومنها: أن لا يجعل هذا النوع هو الأصل في قراءاته.

النوع الثالث: القراءة الأدبية والذوقية

وهي التي يكون غرض القارئ منها التذوق الأدبي واكتساب المهارات والأساليب الحسنة في الكتابة والكلام؛ فيستمتع بقراءة تلك الكتب، ويقوّم لسانَه وقلَمَه.

والكتب التي تُقرأ لهذا الغرض تكون همّة القارئ فيها منصرفة إلى النظر في براعة المؤلف في الأسلوب وحسن بيانه، وجوانب إجادته، ومحاولة محاكاته أو الاستفادة من أساليبه وعباراته، أو يجد في نفسه رغبة في الاستمتاع بحسن بيانه، وكشفه عن المعاني بألفاظ وأساليب جاذبة لعناية القارئ.

وطالب العلم يحتاج إلى هذا النوع من القراءة بقدر ما يعينه على اكتساب المهارات البيانية وتقويم أسلوبه في الكتابة، ولا ينبغي أن تكون أكثر قراءاته في هذا النوع، لأنه إذا غلب عليه صرف همّته عن التحصيل العلمي المتين، وبناء أصوله العلمية.

ومن الكتب التي يحسن بطالب العلم قراءتها لاكتساب صنعة البيان وتقويم القلم واللسان: "أدب الكاتب" لابن قتيبة، و"الكامل" للمبرّد، و"الأمالي" لأبي علي القالي، و"البيان والتبيين" للجاحظ و"كتاب الحيوان" له ورسائله مع التحرّز من اعتزالياته، وكتب ابن المقفّع وابن الجوزي وابن القيّم.

ومن الكتب التي عنيت بتقريب الأساليب والمفردات التي يحتاجها الكاتب: "جواهر الألفاظ" لقدامة بن جعفر، و"عمدة الكُتَّاب" لأبي جعفر النحاس، و"عمدة الكُتَّاب" لأبي القاسم الزجاجي، و"حلية المحاضرة" للحاتمي، و"كتاب الصناعتين" لأبي هلال العسكري، و"المثل السائر" لابن الأثير، وغيرها.

وعامّة هذه الكتب مما يوصى القارئ أن يقرأها جهراً قراءة سهلة غير متكلفة، يراعي فيها الإعراب، ومواضع الوقف، وحسن الابتداء، وجودة الإلقاء، حتى يقوّم لسانه بالنطق الفصيح غير المتكلّف.

ولو سجّلها في ملفّ صوتي وعاود الاستماع إليها ليتعرّف جوانب الضعف ومواضع الخطأ لديه، فيجتهد في إصلاحها لكان حسناً بإذن الله.

وقراءة تلك الأنواع بالنظر قراءة سريعة لا يراعَى فيها محاولة تصحيح القراءة واكتساب مهارات الإلقاء والبيان تفوّت الغرض الأهمّ من تلك القراءة.

النوع الرابع: القراءة النقدية

وهي القراءة التي يكون غرض القارئ منها نقد الكتاب الذي يقرأه، ونقد الكتب هو تمييز جوانب الإجادة من التقصير والخطأ فيها، واستكشاف مكامن القوّة وعلل الأخطاء، وهذا النوع من القراءة يحتاجه طالب العلم في مراحل متقدمة من الطلب، وهو يستدعي أهلية علمية في العلم الذي ينقد كتبه، وقدرة على اكتشاف جوانب الإجادة والتقصير والخطأ، ومعرفة حسنة بمناهج أهل ذلك العلم، وتنوع طرقهم في دراسة وعرض مسائله، ولذلك فإن من الخطأ أن يتقحّم طالب العلم هذا النوع من القراءة قبل تأهّله له، واستعداده العلمي لنقد الكتب؛ وكثير ممن انحرف منهجه في القراءة كان بسبب قراءة كتب لم يتفطّن لمواضع الخلل فيها، واغترّ بزخرف بيان الكاتب وغفل عن مقاصده حتى ابتلي باستحسان ما حسّنه، واستقباح ما قبّحه، ومتابعته على ضلالته.

وعماد القراءة النقدية على أربعة أمور:

١. استكشاف مصادر الكاتب التي استمدّ منها معلومات الكتاب، وهذه المصادر إما أن تكون مما صرّح بذكره، وإما أن تكون مما يمكن استخراجه بالنظر والموازنة بين الكتاب وكتب أخرى، وإمّا أن تكون من مخزون معرفي متراكم لدى

الكاتب في العلم الذي يكتب فيه.

٢. وتعرف منهج الكاتب في تناول مسائل العلم الذي كتب فيه، وموازنته بمنهج أئمة ذلك العلم، للوقوف على مدى موافقته إياهم أو مخالفته لهم.

٣. واستخراج مقاصد الكاتب التي يريد تحقيقها بكتابه، وهي مقاصد قد تكون صريحة، وقد تكون مما يستخرج بالنظر والتأمّل.

٤. والنظر في الأدوات العلمية التي يستعملها الكاتب في معالجة معلومات الكتاب للوصول إلى النتائج التي يريد إبرازها، والمقاصد التي يريد تحقيقها.

وشرح هذه الأمور الأربعة والتمثيل عليها يطول ويخرجنا عن المقصود، وهذه الإشارات فيها كفاية للقارئ اللبيب.

النوع الخامس: القراءة المجردة

وهي القراءة التي تكون غاية القارئ منها مجرد الاستطلاع كقراءة أخبار الصحف والمجلات وبعض المقالات وما تقذف به وسائل التواصل وتقنية المعلومات، وقد عمّت بها البلوى في هذا الزمان، حتى غلبت على كثير من القرّاء، وزاحمت أنواع القراءة الأخرى؛ فشُغِلوا بها عن التحصيل العلمي، وخسروا كثيراً من أوقاتهم في فضول لا طائل من ورائه، بل بلغ الإدمان عليها ببعضهم مبلغاً أضرّ به في نفسه وعمله وكثير من شؤون حياته.

ولذلك يوصى القارئ بأن يجعل لهذا النوع من القراءات فضول أوقاته، وأن يحذر من أن يستأثر بنفائس أوقاته، وإذا قرأ في شيء من هذا النوع فلا يتتبّع الفضول ولغو الحديث فيه، وما لا نفع من وراء تقصّيه، وليقصر نفسه على ما يرجو فائدته.

وليعلم أنّ النفس إذا لم تُشغل بشيء يملأ وقتها ويعود عليها بالنفع شغلت صاحبها بما تهواه، وأجلب عليها الشيطان بتزيين خطواته حتى يقوده إلى ما فيه حرمانه وشقاؤه.



الباب الخامس: تنظيم القراءة وبناء الأصول العلمية

القراءة المنظمة من أعظم روافد التحصيل العلمي وأحسنها، وهي كمَثل البناء الذي يبنيه صاحبه لبنةً لبنةً حتى يشيد بناء عالياً محكماً ينتفع به، والذي يقرأ قراءة عشوائية على غير هدى كالذي يقذف باللبنات قذفاً حتى يكون لديه ركام من اللبنات، وربما حطم بعضها بعضاً.

ولهذا فإن القراءة العشوائية لا تنتج بناء محكما، ولا تثمر تحصيلاً علمياً يُعتمد عليه، وإنما قد يحصّل القارئ منها معارف متفرقة في بعض العلوم، أو يقضي بها وقتاً ممتعاً في القراءة، على أنه لا يأمن سوء الفهم ولا فساد التصور لأنه أتى الأمور من غير بابها.

وعماد تنظيم القراءة على ثلاثة أمور:

الأول: أن يعرف القارئ لماذا يقرأ؟

والثاني: ماذا يقرأ؟

والثالث: كيف يقرأ؟

فالأمر الأول: يتعلق بتعيين مقاصده من القراءة وغايته من طلب العلم حتى يبني خطّته في القراءة على تلك المقاصد ويرتّبها على مراحل السير إلى بلوغ الغاية.

والأمر الثاني: يعينه على تحقيقه وضوح المنهج في القراءة، ومراعاة المستوى العلمي، وما يحتاجه القارئ في كل مستوى، وهذا يتحقق في أوّل الأمر بالإشراف العلمي من عالم أو طالب علم متمكن يعينه على اختيار الكتب والرسائل، ثمّ ييسير

في خطّة القراءة بما يناسب مراحله التعليمية.

والأمر الثالث يتعلّق بتصحيح وتحسين طريقة القراءة حتى يستفيد من قراءته للكتاب في زيادة تحصيله العلمي، وهو لبّ موضوعات هذا الكتاب، وسأذكر فيه أصولًا مهمّة استفدت عامّتها من تأمّل طرائق أهل العلم في القراءة، ومن تحليل عملية القراءة، وطرق انتقال المعرفة وتثبيتها؛ وآمل من دارس هذا الكتاب أن يراعيها لينتفع بقراءته ولتكون له ملكة حسنة في القراءة.

التذكير بمراحل التكوين العلمي لطالب العلم

مما يحسن التذكير به أن طالب العلم يمرّ في مسيرته العلمية بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: التأسيس العلمي، وهي المرحلة التي يكتسب فيها مبادئ العلوم بإشراف علمي من عالم أو طالب علم متمكن، ويدرس فيها مختصرات في علوم المقاصد وعلوم الآلة.

والمرحلة الثانية: البناء العلمي، وهي المرحلة التي يكون فيها أكثر تحصيل طالب العلم، وهي أطول المراحل، وتستدعي من طالب العلم مداومةً حسنة وتنظيماً للقراءة والدراسة حتى يُحسنَ بناءه العلمي ويكمّلَه.

والمرحلة الثالثة: النشر العلمي، وهي مرحلة تزكية العلم ونشره بالتعليم والتأليف وكتابة المقالات وإلقاء الدروس والخطب وغير ذلك من وسائل النشر.

ولكل مرحلة سماتها ومقوّماتها التي سبق التفصيل فيها في محاضرة بعنوان «**مراحل التكوين العلمي لطالب العلم**».

ولكل مرحلة من هذه المراحل أثرها في تنظيم القراءة، ورسم خطّتها، ولذلك ينبغي لطالب العلم أن تكون عنايته في أوّل الأمر متجهة للقراءة في الكتب التي يتمّم بها مرحلة التأسيس العلمي في علوم المقاصد والآلة، حتى يجتاز مرحلة المبتدئين في كلّ علم.

وعامّة كتب مرحلة التأسيس العلمي من المختصرات، لكنّها تستدعي دراسة مركزة يعنى فيها الطالب بضبط المسائل العلمية، وإحسان فهمها.

ثم تكون عنايته بعد ذلك ببناء أصوله العلمية في كلّ فنّ من فنون العلم، ولا بأس أن يتخصص في علم منها، ويتوسّع في قراءة كتبه، بعد أن يكون قد أخذ نصيباً حسناً من التأسيس العلمي في علوم الشريعة واللغة العربية.

بناء الأصول العلمية:

من أهمّ ما يعين طالبَ العلم على تنظيم القراءة، ورسم خطّتها، وتجلية ثمرتها: العناية ببناء الأصول العلمية التي يستكمل بها الطالب تحصيله العلمي، ويضبط بها مسائله ويتعاهدها، ويرجع إليها وقت حاجته.

وهذه الأصول خاصة بالطالب، وهي إمّا مذكرات أو ملفات إلكترونية أو كتب جامعة في كل فنّ يطلبه، يختارها ويعلّق عليها ويضيف إليها حتى تكون عمدته في ذلك الفنّ.

وطالب العلم إذا توجّهت عنايته لبناء أصل علمي في علم من العلوم كانت خطته في القراءة متجهة لتحقيق هذا المقصد المهم.

وكلّ من تطلّعت نفسه للتمكن في علم من العلوم حتى يبلغ مرتبة العلماء فيه؛ فليعلم أن رصيده الحقيقي من ذلك العلم إنما هو ما ضبطه من مسائله ضبطَ صَدْرٍ أو ضبطَ كتاب؛ فإن كانت معرفته لمسائل ذلك العلم شاملة مفصلة مؤصّلة على طريقة أهل ذلك العلم كان معدوداً منهم.

وإن كان في ضبطه لمسائل ذلك العلم نقص أو ضعف لحقه من القصور والتقصير في بنائه العلمي بقدر ما فرّط في ضبطه من المسائل.

ولذلك فإنّ الأصول العلمية التي يتخذها طالب العلم لنفسه لها أثر كبير في ضبط المسائل العلمية، وتنمية المهارات، وتوسيع المدارك، والإلمام بأطراف العلوم،

والمعرفة بمراتب الكتب، ومناهج العلماء، وهي ثروته العلمية في حقيقة الأمر.

ومن تأمّل سير العلماء وطرائقهم في طلب العلم وتحصيله وضبطه وجد عنايتهم ببناء الأصول العلمية ظاهرةً بيّنة، وعلمَ أنّها من أسباب تمكنهم العلمي وسعة معرفتهم وضبطهم لمسائل العلم وأدلّته.

وهذه الأصول وإن كانت غير منشورة إلا أنّها أصول يستخرجون منها مصنفاتهم، ويعتمدون عليه كثيراً في مؤلفاتهم، وينتقون منها ما يصلح للنشر، ويتعاهدونها بالمطالعة والتهذيب والإضافة حتى إنّ منهم من يحفظها من كثرة مداومته على مطالعتها، كما قال إسحاق ابن راهويه: (كأني أنظر إلى مائة ألف حديث في كتبي).

وقد نقل البيكنديّ هذه العبارة إلى محمد بن إسماعيل البخاري: فقال: (أوتعجب من هذا؟ لعلّ فِي هذا الزمان مَن ينظر إلى مائتي ألف حديث من كتابه).

قال البيكندي: (وإنّما عَنى بِهِ نفسه). وهذه الحكاية في «تاريخ بغداد» للخطيب.

وكتابه المقصود هنا إنما هو أصله العلمي الذي اتّخذه لنفسه، وأما صحيحه فأحاديثه نحو سبعة آلاف.

- وقال الإمام أحمد: (انتقيتُ المسند من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألف حديث).

وأحاديث المسند نحو ثلاثين ألف حديث.

- وقال الإمام مسلم: (صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة).

- وقال أبو داود: (كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمّنته كتاب السنن).

- ومن تأمّل ما أجاب به الدارقطني في "كتاب العلل" مما يدلّ على سعة معرفته بالروايات وجمعه للطرق وتفطنّه لعلل الأسانيد علم أنّ ذلك لم يكن ليتهيّأ له من غير أصل علمي كبير متقن.

- وذكر ابن رشيق المغربي عن ابن تيمية رحمه الله أنّه وقف على خمسة وعشرين تفسيراً مسنداً، وأنه كتب نقول السلف مجردًا عن الاستدلال على جميع القرآن.

وهذا أصل علميّ مهمّ في التفسير، أرى أنّه من أعظم أسباب القوة العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير.

والأمثلة على عناية العلماء ببناء أصول علمية خاصة بهم كثيرة.

وقد ذكرت من أخبار العلماء في اتّخاذ الأصول العلمية وبيان أنواعها في درس «**التكوين العلمي**» ما يكفي بإذن الله تعالى.

أنواع الأصول العلمية:

تنظيم القراءة ينبغي أن يصاحبه تنظيمٌ للأصول العلمية، وأن تكون قراءات طالب العلم خادمة لبناء أصوله العلمية وإثرائه المعرفي، وإذا جمع طالب العلم بين النهمة في القراءة وبناء الأصول العلمية رُجي له أن يبلغ مرتبة عظيمة في العلم.

والأصول العلمية على نوعين:

النوع الأول: أصول محفوظة في الصدر، يتعاهدها العالم وطالب العلم حتى يرسخ علمه بها، ويتمكن من حفظها، وتفهُّم معانيها، والبناء عليها في استخراج المسائل والدلائل.

ومن أهمّ ذلك حفظ الأدلة والمسائل، وضبطها على الأبواب، فيجتهد في حفظ مسائل كل باب وأدلته، وقد كانت المذاكرة على الأبواب من أوجه المذاكرة عند المحدّثين.

قال أبو زرعة الرازي: (كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث!!)

قيل له: وما يدريك؟

قال: (ذاكرته فأخذت عليه الأبواب). رواه الخطيب البغدادي في تاريخه.

والنوع الثاني: أصول مكتوبة، يُعنى بتدوينها وتصنيفها، ومداومة الاطلاع عليها وتهذيبها، والإضافة إليها، حتى يستكمل بناءه العلمي ويتقنه.

ومن العلماء من يجمع العناية بالنوعين، فتكون له أصول محفوظة وأصول مكتوبة، وهو أكمل وأحسن.

وينبغي أن لا يتبرم طالب العلم من كثرة الكتابة والتصنيف والفهرسة والتلخيص وإثراء أصوله العلمية بما يدوّنه ويجتهد في جمعه، وليذكّر نفسه بما نُقِلَ عن جماعة من العلماء المتقدمين من العناية بكتابة الأصول العلمية الكبيرة وتعاهدها.

- ومن ذلك ما رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» عن عبد الله بن جعفر بن خاقان السلمي أنه قال: سألت إبراهيم بن سعيد الجوهري عن حديث لأبي بكر الصديق؛ فقال لجاريته: (أخرجي إلي الثالث والعشرين من مسند أبي بكر).

فقلت له: لا يصح لأبي بكر خمسون حديثا، من أين ثلاثة وعشرين جزءا؟

فقال: (كلّ حديث لم يكن عندي من مائة وجه فأنا فيه يتيم).

وإبراهيم الجوهري هو الحافظ أبو إسحاق الطبري (ت:٢٤٩هـ) من شيوخ مسلم وأبي داوود وابن ماجه والترمذي والنسائي، كان معروفاً بكثرة كتابة الأحاديث، قال عنه الإمام أحمد كما في "التهذيب": (كثير الكتاب، كتب فأكثر).

وهذا من دلائل عنايته ببناء أصل علمي كبير له في الحديث، صنّفه على المسانيد، وقسّمه إلى أجزاء.

ومعرفتُه بالجزء الذي فيه الحديث يستفاد منه تعاهده لأصله حتى تيسّرت له هذه المعرفة.

وهكذا ينبغي أن يكون حال طالب العلم في تنظيم أصوله وعنايته بها، وأن تكون قراءاته معينة له على إتمام بناء أصوله العلمية وتحسينها، وتعاهدها حتى يكاد يستظهر ما فيها.

- وروى الخطيب البغدادي في تاريخه عن أبي بكر بن صدقة أنه قال: سمعت أبا القاسم بن الجَبُّلي، قال: قدم رجل فقال لي: أريد رجلا يكتب لي من كتاب الصلاة ما ليس في كتب ابن أبي شيبة.

قال: فقلنا: ليس لك إلا أبو بكر الأثرم.

قال: (فوجّه إليه ورقاً فكتب ست مائة ورقة من كتاب الصلاة، فنظرنا فإذا ليس في كتاب ابن أبي شيبة منه شيء).

وهذا أمرٌ لم يكن ليتأتّى له لولا أنّه كان لديه أصل علمي كبير اعتنى بجمعه وتصنيفه.

- وكذلك كان يحيى بن معين من المعروفين بكثرة كتابة الأحاديث مع البصيرة بأحوال الرجال وطرق رواية الأحاديث، حتى جمع أصلاً علمياً كبيراً في الأحاديث، وهذا الأصل خاصّ به لم يكن منشوراً، لأنه كتبه لنفسه ليميز به الأحاديث ويعرف به طرقها.

قال محمد بن نصر الطبري: دخلت على يحيى بن معين فعددت عنده كذا وكذا سِفْطا يعني دفاتر وسمعته يقول: (قد كتبت بيدي ألف ألف حديث).

وسمعته يقول: (كل حديث لا يوجد ها هنا -وأشار بيده إلى الأسفاط- فهو كذب). رواه ابن عساكر في "تاريخ دمشق".

وهذا يدلّ على أنّه بلغ رتبة عالية في جمع الأحاديث والرحلة إلى أئمة الرواية في الأمصار، وكتابة ما لديهم من الأحاديث والآثار، وتغذية أصوله العلمية بها، وكانت عامة كتاباته لبناء أصولٍ علمية تعينه على ضبط الأحاديث ومعرفة أحوال الرجال وتمييز مروياتهم.

ولذلك قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: (كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث). رواه الخطيب البغدادي في تاريخه.

- وروى ابن عساكر في "تاريخ دمشق" عن علي بن المديني أنه قال: (ما أعلم أحداً كتبَ ما كتبَ يحيى بن معين).

وفي رواية له أخرى عنه أنه قال: (لا نعلم أحداً من لدن آدم كتب من الحديث ما كتب يحيى بن معين).

والذي يظهر أنّ معرفته بالعلل إنما كان سببها كثرة عنايته بجمع الطرق والموازنة بين المرويات، ومع ذلك لم يتفرّغ للتصنيف والتأليف كما فعل أصحاب الكتب الستة وغيرهم، وإنما كانت كتابته لخاصة نفسه، وليُفيد مَن يسأله عن الأحاديث وعللها ورواتها، وهو الذي اشتهر عنه قوله: (إذا كتبت فقمّش، وإذا حدثت ففتش).

وقال أيضاً: (سيندم المنتخِب في الحديث حين لا تنفعه الندامة).

والمنتخِب هو الذي ينتقي من الأحاديث.

- ومن عجيب أمر يحيى بن معين في حرصه على الاستيعاب والضبط ما رواه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي» عن أبي بكر الأثرم أنه قال: رأى أحمدُ بن حنبل يحيى بن معين بصنعاء في زاوية وهو يكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس؛ فإذا طلع عليه إنسان كتمه؛ فقال له أحمد بن حنبل: تكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس وتعلم أنها موضوعة؟ فلو قال لك قائل: إنك تتكلم في أبان ثم تكتب حديثه على الوجه؟

فقال: (رحمك الله يا أبا عبد الله! أكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق عن معمر على الوجه فأحفظها كلها، وأعلم أنها موضوعة، حتى لا يجيء بعده إنسان؛ فيجعل بدل أبان ثابتاً، ويرويها عن معمر عن ثابت عن أنس بن مالك؛ فأقول له: كذبت إنما هي عن معمر عن أبان لا عن ثابت).

- وكذلك سفيان الثوري رحمه الله كانت له أصول كبيرة، وكان كثير الكتابة للحديث مع حسن الضبط ومعرفة العلل وفقه الحديث.

قال ابن أبي حاتم: (حدثنا أبو سعيد الاشج، حدثنا أبو عبد الرحمن الحارثي قال: خاف سفيان شيئاً فطرَح كُتُبَه، فلمّا أَمِنَ أرسلَ إليَّ وإلى يزيد بن ثوير المرهبي؛ فقال: أخرجوا الكتب؛ فدخلنا البئر فجعلنا نخرجها؛فأقول: يا أبا عبد الله! وفي الركاز الخمس! - وهو يضحك - فأخرجنا تسعَ قِمَطْرَاتٍ كل واحد إلى هنا وأشار إلى أسفل ثندوته.

قال: فقلت: اعزل كتابا تحدّثني به.

قال: فعزل لي كتاباً فحدَّثني به).

القِمَطْرات جمع قِمَطْر، وهو وعاء كبير كالخزانة تُحفظ فيه الكتب، وكان أكثر ما يُعمل من القصب، والثندوة للرجل كالثدي للمرأة.

- وذكر ابن أبي حاتم الرازي (أنّ محمد بن مسلم بن وارة وفضلك الصائغ جرت بينهما مذاكرة فاختلفا في رواية حديث؛ فاحتكما إلى أبي زرعة الرازي وكان حاضراً؛ فسكت؛ فلمّا ألحّ عليه محمد بن مسلم قالَ: هاتوا أبا القاسم ابْنَ أَخِي، فدُعي بِهِ فَقَالَ: اذهب فادخل بَيْتَ الكتب فدَعِ القِمَطْرَ الأَوَّل، والقمطر الثَّانِي، والقمطر الثالث وعدَّ ستة عشر جزءا وائتني بالجزء السابع عشر.

فَذَهَبَ فجاء بالدفتر فدفعه إِلَيْهِ، فأخذ أَبُو زُرْعَة فتصفح الأوراق فأخرج الحَدِيث ودفعه إِلَى مُحَمَّد بْن مُسْلِم)ا.هـ ملخصاً.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: (سمعت أبا زرعة يقول: سمعت من بَعْض المشايخ أحاديث، فسألني رجل من أَصْحَاب الحَدِيث فأعطيتُه كتابي فردَّ عَليَّ الكتاب بَعْد ستة أشهر، فأنظر فِي الكتاب فَإِذَا بِهِ قَدْ غَيَّر فِي سبعة مواضع!!

قال أَبُو زُرْعَة: فأخذت الكتاب وصرت إِلَى عنده، فَقُلْتُ: ألا تتقي اللهَّ تفعل مثل هَذَا؟!!

قال أَبُو زُرْعَةَ: وأوقفته على موضع وأخبرته، وقلت له: ما هذا الذي غيرت؟!! هذا الذي جعلت ابن أبي فديك فإنَّه عن أبي ضمرة مشهور، وليس هذا من حديث ابن أبي فديك، وأما هذا فإنه كذا أو كذا، فإنه لا يجيء عن فلان، وإنما هو كذا، وأما كذا فكذا، فلم أزل أخبره حتى أوقفته على كله.

ثم قال [أبو زرعة]: أما أني قد حفظت جميع ما فيه في الوقت الذي انتخبت على الشيخ، ولو لم أحفظه لكان لا يخفى عليَّ مثل هذا، فاتق الله يا رجل.

قال ابن أبي حاتم: فقلت له: من ذلك الرجل الذي فعل هذا؟ فأبى أن يسمّيه).

وهذه المعرفة الدقيقة بمواضع الأحاديث وتمييز ما يُجرى على بعض الأصول من التغيير لم يكن ليتأتّى لهم لولا طول مصاحبة أصولهم وتعاهدها بالحفظ والمراجعة حتى سهل عليهم استظهار ما فيها.

وقد كانت بعض أصول المحدّثين عظيمة جداً حتى يضطر للاستعانة بورّاقين لتبييضها.

قال أبو القاسم الأزهري: (بلغني أن يعقوب [بن شيبة] كان في منزله أربعون لحافاً، أعدها لمن كان يبيت عنده من الوراقين لتبييض المسند ونقله). رواه الخطيب البغدادي في تاريخه.

ومسنده هذا كان من أكبر المسانيد في "تاريخ الإسلام"، وأحسنها عرضاً للأحاديث وطرقها، ولكنّه لم يتمّ، وقد أطنب الذهبي في مدحه في مواضع من كتبه:

فقال في "سير أعلام النبلاء" في ترجمة يعقوب بن شيبة: (صاحب المسند الكبير، العديم النظير، المعلل، الذي تم من مسانيده نحو من ثلاثين مجلدا، ولو كمل لجاء في مائة مجلد).

وقال في وصف منهجه في مسنده: (يذكر أولا سيرة الصحابي مستوفاة، ثم يذكر ما رواه، ويوضح علل الأحاديث، ويتكلم على الرجال، ويجرح ويعدل بكلام مفيد

عَذْبٍ شافٍ، بحيث إن الناظر في مسنده لا يملّ منه، ولكن قلَّ من روى عنه)ا.هـ.

وقال في "تذكرة الحفاظ": (صاحب المسند الكبير المعلَّل، ما صُنّف مسندٌ أحسن منه، ولكنه ما أتمه).

وقال في "تاريخ الإسلام": (صنَّف مسندًا كبيرًا إلى الغاية القصوى لم يُتمّه، ولو تمّ لجاء فِي مائتي مجلد).

واختلاف التقدير راجع إلى اختلاف النظر من وقت لوقت أو إلى تقدير حجم المجلد؛ فالمجلد الكبير ليس كالمتوسط.

وقد مات وهو يقرأ مسند عتبة بن غزوان على حفيده راوي مسنده، وقد جاوز الثمانين من عمره.

قال الخطيب البغدادي: حدثني الأزهري قال: سمعت جماعة من شيوخنا، وسمَّى منهم أبا عمر بن حيويه، وأبا الحسن الدارقطني، يقولون: (لو أن كتاب يعقوب بن شيبة كان مسطورا على حمام لوجب أن يكتب).

قال الذهبي: (يعني: لا يفتقر الشخص فيه إلى سماع).

وقال الذهبي أيضاً: (والذي ظهر له: مسند العشرة، وابن مسعود، وعمار، والعباس، وعتبة بن غزوان، وبعض الموالي).

ومن هذه المسانيد ما هو متعدد الأجزاء، وقد طُبع من مسنده الجزء العاشر من مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه طبعات عدّة، وقد اطّلعت عليه فرأيته آيةً في حسن سرد الأحاديث وجمع طرقها، والتنبيه على عللها.

والمقصود أنّ يعقوب بن شيبة جمع من العلم ما احتاج في تبييضه إلى ورّاقين يساعدونه، ومع ذلك لم يتمّ تصنيف مسنده لكبر حجمه.

والمقصود من ذكر هذه الأمثلة حثّ طلاب العلم على العناية ببناء أصولهم العلمية وتنظيمها، وتنظيم قراءاتهم حتى يُحسنوا إعداد العدّة العلمية لنشر

العلم والدعوة إلى الله تعالى بالتعليم والإرشاد والتأليف وكتابة المقالات وإعداد المشروعات العلمية النافعة.

من بركات كتابة العلم:

وكتابة العلم فيها بركات كثيرة؛ فكم من فائدة حرّكت القلب، وحملت على طاعة، وزجرت عن معصية، وصبّرت في بلاء، مع ما يستفيده كاتب الحديث من كثرة الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد روى الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" عن أبي الحسن أحمد بن محمد الجرجاني أنه قال: سمعت حفص بن عبد الله بأردبيل، يقول: اشتهيت أن أرحل إلى أبي زرعة الرازي؛ فلم يقدّر لي؛ فدخلت الريّ بعد موته، فرأيته في النوم يصلي في سماء الدنيا بالملائكة، فقلت: عبيد الله بن عبد الكريم؟

قال: نعم.

قلت: بم نلت هذا؟

قال: (كتبت بيدي ألف ألف حديث، أقول فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشرا»).

فهذه رفعة بسبب كثرة صلاته على النبي صلى الله عليه وسلم في كتابته للحديث.

مسارات تنظيم القراءة وطرق بناء الأصول العلمية:

سلك العلماء مسارات متنوّعة في تنظيم قراءاتهم وبناء أصولهم العلمية بما يحقق مقاصدهم، ويوافق ما أنعم الله به عليهم من ملَكاتٍ ومهارات، والناس يتفاوتون في مواهبهم وقدراتهم وأوجه عناياتهم، وقد رُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «**قيمة كل امرئ ما يحسن**»، ومن فُتح له في باب نافع فليلزمه وليشكر نعمة الله عليه بما فتح عليه ويسّر له إتقانه، وليحذر أن يتكلّف ما لا يحسن حتى يدع

ما يحسن رغبة منه في اختيار الأفضل في نفسه، فإنّ من يختار علماً صحيحاً مفضولاً يتيسّر له إتقانه ونشره خير ممن يختار علماً فاضلاً لا يتيسّر له إتقانه، ولا يُنتفع منه فيه.

وإذا عرف طالب العلم ما يحسن من العلوم، وما يرجو أن يفتح له فيه ويكون له به أثر حسن إذا تعلّمه وعلّمه؛ أعانه ذلك على تنظيم قراءته بما يحقق له مقاصده من التعلم والتعليم، ولو كان العلم الذي اختاره مفضولاً عند الموازنة بين العلوم؛ فإنّه بالنية الصالحة والصدق في الطلب وقصد النفع وحسن الأثر يرجى أن يبارك الله له في علمه، وأن يؤيّده ويسدده حتى يكون لعلمه أثر في العلوم الفاضلة.

وتأمّل سيرة الإمام اللغوي أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني(ت:٢٩١هـ) الملقب بثعلب، وهو ممن أحسن تنظيم القراءة حتى بلغ مرتبة الأئمة المبرزين في علم اللغة، وصار ممن يُرجع إليه فيما يتّصل بالتفسير اللغوي وشرح الأحاديث، وأقبل العلماء على كتبه يتدارسونها وينتفعون بها.

هذا الإمام أقبل على قراءة كتب الفرَّاء فحذقها وعمره لم يجاوز الخامسة والعشرين، ثم استزاد عليها من كتب غيره ومما تعلمه من شيوخه فصار إماماً ذا شأن عظيم لدى أهل العلم.

قال عنه ياقوت الحموي: (إمام الكوفيين في النحو واللغة والثقة والديانة).

وقال الإمام أبو بكر بن مجاهد وهو أول من اختار الأئمة السبعة في القراءات: (كنت عند أبي العباس ثعلب، فقال لي يا أبا بكر: اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو، فليت شعري ما يكون حالي في الآخرة؟

فانصرفت من عنده، فرأيت تلك الليلة النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال لي: أقرئ أبا العباس عني السلام، وقل له: إنك صاحب العلم المستطيل)ا.هـ.

المستطيل: أي المنتشر الذي يبلغ نفعه أهل التفسير والحديث والفقه.

وثناء العلماء عليه مشتهر معروف، وكان -رحمه الله -حريصاً على القراءة حتى إنه مات وهو يقرأ، كان يسير في طريقٍ ومعه كتاب يقرأه وقد بلغ التسعين من عمره؛ فصدمته دابة فمات منها، رحمه الله رحمة واسعة.

والمقصود من ذكر هذا المثال أن طالب العلم إذا أقبل على ما يُحسنه ورسم لنفسه خطة في القراءة وسار عليها بجدّ واجتهاد فإنه يحصّل تحصيلاً عظيماً بإذن الله تعالى.

وأوجه العناية العلمية التي يمكن أن يبرز فيها طلاب العلم متنوّعة، ومن النافع لطالب العلم أن يطّلع على تنوّع مسالك أهل العلم في القراءة، حتى يتبيّن له ما يمكن أن يعدّه مقصده العامّ من القراءة ليجعله أصلاً يبني عليه خطّته في تنظيم قراءته.

فأهل العلم قد تنوّعت مسالكهم في تنظيم قراءاتهم واختلفت أوجه عناياتهم:

١: فمنهم: من يقبل على قراءة كتب إمام من الأئمة فيعتني بها عناية بالغة حتى يكاد يحفظها لإدمانه قراءتها ومراجعتها ومعرفة مواضع المسائل فيها، كما فعل الإمام ثعلب مع كتب الفراء.

- وكما فعل الفقيه الحنبلي ابن مفلح مع رسائل ومسائل الإمام أحمد، حتى كان مرجعاً فيها، حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية وهو شيخه يسأله ويستفيد منه مع عظيم عناية شيخ الإسلام بأقوال الإمام أحمد وآثاره، ولكن كان لابن مفلح مزيد عناية بأقوال الإمام أحمد وتمييز مراتب الروايات عنه، حتى قال عنه ابن القيم: (ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح).

- وكما فعل ابن القيم بكتب شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه حذقها ولخص أكثرها وحرص على تقصّيها وله رسالة اسمها: "أسماء مؤلفات ابن تيمية".

- وكما فعل الشيخ عبد الرحمن السعدي بكتب ابن تيمية وابن القيم فإنه اعتنى بها عناية كبيرة حتى إن أكثر علمه مستفاد من مدرسة شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم.

٢: ومنهم من يزيد في ذلك فيقبل على علم عالم حتى يحصّل ما لديه ويستقصي منه ما استطاع، ثمّ ينتقل إلى غيره فيستقصي ما لديه، إلى أن يجمع علماً غزيراً؛ كما ذُكر عن الحافظ الكبير ابن ديزيل وهو إبراهيم بن الحسين الكسائي الهمذاني (ت:٢٨١هـ) رحمه الله، وكان من خاصة طلاب المحدث الكبير عفان بن مسلم الصفّار، حتى لقب بدابّة عفان، لكثرة ملازمته إيّاه.

وكان العلماء يتعجبون من حفظه وجَلَده في استماع الحديث وتكراره وحفظه وكتابته وجَرْد ما عند المحدّثين بإتقان وحسن تقصٍّ حتى لقّبه بعضهم بسِيفَنّة.

قال الدّامغاني: (إنما لُقّب إبراهيم بسيفنّة لكثرة كتابته الحديث، وسِيفَنَّة طائر بمصر لا يقع على شجرة إلاّ أكل ورقها حتى لا يُبقي فيها شيئاً، وكذلك إبراهيم إذا وقع إلى محدّث لا يفارقه حتى يكتب جميع حديثه).

وقد تقدّم ثناء العلماء عليه، وقول الذهبي فيه: (إليه المنتهى في الإتقان).

٣: ومن أهل العلم من يجعل له في كل فن أصلاً يدمن قراءته حتى يكاد يحفظه ثم يضيف إليه من غيره بعض اللطائف والفوائد.

- قال ابن فرحون: (لازمت تفسير ابن عطية حتى كدت أن أحفظه).

- وكان الزركشي يلقب بالمنهاجي لكثرة عنايته بـ"منهاج الطالبين" للنووي.

- والعلامة الكافِيجي شيخ السيوطي لقب بذلك نسبة إلى "الكافية" لابن الحاجب لكثرة قراءته وإقرائه لها.

٤: ومنهم من يحفظ متناً أو أكثر في علم من العلوم، ويدرس شرحها دراسة جيدة، ويراجع محفوظاته، ثمّ ينظّم قراءاته في كتب ذلك العلم، وكلما استفاد فائدة أضافها إلى أصله العلمي، وعرف موضعها منه، حتى ينمو أصله العلمي بمداومته على القراءة والتحصيل واستخراج الفوائد.

وكان شيخنا ابن عثيمين رحمه الله يحفظ متن "زاد المستقنع" في الفقه، وقد عُني بدراسته وشرحه، وله عليه الشرح الممتع، وقد طبع في خمسة عشر جزءاً.

وقد ذكرت في درس «**التكوين العلمي**» أنواع الأصول العلمية لدى أهل العلم بتفصيل أكثر مما هنا، ومثّلت لها بأمثلة؛ فليرجع إليها من شاء.

وطرق بناء الأصول العلمية متنوّعة:

فمنها: اختيار كتاب من الكتب الجامعة في ذلك العلم؛ فيداوم الطالب على قراءته وتفهّمه، والتعليق عليه بالفوائد واللطائف والاستدراكات.

ومنها: أن يقبل على كتب عالم من العلماء فيتقصّى ما فيها من المسائل حتى يبني بها أصلا علمياً متيناً، ثم يضيف إليه بعد ذلك ما يتيسّر له.

ومنها: أن يختار كتباً مهمة في علم من العلوم فيقبل على تلخيصها في مذكرة واحدة يجمع فوائدها ويفهرس مسائلها، ويرتب ملخصه على أبواب ذلك العلم.

ومنها: أن يقسّم ذلك العلم إلى أبواب ثمّ يفهرس مسائل كل باب بمطالعة مراجع ذلك العلم والكتب المفردة في ذلك الباب.

ومن أيسر الطرق لبناء أصل علمي في علم من العلوم أن تختار منه كتابين أو ثلاثة من الكتب الجامعة؛ فتلخصها وتفهرس مسائلها، وتقسّمها إلى أبواب، وتجعل لكل باب مذكّرة أو ملفاً إلكترونياً تضع فيه ما يختصّ به من تلخيصاتك وفوائدك، **فإذا أتممت كُتب المرحلة الأولى خرجت بأصل علمي مهمّ، يمكنك البناء عليه والزيادة فيه بطريقتين:**

إحداهما: أنك كلما عرضت لك فائدة حسنة أو وجدت تفصيلا أو استدلالا حسنا أضفته إلى موضعه في أصلك العلمي.

والأخرى: أن تواصل القراءة المنهجية المنظمة في كتب ذلك العلم، وتضيف إلى أصلك ما يستجدّ من الفوائد، وقد تجد في بعض الأبواب من ذلك العلم كتباً

مفردة، بل ربما تجد في بعض المسائل مؤلفات مفردة؛ فيثمر لك الاطلاع عليها، وتدوين فوائدها وإلحاقها بأصلك العلمي ثمرات علمية كثيرة، من أهمّها تقوية بنائك العلمي، وتوسيع مداركك في ذلك العلم، وتعرف مناهج العلماء في بحث وعرض المسائل العلمية وتنوّع طرائقهم في دراستها.

وليُعلم أنّ أصعب ما في البناء أوّله، ومن وفّق لتجاوز عقبة البداية هان عليه ما بعدها بإذن الله، ثمّ إذا وجد طالب العلم نفع أصوله، وعظم بركتها كان أحرص على حفظها وتنميتها.

وإذا فتر عزمك عن تنمية أصلك العلمي بالفوائد واللطائف فذكّرها ما كان عليه العلماء السابقون، وأنّ العلم لا ينال براحة الجسد، وتذكّر ما روي عن البخاري رحمه الله فيما رواه الخطيب البغدادي عن محمد بن يوسف البخاري قال: (كنت عند محمد بن إسماعيل البخاري بمنزله ذات ليلة فأحصيت عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلةٍ: ثماني عشرة مرة).

وروى عن محمد بن أبي حاتم الوراق أنه قال: كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ أحيانا، فكنت أراه يقوم في ليلةٍ واحدةٍ خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة في كل ذلك يأخذ القدَّاحة فيوري ناراً بيده ويسرج ثم يخرج أحاديث فيعلّم عليها ثم يضع رأسه، وكان يصلّي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة يوتر منها بواحدة، وكان لا يوقظني في كل ما يقوم، فقلت له: إنك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقظني، قَالَ: (أنت شابّ فلا أحبّ أن أفسدَ عليك نومك).

وتعدد رواية هذا الأمر عنه دليل على أنّها من عادته ودأبه، ومن كان يداوم النظر في أصوله العلمية، ويعمل الذهن في تنميتها وتهذيبها وتحسينها بنيّة صالحة فإنه يستفيد علماً غزيراً مباركاً وراسخاً بإذن الله تعالى.

وصية:

ينبغي أن يقدّم طالب العلم العناية باستكمال مرحلة التأسيس العلمي، وأن يقرأ ما يعينه على ذلك، لأن هذه المرحلة أصل مهمّ تُبنى عليه خطط القراءة على اختلاف مقاصد القراء، والمقصود بمرحلة التأسيس العلمي ما يحتاجه طالب العلم من دراسة مختصرات في علوم الشريعة واللغة العربية بما يناسب حاله، وأن يعرف ما لا يَحْسُن بطالب العلم جهلُه من العلوم والمهارات.

ثم لا يخلو طالب العلم من إحدى حالتين:

- إمّا أن يكون قد ظهر له ما يحسنه ويرجو أن يفتح له من العلوم مما يوافق ملكاته العلمية ومهاراته فيجتهد فيه.

- وإما أن لا يكون ذلك ظاهراً له؛ فيحتاج إلى مواصلة الدراسة والطلب ومحاولة معرفة جوانب الإجادة والإحسان لديه، وما يرجو أن يحذقه من العلوم فينتفع به، ويكون له به أثرٌ حسن على غيره، ويستشير شيخه ومن يتوسم فيه حسن المعرفة حتى يظهر له ما يمكن أن يعدّه غايته من طلب العلم.

وإذا ظهر لطالب العلم ما يحسنه من العلوم وكانت له همّةٌ ونهمةٌ فيه؛ فينبغي أن تكون خطّته في القراءة متجّهة لتحقيق مقصده وبلوغ غايته، فيجمع عدّته لبناء أصل علمي فيما يحسن، وينظر في المهارات التي يحتاج إلى تعلّمها، وإلى الفرص المتاحة له في بلده وزمانه وما يمكن أن يتوصّل به من الأسباب التي تعينه على بلوغ غايته.

ثمّ ليجعل هذه الغاية نصب عينيه، وليعرف حقّ الله فيها، وليجتهد في إصلاح قصده وتنظيم وقته وليدأب في القراءة والبناء حتى يصل إلى غايته بإذن الله.

وليعلم أنّ المسارات أمامه متعددة، وقد عرّفت ببعض طرق أهل العلم في بناء أصولهم العلمية وللطالب أن يختار أوفقها له وأيسرها عليه وأحسنها أثراً في بنائه العلمي، وطلاب العلم في هذا العصر ينبغي لهم أن يُعنوا بالاستفادة من تقنية المعلومات في بناء أصولهم العلمية وتحسينها، والله الموفّق.



الباب السادس: بيان أغراض التأليف

من الأمور المعينة على إحسان القراءة أن يعرف القارئ أغراض المؤلفين من أهل العلم، ومسالكهم في تآليفهم، ولكل مسلك مقوّماته ومهاراته التي يتفاضل فيها المؤلفون، وتتفاوت رتبهم.

وقد كان الغرض الأهمّ للكتابة في أوّل الأمر ضبط العلم بالكتابة لئلا يُنسى، فلما كثرت المرويات والمسائل في صحف كثيرة متفرقة، دعت الحاجة إلى الجمع والتصنيف والترتيب، فلما كان في بعضها ما يوجب الفحص والتمييز وكشف الخطأ والتصحيف دعت الحاجة إلى التأليف في نقد المرويات وكشف العلل وتبيين الخطأ، فلما كان في بعضها ما يحتاج إلى شرح وتوضيح واستدراك وتتميم دعت الحاجة إلى التأليف في شرح الكتب وتتميمها، فلما كثرت الشروح وتنوّعت المؤلفات في العلم الواحد دعت الحاجة إلى اختصار المختصرات الجامعة، ثمّ احتيج إلى شرح بعض تلك المختصرات.

ولم تزل الحاجة إلى التأليف تتجدّد وتتوسّع، ومقاصد المؤلفين تتعدد غير أنّ أصولها أربعة ذكرها ابن فارس في كتابه "الصاحبي في فقه اللغة" بقوله: (وإنما لنا فيه اختصار مبسوط، أو بسط مختصر، أو شرح مشكل، أو جمع متفرق)ا.هـ.

أقوال العلماء في أغراض التأليف:

وقد حصر بعض العلماء أغراض التأليف في ثمانية، وحصرها بعضهم في سبعة:

١. فقال جمال الدين القاسمي في "قواعد التحديث": (قد قالوا: ينبغي أن لا يخلو تصنيف من أحد المعاني الثمانية التي تصنف لها العلماء وهي: اختراع معدوم، أو جمع مفترق، أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطول، أو ترتيب مخلط، أو تعيين مبهم، أو تبيين خطأ، كذا عدها أبو حيان، ويمكن الزيادة فيها)ا.هـ.

ولم أقف على موضع عدّها عند أبي حيان.

٢. وقال ابن حزم - كما في مجموع رسائله - : (وإنما ذكرنا **التآليف المستحقة للذكر**، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة **التي لا يؤلف عاقل إلا في أحدها، وهي:**

- إما شيء لم يسبق إليه يخترعه.
- أو شيء ناقص يتمه.
- أو شيء مستغلق يشرحه.
- أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه.
- أو شيء متفرق يجمعه.
- أو شيء مختلط يرتبه.
- أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه.

وأما التآليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها)ا.هـ.

٣. وقال المقري في "أزهار الرياض": (رأيت بخط بعض الأكابر ما نصه: المقصود بالتأليف سبعة: شيء لم يسبق إليه فيؤلف، أو شيء ألف ناقصا فيكمل، أو خطأ فيصحح، أو مشكل فيشرح، أو مطول فيختصر، أو مفترق فيجمع، أو منثور فيرتب.

وقد نظمها بعضهم فقال:

ألا فاعلمنْ أنَّ التآليف سبعة	لكل لبيب في النصيحة خالصِ
فشرح لإغلاق وتصحيح مخطئ	وإبداع حَبر مُقْدِمٍ غير ناكِصِ
وترتيب منثور وجمع مفرَّق	وتقصير تطويل وتتميم ناقصِ)

٤. وقال ابن خلدون في مقدمته: (ثم إن الناس حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها، فعدوها سبعة:

أولها: استنباط العلم بموضوعه وتقسيم أبوابه وفصوله وتتبع مسائله، أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق، ويحرص على إيصاله بغيره، لتعم المنفعة به فيودع ذلك بالكتاب لعل المتأخر يظهر على تلك الفائدة، كما وقع في الأصول في الفقه. تكلم الشافعي أولاً في الأدلة الشرعية اللفظية ولخصها، ثم جاء الحنفية فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها، وانتفع بذلك من بعدهم إلى الآن.

وثانيها: أن يقف على كلام الأولين وتآليفهم فيجدها مستغلقة على الأفهام ويفتح الله له في فهمها فيحرص على إبانة ذلك لغيره ممن عساه يستغلق عليه، لتصل الفائدة لمستحقها. وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول، وهو فصل شريف.

وثالثها: أن يعثر المتأخر على غلط أو خطإ في كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله وبعد في الإفادة صيته، ويستوثق في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده، إذ قد تعذر محوه ونزعه بانتشار التأليف في الآفاق والأعصار، وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمعارفه، فيودع ذلك الكتاب ليقف على بيان ذلك.

ورابعها: أن يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه فيقصد المطلع على ذلك أن يتمم ما نقص من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله، ولا يبقى للنقص فيه مجال.

وخامسها: أن يكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة، فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها، ويجعل كل مسألة في بابها، كما وقع في المدونة من رواية سحنون عن ابن القاسم، وفي العتبية من رواية العتبي عن أصحاب مالك، فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها فهذب ابن أبي زيد المدونة وبقيت العتبية غير مهذبة. فنجد في كل باب مسائل من غيره. واستغنوا بالمدونة وما فعله ابن أبي زيد فيها والبرادعي من بعده.

وسادسها: أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى فيتنبه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجميع مسائله، فيفعل ذلك، ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بأفكارهم، كما وقع في علم البيان. فإن عبد القاهر الجرجاني وأبا يوسف السكاكي وجدا مسائله مستقرية في كتب النحو وقد جمع منها الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مسائل كثيرة، تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم، فكتبت في ذلك تآليفهم المشهورة، وصارت أصولاً لفن البيان، ولقنها المتأخرون فأربوا فيها على كل متقدم.

وسابعها: أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولاً مسهباً فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك، بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر، إن وقع، مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول.

فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف ومراعاتها. وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه وخطأ عن الجادة التي يتعيّن سلوكها في نظر العقلاء، مثل انتحال ما تقدم لغيره من التآليف أن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبيس، من تبديل الألفاظ وتقديم المتأخر وعكسه، أو يحذف ما يحتاج إليه في الفن أو يأتي بما لا يحتاج إليه، أو يبدل الصواب بالخطأ، أو يأتي بما لا فائدة فيه. فهذا شأن الجهل والقحة) ا.هـ.

وأوصلها صديق حسن خان إلى سبعة عشر مقصداً في مقدمة كتابه "أبجد العلوم"؛ فأضاف: نثر المنظوم، ونظم المنثور، والترجمة، وتجريد الزائد، والردّ على الشبهة، وتصحيح الكتب وتحقيقها، وبناء أصل من أبواب متفرقة، ونحو ذلك.

وهي لا تخرج عند التحقيق عما تقدّم.

تداخل الأغراض:

والكلام في الأغراض العامة للتأليف لا يقتضي تمحّض كلّ كتاب إلى غرض منها، بل قد يكون في بعض الكتب ما يجمع غرضين أو أكثر.

وهذه الأغراض تدلّ على أنّ غالب مؤلفات أهل العلم تعتمد على مؤلفات سابقة، وأنّ الأصل في العلم الاتبّاع، وأخذ اللاحق عن السابق، وأن التأليف الذي يكون لسدّ حاجة طلاب العلم ولو بغرض من هذه الأغراض معدود من التآليف النافعة إذا أحسن فيه صاحبه.

وما كان من المؤلفات فيه اختراع وابتكار؛ فإنما سمّي اختراعاً لأنه أتى فيه بجانب جديد، فوَجْهُ الاختراع إنما هو في جانب منه يتعلّق بترتيبه أو تصنيفه أو تقريب فهمه، وأمّا سائر ما تتضمّنه تلك الكتب الموصوفة بالاختراع فهو معلومات مأثورة، وربما كان كثير منها مبثوثاً معروفاً.

- فابتكار الخليل بن أحمد لعلم العروض هو من جهة ضبط أوزان بحور الشعر وما يدخلها من علل، وأمّا بحور الشعر نفسها فهي معروفة قبل زمن الخليل، وكانت العرب تدرك الفروق بينها، وقد كانوا يتعلمون الشعر ويعلّمونه، ومن الأدلّة على أنّ الشعر يُعلّم قول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ فلمّا خصّ النبي صلى الله عليه وسلم بنفي تعليمه الشعر بقي غيره على إمكان التعليم.

وقال الشاعر:

وكم علّمته نظم القوافي ... فلمّا قال قافية هجاني

ومن المعلوم أنهم لا يعلّمون الشعر إلا بأوزانه وبحوره، لكن كانت طريقتهم في تعليمه مختلفة، فأتي الخليل بابتكار الأوزان العروضية لأنها أيسر وأضبط.

- وكذلك وَضْعُ الشافعيّ لعلم أصول الفقه، لم يأت فيه بأحكام غير مستعملة في الشرع وفي فتاوى أهل العلم قبله، وإنما سبر تلك الأحكام واستخرج أنواعها وأمثلتها، ونظر في استدلالات أهل الفتوى من الصحابة والتابعين وتابعيهم فيما أثر عنهم من المسائل والاستدلالات، وعرف أصولهم ومناهجهم، وصنّف تلك المسائل وقسّمها وشرحها، وبيّن أحوالها وشرائطها، وأجاد في تقسيمها وتبيينها؛ فوضع بذلك علم أصول الفقه، وقد عدّه الإمام أحمد مجدّد القرن الثاني لما أتى به من بيانٍ حَسَنٍ لأدلة الشريعة وأحوالها وأحكامها.

والمقصود التنبيه إلى أنّ علوم الشريعة واللغة العربية لا يُؤتى فيها بعلم يُنشأ بمسائله بحيث لا يكون له أصل في الشريعة ولا في اللغة.

وقال صديق حسن خان القنوجي: (اعلم أن كتب العلم كثيرة لاختلاف أغراض المصنفين في الوضع والتأليف **ولكن تنحصر من جهة المعنى في قسمين:**

الأول: إما أخبار مرسلة وهي كتب التواريخ وإما أوصاف وأمثال ونحوها قيَّدها النظم وهي دواوين الشعر.

والثاني: قواعد علوم وهي تنحصر من جهة المقدار في ثلاثة أصناف:

الأول: مختصرات تجعل تذكرة لرؤوس المسائل ينتفع بها المنتهي للاستحضار وربما أفادت بعض المبتدئين الأذكياء لسرعة هجومهم على المعاني من العبارات الدقيقة.

والثاني: مبسوطات تقابل المختصرات وهذه يُنتفع بها للمطالعة.

والثالث: متوسّطات وهذه نفعها عام)ا.هـ.

أنواع المصادر العلمية:

إذا تبيّن ما تقدّم عرفت أنّ كثيراً من المسائل العلمية التي يذكرها أهل العلم في كتبهم لها أصول سابقة، وأن **المصادر التي يرجع إليها أهل العلم على ثلاثة أصناف:**

الصنف الأول: مصادر أصلية، وهي المصادر التي تروي الدلائل والأقوال بالإسناد، وهذا يكون في علوم الشريعة وفي علوم اللغة:

- فأمّا علوم الشريعة فمصادرها الأصلية هي التي تروي الأحاديث والآثار وأقوال السلف بالأسانيد، وهذه المرويات شاملة لما يُروى في علوم الشريعة من التفسير والحديث وشرحه والعقيدة والفقه والسلوك.

- وأمّا علوم اللغة فمصادرها الأصلية هي تلك التي يروي أصحابها عن أئمة اللغة المتقدمين والأعراب والشعراء المحتجّ بكلامهم بالأسانيد.

والصنف الثاني: المصادر البديلة، وهي التي تنقل عن مصادر أصلية مفقودة.

والصنف الثالث: مصادر ناقلة، وهي التي تنقل عن كتب الصنفين السابقين.

وليُعلم أنّ هذا التقسيم إنما هو باعتبار كلّ مسألة، ولذلك فإنه قد يجتمع في الكتاب الواحد أن يكون مصدراً أصيلا وبديلاً وناقلاً، فيكون أصيلاً في المسائل التي يرويها صاحب الكتاب بإسناده، وبديلاً إذا نقل عن كتاب أصيل مفقود، وناقلاً فيما ينقله منهما.

أنواع المسائل العلمية وأصول نشأتها:

ثمّ إنّ الكلام في المسائل العلمية على نوعين:

النوع الأول: عمدته النقل، ويدخله الاجتهاد من جهة التثبّت من صحة النقل، وتمييز الصحيح من الضعيف، وما ثبت مما لم يثبت.

والنوع الثاني: عمدته الفهم، وهذا النوع قائم على الاجتهاد في فهم الأدلة والشواهد، واستخراج الأحكام منها، وكشف العلل، وتبيين الخطأ، والجمع والترجيح بين الأقوال.

ولذلك قد يكون لدى بعض أصحاب المصادر الناقلة من حسن الفهم والتحرير والبيان ما لا يجده الباحث في كثير من المصادر الأصلية، ولذلك كان الأولى لطالب العلم المبتدئ أن يبدأ بمختصر جامع ميسّر للعلم الذي يطلبه قبل أن ينتقل إلى القراءة في مصادره الأصلية.

لكن من فقه القارئ أن يعلم أن خطته في القراءة ينبغي أن تقوده إلى قراءة المصادر الأصلية لذلك العلم الذي يطلبه؛ **فيلحظ عند قراءته في المصادر الناقلة أمرين:**

الأمر الأول: ما اعتمد عليه المؤلفون مِن كُتُبِ مَنْ سَبقهم.

والأمر الثاني: ما أضافوه من حسن البيان والتحرير مما منّ الله عليهم بفهمه.

فأمّا الأمر الأول فتسلسل الخطة في القراءة ينبغي أن يوصله إلى أصول نشأة المسائل في ذلك العلم، فيعرف منشأ مسائله وكيف تناقلها أهل العلم وتدارسوها.

وأمّا الأمر الثاني فيفيده في تقوية ملكته في فهم المسائل العلمية، وأن يعرف موارد الاجتهاد في دراسة المسائل وكيف يستفيد من دراسة المسألة الواحدة في نظائرها.

ومن كان هذا شأنه ربما فَتحت عليه جملةٌ يقرأها أو كلمةٌ يسمعها أبواباً من العلم، كما قال عكرمة مولى ابن عباس: «**إني لأخرج إلى السوق، فأسمع الرجل يتكلم بالكلمة فينفتح لي خمسون باباً من العلم**». رواه ابن سعد في "الطبقات" من طريق ابن علية عن أيوب عن عكرمة، وهذا إسناد صحيح.



الباب السابع: تحليل عملية الكتابة وبيان أثرها في تنظيم القراءة

من الأمور المهمّة في فقه القراءة أن يدرك القارئ المراحل التي تمرّ بها عملية الكتابة حتى تنتجَ المعرفةَ للقارئ، ومعرفة هذه المراحل بشيء من التفصيل تعرّف طالب العلم بمعايير تقويم الكتاب، وتكشف له قيمته المعرفية، وتعينه على الانتفاع من جوانب الإجادة والإحسان لدى الكاتب، وتبصّره بطرق تحصيل المعارف والمهارات التي يتمكن بها من تحسين الكتابة، وتنظيم القراءة، وبناء الأصول العلمية.

إيجاز بيان مراحل عملية الكتابة:

الكتاب مُنتَج معرفي، وعملية الكتابة التي تُنتج المعرفةَ هي كسائر العمليات الإنتاجية لها ثلاث مراحل رئيسة:

المرحلة الأولى: مرحلة الاستمداد المعرفي

والمرحلة الثانية: مرحلة المعالجة العلمية

والمرحلة الثالثة: مرحلة الإنتاج والعرض

فالكتاب وإن بدا للقارئ في صورة الْمُنتَج النهائي إلا أنّه ينبغي أن يدرك أنه قد مرّ بهذه المراحل الثلاث، فلا بدَّ له من استمداد يستمدّ منه الكاتب المعلومات الأولية لمادّة الكتاب، ومعالجة علمية لتلك المعلومات الأولية؛ حتى يخرج بالنتيجة التي ظهرت له في الكتاب.

شرح مراحل عملية الكتابة:

المرحلة الأولى: مرحلة الاستمداد المعرفي

الكاتب يبني كتابه على معلومات أوّلية يستمدّها من أحد طريقين:

الطريق الأول: مصادر مكتوبة أو محفوظة، وتشمل الكتبَ التي يرجع إليها، والمعلوماتِ التي حفظها بنصّها من أشياخه، فهي بالنسبة له معلومات أولية قبل أن تدخل مرحلة المعالجة العلمية.

والطريق الآخر: المخزون المعرفي المتراكم لدى الكاتب من خبرة سنوات طويلة من الاطلاع على كتب ذلك العلم، وإعمال الذهن في دلائله ومسائله، وتفهّم أصوله وقواعده، وإجراء البحوث العلمية، ومناقشة المختصين به؛ فتحصل له خبرة ومعرفة متراكمة يصل بها إلى إحسان تصوّر مسائل ذلك العلم والبيان عنها بأسلوبه دون الحاجة إلى الاعتماد على مصادر حاضرة ينقل منها، ويكون بيانه عنها منضبطاً بأصول ذلك العلم وقواعده وطريقة أهله في جملة الأمر.

وربما لو سُئل عن مصدر بعض كلامه في بعض المسائل لم يجد له أثراً عمّن سبقه بالتفصيل الذي أتى به، لكنّه موافق لمجموع كلام العلماء في ذلك العلم، وسبب ذلك أنّه حصل له بفهم مسائل ذلك العلم، وجمع النظائر والموازنة بين المسائل والأحوال وإدراك الفروق المؤثرة بينها ما أوصله إلى حسن تصور تلك المسائل وجودة البيان عنها.

وهذا من الفهم في العلم الذي يؤتيه الله من يشاء، ولذلك يتناقل العلماء عبارات مشتهرة عن بعض الأئمة في بعض المسائل لما تضمنته من حسن البيان وجودة التفصيل، وإن كانت دلائل تلك الأقوال ظاهرة لدى أهل ذلك العلم، لكن لما أتوا بعبارات حسنة جامعة اكتسبت تلك الأقوال شهرة وقبولاً.

والمقصود أن من الكُتّاب من يكون أكثر اعتماده في الكتابة على ما تحصّل لديه من مخزون معرفي متراكم في ذلك العلم، وهو مخزون مترسّخ في الذهن لا يقتضي أن يكون مكتوباً.

والعلماء يتفاضلون في طريقَي الاستمداد تفاضلاً كبيراً، ويظهر أثرُ هذا التفاضل في كتبهم ورسائلهم وسائر مخرجاتهم العلمية.

فأمّا التفاضل في المخزون المعرفي فسبق شرحه، **وأما التفاضل في الاطلاع على المصادر فيكون في جانبين:**

أحدهما: تميّز الاطلاع.

والآخر: سعة الاطلاع.

وتميز الاطلاع يُعرف بأمرين:

الأمر الأول: النقل عن أولى مَن يُنقل عنه في ذلك العلم من الأئمة فلا تجد الكاتبَ حاطبَ ليلٍ؛ جمّاعا قمّاشا بلا تمييز.

والأمر الثاني: إيراد نقول مهمة عن علماء متمكنين من غير مظانها أو مما لا يحصل إلا بجهد كبير، وهذا أمر يدلّ دلالة بيّنة على تميّز الاطلاع لدى الكاتب، وحرصه على تتبّع النقول عن أولى من ينقل عنه من العلماء في المسائل التي يبحثها.

وسعة الاطلاع تُعرف بأمرين:

الأمر الأول: ثراء المخزون المعرفي لدى الكاتب بما يدلّ على كثرة قراءته وتنوّعها في ذلك العلم.

والأمر الثاني: كثرة إيراد النقول عن العلماء؛ فتجده إذا تكلم في مسألة أورد من النقول ما يدل على سعة اطلاعه.

وسعة الاطلاع عنصر مهم من عناصر القوة العلمية لدى المؤلّف، لكن من المؤلفين من يكون قمَّاشاً لما تقع عليه عينه؛ فيورد الغث والسمين بلا تمييز، ومنهم من يكون لديه تمييز في الاطلاع؛ فإذا بحث مسألة رجع فيها إلى أئمة ذلك العلم الذين لهم فيه مؤلفات معتمدة، وقد ينتقي من غيرها ما يصلح دون ما لا يصلح؛ فتجده ينقُل وينقُد، وإذا أورد ما قد يستنكر؛ فإما أن ينكره أو يفسّره بما يزيل النكارة.

وتجد هذا ظاهراً في المسائل الكبار التي تتضمن مسائل فرعية يتعلق بعضها بالمفردات اللغوية، وبعضها بالنحو والصرف، وبعضها بالاعتقاد، وبعضها بالفقه، وبعضها بأصول الفقه، وهذا يقع كثيراً في مسائل التفسير وشروح الأحاديث؛ فتجده يرجع في مسائل اللغة إلى كلام المحققين من علماء اللغة، وفي مسائل النحو والصرف إلى كبار النحاة، وفي مسائل الاعتقاد إلى الأئمة المتقدمين فيه، وفي مسائل الفقه إلى الأئمة الفقهاء، وهكذا.

فهذا الصنف من العلماء مؤلفاتهم نافعة جداً لطالب العلم لأنها تعرّف طالب العلم بالعلماء الذين يرجع إلى كلامهم في كلّ مسألة تعرض له.

وأما الذي لا يميّز مراتب العلماء ولا مراتب الكتب ولا مراتب الرواة عن الأئمة، ولا يتفطّن لعلل المرويات، بل يورد ما صحّ وما لا يصحّ، بل قد يورد من الغرائب والمنكرات ما يُتعجّب منه، فهؤلاء يَنتفع بمؤلفاتهم مَن يكونُ لديه تمييز حسن يفرّق به بين ما يُقبل وما لا يُقبل.

ومن المؤلفين من يكون لديه تمييزٌ حسنٌ في علم من العلوم، وضعفُ تمييزٍ في علوم أخرى؛ فإذا تكلّم فيما يتّصل بفنّه كان كلامه محرراً سديداً، وإذا تكلّم في غير فنّه أتى بالعجائب؛ فهذا يُنتفع بكلامه فيما أحسن فيه.

ومِنْ فِقْهِ طالب العلم أن يعلمَ أن العالم المتمكن في فنّ من فنون العلم إذا أثنى على كتاب في ذلك الفن فهي شهادة قيّمة لذلك الكتاب؛ فيحرص على قراءته والاستفادة منه، لكن إذا أثنى على كتاب في علم تبيَّن للقارئ أن الكاتبَ غير مجيد له؛ فلا يقتضي ذلك حسن الكتاب بل غاية ما يدل عليه أنه أعجب الكاتبَ، وهو كتاب في فنٍّ لا يجيده، وإنما يؤخذ كل علم عن أهله.

وينبغي لطالب العلم أن يعوّد نفسه على أخذ أحسن ما في الكتاب إما من مقاصده وإمّا من دلائله اهتداء بقول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾.

- فمن كتب أهل العلم كتُبٌ قوّتها العلمية فيما تتضمنه من مباحث جليلة القدر، عظيمة النفع.

- ومنها كتب قوتها في حسن دلائلها على كتبٍ وأقوال نفيسة لبعض العلماء.

- ومنها كتب جمعت بين الحسنيين.

وهذا ميدان فسيح لو تأمله طالب العلم لوجد في مؤلفات العلماء جوانب من التميز تفيده فوائد علمية جليلة فيما يحتاج إليه، وتعينه على تنظيم قراءته.

وخلاصة الأمر في شأن الاطلاع لدى المؤلفين أنهم على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: من لديه اطلاع واسع متميز ومخزون معرفي كبير، وهذه أعلى مراتب التحصيل العلمي لمادة الكتاب، وقلَّ من يحققها على الدرجات العالية، وإذا ظفرت بكاتب مجيد في هذه المرتبة في أيّ علم من العلوم؛ فعليك بكتبه؛ فإنه يقودك إلى التحقيق بجودةِ بيانه وحسن إرشاده.

المرتبة الثانية: من لديه اطلاع متميز غير واسع؛ فهذا مؤلفاته مفيدة أيضاً، وقد تكون أكثر مناسبة للمبتدئ؛ لأنه غالباً ما يذكر الفائدة ملخّصة مركّزة بأسلوب يناسب المبتدئ.

المرتبة الثالثة: من لديه اطلاع واسع غير متميز، وهؤلاء يَنتفع بكتبهم مَن لديه تحصيل علمي جيد يتمكّن به من تمييز ما يصحّ مما لا يصحّ؛ فيجد في كتبهم من الجمع ما يختصر عليه كثيراً من الجهد والوقت.

والمرتبة الرابعة: من ليس لديه اطلاع واسع ولا متميز، فهؤلاء مادتهم المصدرية ضعيفة غالباً، لكن هذا لا يقتضي سقوط المؤلف والإعراض عن كتبه، فقد يكون لدى بعضهم تميّز في المعالجة العلمية لفرط ذكاء أو توفيق في جوانب يأتون فيها على سدّ حاجة طلاب العلم؛ فيكون في كتاباتهم ما ينفع طلاب العلم على ضعف استمدادهم المعرفي.

المرحلة الثانية: مرحلة المعالجة العلمية:

والمقصود بالمعالجة العلمية ما يجريه الكاتب على المعلومات الأولية من أعمال متنوّعة لتحقيق مقصده من تأليف الكتاب، والمؤلفون يستخدمون أدوات علمية كثيرة في تلك المعالجة، ويسلكون فيها مسالك مختلفة، ويقع بينهم من التفاضل والتفاوت ما هو ظاهر معروف.

ومن المهمّ للقارئ اللبيب أن يلحظ جوانب الإجادة والإحسان في المعالجة العلمية لدى الكاتب الذي يقرأ في كتابه.

والمداومة على ملاحظة هذه الأمور واستكشاف الأدوات العلمية التي يستعملها الكاتب ويبرع فيها تعينه على تنمية مهاراته في استعمال تلك الأدوات ومحاولة محاكاته فيها، وقد تفتح له باباً لمسلك من مسالك المعالجة العلمية يجد في نفسه مهارة عالية فيها.

وأعمال المعالجة العلمية في كتب علماء الشريعة واللغة العربية يمكن تقسيمها إلى أقسام:

القسم الأول: الفحص والتدقيق، والمقصود به فحص المعلومات الأولية، وتمييز صحيحها من ضعيفها، ومقبولها من مردودها.

والقسم الثاني: الاستدلال والتأصيل، والمقصود به تأصيل المعلومات الأولية الصحيحة بإرجاعها إلى أصولها، وإقامة الأدلة عليها.

والقسم الثالث: الانتقاء والتصنيف، ويراد به تصنيف المعلومات المنتقاة وترتيبها لغرض التقريب والتيسير.

والقسم الرابع: الدراسة والتحليل، وهذا يكون في المسائل التي يُحتاج فيها إلى دراسة لعناصرها، وتحليل لتمييز مواضع اللبس والاشتباه، وتحرير محل النزاع، وجمع الأدلة والحجج المتعلقة بالمسألة وعلل الاستدلال حتى يصل إلى ما يمكن من الجمع والترجيح.

والقسم الخامس: السبر والتقسيم، وهو من أهمّ الأدوات التي يحتاج إليها المؤلفون، وله استخدامات متنوعة، وقد برع فيه جماعة من العلماء، حتى إن منهم من يعرض للمسألة المشكلة التي تختلف فيها الأنظار وتكثر فيها الأقوال وتشتمل على أحوال مختلفة، فينعم النظر فيها حتى يصل إلى مورد التقسيم الصحيح؛ فيقسّم أحوال المسألة أو الأقوال فيها فيسهل فهمها، ويحسُن تصوّرها.

والقسم السادس: التتبع والتقصي والإحصاء، وهذا يكون غالباً لغرض إجابة سؤال يُحتاج فيه إلى تتبّع وإحصاء أو لإجراء بحث يُعتمد فيه على التتبع والإحصاء.

والقسم السابع: التلخيص والاختصار، وهذا يكون عند إرادة اختصار كتاب مطوّل، أو وضع ملخّص مستفاد من كتب متعددة.

والقسم الثامن: التخريج والتحقق من صحة النسبة، وهو من المهارات العلمية التي يمتاز بها الحاذقون من المؤلفين؛ فتجدهم يولون التحقق من صحة النسبة عناية حسنة، ومن كان مقصراً في هذا الأمر ربما أورد في كتابه أقوالاً منسوبة لعلماء تقليداً لغيره من غير وقوف منه على مصدر تلك النسبة وصحتها.

والقسم التاسع: توجيه أقوال العلماء، والمقصود به بيان وجه قول العالم في المسألة، وتبيين وجه استدلاله وما يمكن أن يُحمل عليه قوله، وهذه المهارة برع فيها جماعة من العلماء، وعناية طالب العلم بها تفيده فوائد جليلة في دراسته لمسائل العلم.

والقسم العاشر: الاستنتاج والاستخراج، والمراد به إعمال الذهن في الأدلة والمعلومات الأولية واستنتاج المسائل والأحكام والفوائد.

وهذه الأقسام هي أهم ما يكون من أعمال المعالجة العلمية التي يقوم بها المؤلفون من أهل العلم، وهي عمدة العمل العلمي في الكتاب، والبارعون في شأن المعالجة العلمية هم غالباً من أصحاب التحرير العلمي للمسائل، وكتبهم من أنفع الكتب وأحسنها.

المرحلة الثالثة: مرحلة الإنتاج المعرفي والعرض:

بعد مرحلتي الاستمداد والمعالجة العلمية لا بد للكاتب من عرض ما خرج به في كتابه، ومرحلة العرض وإن كانت هي أول ما يقع عليه نَظَرُ القارئ إلا أنّها آخر ما يؤدّيه الكاتب، فقد يقوم بأعمال كثيرة في مسودة بحثه ثم يجري عليه من التغيير والتعديل في مرحلة العرض ما يرجو أن يصل به إلى أحسن ما يمكن من صور تقديم الكتاب للقارئ.

والكلام في مرحلة العرض قائم على عنصرين مهمّين:

أحدهما: الأسلوب، والمقصود به لغة الكاتب في كتابه، والألفاظ والعبارات التي يستعملها في كتابه؛ ومن سعادة الكاتب أن يُرزق أسلوباً سهلاً واضحاً ممتعاً.

فسهولة الأسلوب تكون باستعمال العبارات السهلة القريبة من أفهام القراء.

ووضوحه يكون بأداء المعنى الذي يريد إيصاله بعبارات لا لبس فيها ولا تعقيد.

ومتعة الأسلوب تكون بتحلية الكتاب بما يجذب القارئ لمواصلة القراءة في الكتاب.

والعنصر الثاني: حسن العرض لمادة الكتاب، وهو قائم على ترتيب الأفكار، وجودة الإخراج.

فمن الكتّاب من يكون في كتابه من الحسن والترتيب والوضوح ما يغني عن شرحه، ومنهم من يكون في كتبه ما يحتاج معه القارئ المبتدئ والمتوسط إلى طلب الشرح والتوضيح مع قوة مادته العلمية، وذلك لأنّ أسلوب الكاتب أو طريقة عرضه لمادة الكتاب فيها صعوبة على بعض القرّاء.

تفاضل العلماء في المراحل الثلاث:

العلماء يتفاضلون في المراحل الثلاث المتقدّم ذكرها، وأحسنهم رتبة في التأليف من كان تأليفه في الذروة العليا في تلك المراحل، ومنهم من يكون متقدما في بعضها، ومقصّراً في بعضها، وقد يكون لديه ما يُعذر به، لكن القارئ اللبيب هو الذي يميز جوانب الإجادة والإحسان لدى الكتاب ويستفيد منها في تأليفه وكتاباته، وفي دراسته للمسائل العلمية، فإنه إذا عرف براعة بعض المؤلفين في بعض ما يحتاج إليه من أوجه الدراسة ومراحلها حرص على الرجوع إلى كتبهم والاستفادة من طرقهم في دراسة تلك المسائل.

وينبغي أن يتنبّه القارئ إلى أمرين مهمين:

أحدهما: أن بعض العلماء كثير التأليف مجيد لعلوم كثيرة؛ فلا يتعجل طالب العلم بالحكم على جوانب القوة العلمية لديه من كتاب أو كتابين من كتبه، بل ينبغي أن يستقرئ غالب كتبه ليتبيَّن بجلاء جوانب القوة العلمية لديه، وما يحصل بين تآليفه من تفاوت فيها، أو يأخذ بيان جوانب القوة العلمية لديه من عالم يثق به قرأ كتب ذلك الكاتب وسبر غورها، واعتنى بها جيداً.

والأمر الآخر: أن العالِمَ المشاركَ في علوم متعددة يكون لديه من التفاوت في إتقانها ما هو ظاهر للقارئ البصير؛ فيجده إماماً مقدماً في بعض العلوم، ومجتهداً مشاركاً في بعضها، وهذا يفيده في معرفة طبقات العلماء في العلم الذي يدرسه، وهي مَلَكَةٌ يحتاجها طالب العلم المتقدم كثيراً.

ومن العلماء من يكون بين المؤلفات التي كتبها في أوّل شبابه وبين المؤلفات التي كتبها بعد النضج العلمي تفاوت ظاهر من حيث جودة التأليف.

فائدة معرفة مراحل عملية الكتابة:

فهم هذه المراحل يفيد في معرفة ما يتميز به الكاتب لأن جوانب قوته العلمية يمكن إرجاعها إلى عنصر من هذه العناصر، ولبعض العلماء ملكات حسنة في جوانب من التأليف عظيمة النفع لطلاب العلم، وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «قيمة كل امرئ ما يحسنه» وهذه الكلمة ميزان نقدي مهم في كثير من الأمور، وهذا المعنى نظمه بعض الشعراء فيما أورده إبراهيم بن محمد البيهقي في كتابه «المحاسن والمساوئ»:

قال علي بن أبي طالب ... وهو اللبيب الفطن المتقن

كل امرئ قيمته عندنا ... وعند أهل العلم ما يحسن

فقيمة الكاتب فيما يحسنه، وقيمة الكتاب في جوانب الإحسان فيه.

وإذا لحظ القارئ من الكاتب تميزا في جوانب يحتاج إليها حرص على القراءة في كتبه، ومحاولة التعرف على مصادر تلك الإجادة، فقد يجد ما يرشده إلى الازدياد من تلك المعارف والمهارات بالقراءة في كتب مَن يتقنها؛ حتى ينمّي معرفته ويكمّلها ويقويها بالاطلاع الموجّه والقراءة المنظّمة.



الباب الثامن: تحليل عملية القراءة وبيان معايير جودتها

القراءة عملية معرفية تشتمل على معالجة ذهنية تنتقل بها المعرفة من الكاتب إلى كتابه ثمّ إلى القارئ، وهذا البيان يفيدنا **بأركان عملية القراءة، وهي: الكاتب** و**الكتاب** و**القارئ**.

ومعرفة هذه الأركان تفيدنا في تحليل عملية القراءة، ومعرفة معايير جودة القراءة، والمهارات التي يحتاجها القارئ.

فالكاتب صاحب رسالة يريد أداءها بواسطة كتابه، والقارئ الجيد هو الذي يفهم مقصد الرسالة، ويعرف الكاتبَ من كتابه، فيعرف جوانب القوة العلمية لديه، ويعرف استمداده المعرفي، ويتعرف جوانب التوافق المعرفي بينه وبين الكاتب، ويستفتح بذلك آفاقاً من العلم والمعرفة؛ فلا تكون همّته محصورة في فهم عبارات الكتاب.

والقراء يختلفون في أوجه عناياتهم العلمية وجوانب الإجادة لديهم وما يرغبون في تحصيله من العلوم، وهذا العنصر مهم في تنظيم القراءة وسلوك المنهج الأمثل للقارئ فيما يقرأ من الكتب.

ومنه تعرف أنه لا توجد خطّة موحّدة يمكن أن تُوصَف بأنها هي الخطّة المثلى للقراءة، لما يقع بين القراء من التفاضل الكبير في المهارات والقدرات، والاختلاف في أوجه العنايات العلمية، وأوجه التوافق بين أنماط الكتابة وقابلية القرَّاء لها.

لكن من الخطأ الكبير أن يكون صاحب المهارات العالية والملكات الحسنة هاضماً لنفسه في المنهج الذي يسير عليه في القراءة فلا يراعي مناسبته لما أنعم الله به عليه من المهارات والقدرات، أو يكون متذبذباً في القراءة فيضيع وقته وجهده.

وسيكون حديثنا في هذا الباب بما يناسب قراءة التعلّم وما يتّصل بها لأن المقصد الأكبر من تدريس هذا الكتاب إفادة طلاب العلم بما أرجو أن يعينهم على إحسان طلب العلم وقراءة كتب العلماء.

وأما أنواع القراءة الأخرى كقراءة الجرد والتصفح والقراءة الذوقية فالأمر فيها مختلف عن قراءة التعلّم ودراسة المسائل العلمية.

أركان عملية القراءة:

للقراءة ثلاثة أركان، ولكل ركن ما يتعلّق به من الأمور المهمة التي ينبغي للقارئ اللبيب أن يدركها؛ وأن يعلم أنّ القراءة في كتب أهل العلم لها عمق وأبعاد تتجاوز مجرَّد فهم عبارات الكتاب، وأن الكتاب الذي يقرأه إنما هو حلقة في سلسلة تتصل بها حلقات متعددة؛ تتقارب وتتجاذب حتى يقوي بعضها بعضاً، ويصل بها طالب العلم الذي ينظّم قراءته إلى مرتبة التحقيق العلمي بإذن الله تعالى.

وسأعرّف في هذا الباب ببعض الأمور التي تتعلّق بأركان القراءة وما يتصل ببعضها من المهارات التي يحتاجها القارئ، ثمّ أخصّص لبعض ما تتطلبه بعض تلك المهارات أبواباً مستقلّة بعون الله تعالى.

الركن الأول: الكاتب

والكاتب تتعلق به أمور مهمّة في عملية القراءة سبق التنبيه إلى بعضها، وسأعيدها ملخصة لأهميتها:

الأمر الأول: أن للكاتب مقاصد من كتابة كتابِهِ؛ ومِنْ فقه القارئ وفطنته أن يحرص على إدراك هذه المقاصد.

والأمر الثاني: أن الكاتب قد يكون متمكنا في العلم الذي يكتب فيه، وهذا هو الغالب على مؤلفي الكتب التي ينهل منها أهل العلم، وقد يكون لبعضهم كتب

مفيدة في بعض العلوم وإن لم يكونوا من المتمكنين فيها، وذلك لأنّ كتبهم تضمنت قدراً من سدّ حاجة طلاب ذلك العلم في بعض أبوابه أو ما يتصل به؛ فكان لكتبهم مكانة عند أهل ذلك العلم.

وتمكُّن الكاتبِ من العلم الذي يكتب فيه أو انتفاع طلاب العلم بكتابه لما تقدّم شرحه يغري القارئ الفطن بمحاولة التعرّف على جوانب القوّة العلمية لديه؛ فيجعل الكتابَ وسيلةً للتعرّف على الكاتب وتفهّم منهجه، واستكشاف جوانب الإجادة لديه، وتعرّف أسباب قوّته العلمية.

وهذه المعارف إذا أضافها القارئ إلى مثيلاتها كانت من أقوى أسباب تمكّنه العلمي.

والأمر الثالث: أنّ للكاتب استمداده المعرفي الذي تمكّن به من تأليف كتابه، وهذا الاستمداد إما من مخزون معرفي كبير متراكم، وإما من مصادر مكتوبة أو محفوظة قد يصرّح بها وقد لا يصرّح بها.

والتعرّف على الاستمداد المعرفي للكاتب مفيد في محاولة الوصول إلى مصادره التي نهل منها، وقراءةُ سيرته قد تعرّف بطريقته في طلب العلم وسبل تحصيل مخزونه المعرفي، ومن كان حَسَنَ الملاحظة لهذا الأمر استفاد فوائد جمّة.

والأمر الرابع: أن الكاتب يستعمل أدوات علمية لمعالجة المعلومات الأولية التي استمدّها من مخزونه المعرفي أو من مصادر معيّنة ليوظّفها في تحقيق مقاصده من تأليف الكتاب، وهذه الأدوات يتفاضل أهل العلم في استعمالها ويتفاوتون في البراعة فيها، وملاحظة القارئ لهذا الأمر لا تقتصر فائدته على مجرّد فهم الكتاب، وإنما ينطلق منه لمحاولة اكتساب مهارات متنوّعة في المعالجة العلمية للمعلومات الأولية حتى يحقق مقاصده إذا أراد التأليف أو الحديث في قضية علمية.

والأمر الخامس: أن للكاتب أسلوبه في عرض المادّة العلمية بعد مرحلتي الاستمداد والمعالجة؛ والعلماء يتفننون في أساليب عرض المادة العلمية؛ وقد يكون

لبعضهم براعة ظاهرة في حسن عرض المعلومة، وتقريبها للأذهان، وقد يعمد بعضهم إلى تقديم المعلومة سهلة ميسّرة ثمّ يبيّن أدلته عليها، وبعضهم يعكس الأمر فيعرض الإشكال حتى يُفهم ثمّ يستعرض الأقوال الضعيفة والمرجوحة ويفنّدها، ثمّ يخلص إلى بيان القول الذي يراه صحيحاً أو راجحاً.

وهكذا في نظائر هذه الحالة، ومنهم من ينوّع.

والمقصود أن من فقه القارئ ملاحظة أسلوب الكاتب في عرض المعلومة؛ فإذا وجد منه براعة في العرض تأمّل في أوجه تلك البراعة وأسبابها، وحرص على الاستفادة منها.

الركن الثاني: الكتاب

والركن الثاني من أركان عملية القراءة: الكتاب أو ما يقوم مقامه مما يُقرأ، **والكتاب تتعلقّ به أمور مهمّة:**

الأمر الأول: أن الكتاب له رسالة وهي المقصد العامّ الكلّي للكتاب، وهذا المقصد قد يكون مصرّحاً به في الكتاب وقد يحتاج القارئ إلى استخراجه، ومن خفي عليه مقصد الكتاب تخلّف عنه عنصر مهمّ من عناصر القراءة الجيّدة للكتاب.

والأمر الثاني: أن الكتاب إذا طال فله مقادير يمكن أن يقسّم عليها، كالأبواب والفصول والأقسام ونحوها، وهذه المقادير قد تكون من وضع المؤلف في كثير من الأحيان، وقد يحتاج القارئ إلى تقسيم الكتاب إلى مقادير متناسبة موضوعياً، بحيث يكون لكلّ مقدار مقصد يمكن استخراجه، وإذا ضمّ مقاصد المقادير بعضها إلى بعض تبيّن له المقصد العام الكلي للكتاب.

والأمر الثالث: أن الكتاب له مسائلُ عِمادٍ هي لبّ ما في الكتاب، وهذه المسائل تكون في الغالب خادمة لمقصده أو دالة عليه، وملاحظة هذا الأمر تكشف للقارئ تناسب مسائل الكتاب.

والأمر الرابع: أن الكتاب له منهج يسير عليه مؤلفه، وهذا المنهج قد يكون خاصا بذلك الكتاب، ولذلك ينبغي لمن أراد أن يقرأ كتاباً أن يحرص على تعرّف منهجه وشرطه؛ فيسهل عليه فهمه، ويسلم من إشكالات تعرض لمن لم يكن على علم بمنهج الكتاب.

والأمر الخامس: أن الكتاب له مصادر قد يصرّح المؤلّف بذكرها؛ وهذه المصادر غالباً ما تكون ذات صلة بالعلم المتعلق بالكتاب، والكتب التي يرجع إليها أهل العلم ينبغي أن يعرف القارئ قدرها، ويحاول الاستفادة منها، فقد يدرج بعضها في خطته للقراءة، وقد يكون بعضها مفقوداً، لكن له مختصرات مطبوعة، أو يكون من أهل العلم من يكثر النقل منه في كتبه.

وهذه الكتب كنوز مخبوءة، ودرر مبثوثة، مَن تتبعها وجمعها ظفر بعلم غزير، وتحصيل علمي متين.

الركن الثالث: القارئ

والقارئ اللبيب تتعلّق به أمور مهمّة في عملية القراءة:

الأمر الأول: أن القارئ له مقاصد من اختيار الكتاب وقراءته، ووضوح المقصد من القراءة مهمّ في طلب الانتفاع به.

والأمر الثاني: أن القارئ اللبيب يأخذ الكتاب بقوّة وعزيمة؛ فيقرأ بإقبال نفس، وعزيمة متجددة، وهمّة متطلّعة لفوائد الكتاب، وهذه التهيئة النفسية مهمّة جداً في تحصيل فوائد الكتاب، وتفهّم مسائله، وضبطها.

والأمر الثالث: أن القارئ اللبيب له خطّة منظّمة في القراءة تعينه على أن يقرأ الكتاب في التوقيت المناسب لمستواه العلمي، فيقرأ الكتاب حين يقرأه وهو على أهلية حسنة للاستفادة منه، وإذا تبيّن له عند قراءة كتابٍ من الكتب أنّ عليه قراءة كتب أخرى تمهّد لقراءة هذا الكتاب قدّمها، ثمّ قرأ هذا الكتاب في الوقت الذي يكون مستعدًّا لقراءته فيه.

وهذا الاستعداد العلمي لا يقلّ أهميّة عن التهيئة النفسية؛ لأنّ ضعف الاستعداد عائق عن تحقيق الاستفادة المرجوّة من قراءة الكتاب.

والأمر الرابع: أنّ القارئ اللبيب لديه استشراف علمي فلا يقف عند حدود فهم عبارات الكتاب، وإنما يستفتح بقراءته للكتاب آفاقا رحبة من العلم، فينظر إلى الكتاب نظر الشغوف بتحصيل فوائده، والراغب في الاستعانة به على التعرف على علم صاحبه، وأسباب قوته العلمية، ومصادر استمداده المعرفي، ووصاياه وأمنياته لتحقيق مسائل ذلك العلم؛ فيجني من قراءة الكتاب الواحد فوائد كثيرة متنوعة.

والأمر الخامس: أن القارئ الجادّ يسلك في قراءته طريقة نافعة ونظاماً يعينه على محاولة الاستفادة المثلى من الكتاب باختصار ما يمكن من الجهد والوقت، وهذا لا يتأتّى إلا بالمهارة في القراءة؛ وقد لا يكون من المناسب اقتراح طريقة موحدة للقراءة لاختلاف أحوال الكتب والقراء، لكن سأذكر أمثلة أرجو أن توضّح المراد:

- **فمن ذلك**: أن يقدّر القارئ أنفع ما في الكتاب فيحرص عليه، وهذا قد يستلزم منه تصفحا سريعاً للكتاب في أول الأمر، وقد يكون لديه معرفة بقدر الكتاب وقيمته العلمية من ثناء سابق أو نقول منقولة منه، فيجتهد في تحصيل أفضل ثمرات الكتاب وهي أنفع ما تضمنه، وانصراف الهمّة للأنفع تعين على تحقيق قدر مهم من قراءة ذلك الكتاب؛ فإنه لو لم يحصل من قراءته للكتاب إلا إدراك أنفع ما فيه وتحصيله لكان ذلك مكسباً بيّناً.

وهذا الأمر له أصل في الشريعة، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾، وقال صلى الله عليه وسلم: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقيمة الكتاب هي فيما أحسنه الكاتب؛ وإذا سأل القارئ نفسه عند شروعه في القراءة: ما أنفع ما في هذا الكتاب؟ وجعل هذا السؤال حاضراً في ذهنه عند قراءته؛ قاده ذلك إلى الوقوف على ما يرجو أنه أنفع ما في الكتاب، واجتهد في تحصيله.

- **ومن ذلك**: أن فوائد الكتاب كالدرر منها الصغير والكبير، ومنها النفيس الغالي ومنها ما دون ذلك، ومن شأن المؤلفين أنهم يختلفون في تيسير الوصول إلى تلك الفوائد؛ فمنهم من يقدمها سهلة ميسورة، ومنهم من يجعل دونها مقدمات كثيرة، ومنهم من يكون في أسلوبه عُسر وتعقيد قد يفوّت على بعض القراء الوقوف على تلك الفوائد، ومن مهارة القارئ أن يسرع في القراءة حين يرى أنه في الطريق إلى تلك الفوائد، ثم إذا وقف على فوائد الكتاب وأنفس ما فيه قرأه بتركيز؛ فيحصل له بذلك تحصيل أفضل ما يمكن من الاستفادة، وذلك لأن النفس تملّ وتسأم إذا أعطت جهدها في أوّل الأمر وهي لم تصل بعد إلى ما يتطلّب الجدّ والتركيز؛ فيكون حين الوصول إلى ذلك الموضع كليل الذهن ضعيف العزيمة كالذي يريد الفراغ من قراءة الكتاب بأيّة حال، وهذا يضعف فائدة قراءة ذلك الكتاب ولو كان قيّما، وأمّا القارئ الماهر فهو الذي يخفف الجهد والتركيز فيما لا يستدعي ويسرع حتى يصل إلى الموضع الذي يرى أنه هو بغيته من ذلك الكتاب فيقرأه بتركيز عالٍ وذهن حاضر، وإذا عرض له كلال ذهن توقف عن قراءة ذلك الكتاب ووضع علامة على ما وصل إليه، وعاود قراءته مرة أخرى، لأجل أن تكون قراءته لتلك المواضع من الكتاب قراءة صحيحة مجدية.

- **ومن ذلك** أن كتب أهل العلم ورسائلهم منها ما هو مرتّب متناسب المسائل فيقرأه القارئ بيسر وسهولة، ويحصّل فوائده بلا عناء، ومنها كتب يحتاج القارئ اللبيب إلى ترتيب مسائلها، وجمع النظير إلى نظيره حتى يستقيم له فهم الكتاب.

والمقصود أنّ القارئ اللبيب ينظر في كلّ كتاب بما يناسبه؛ فيقرأه بالطريقة التي يرجو أن يحصّل منها أفضل ما يمكن من الفوائد بأقلّ ما يمكن من الجهد والوقت.

وبهذه الأمور المتعلقة بأركان القراءة تعلم أن القارئ اللبيب لا يقف عند حدود فهم عبارات الكتاب الذي يقرأ فيه، وإنما تكون له أغراض متنوّعة ومتكاملة من قراءة الكتاب الواحد.

معايير جودة القراءة:

مما تقدّم من التحليل والشرح يتبيّن لنا أن القراءة الجيدة لها عناصر مهمة، يتفاضل القراء في تحصيلها، وإجمال تلك العناصر في خمس كلمات، وهي أنها قراءة واعية منظّمة فاحصة مؤصلة بنّاءة.

فالقراءة الواعية: هي التي يدرك بها القارئ مقاصد الكتاب، واستمداد صاحبه المعرفي، ومعالجته العلمية للمعلومات الأولية، وأسلوبه في العرض وتنظيم مادّة الكتاب، ويكون له مقصد واضح من قراءة الكتاب.

والقراءة المنظمة: هي التي يحسن فيها القارئ طريقة القراءة على ما تقدّم شرحه؛ فتكون قراءته مقسمة مركزة.

والقراءة الفاحصة: هي التي يفحص بها القارئ صحة المعلومات الأولية التي استند إليها الكاتب وطريقة المعالجة العلمية؛ فلا يقبل كلَّ ما يقرأ على علاته.

والقراءة المؤصلة: هي التي يتمكن بها القارئ من معرفة أصول المعلومات التي يذكرها العالم في كتابه، وما تستند إليه من الدلائل، ومن كان يُعنى بالتأصيل فإنه إذا مرّت به مسألة لم يتبيّن له الأصل الذي بُنيت عليه توقف عندها حتى يعرف أصلها.

والقراءة البناءة: هي التي يجعل بها القارئُ من الكتابِ لبنةً يُعتمد عليها في بنائه العلمي؛ فيقرأه قراءة الذي يدرك أنه بحاجة إلى تمتين بنائه العلمي، والتوصل بهذا الكتاب إلى قراءة ما يعتمد عليه من الكتب.

ومن جمع هذه الصفات في قراءته للكتاب فقراءته جيّدة، والمهمّ هو إدراك حقيقة هذه المعاني، وأما التعبير عنها بهذه الأسماء أو بغيرها فهو مما لا مشاحّة فيه.

تنظيم القراءة:

من المهمّ أن يُعنى طالب العلم بتنظيم قراءته في كتب أهل العلم حتى يصل إلى أفضل ما يمكن من الانتفاع بالقراءة، ولذلك يوصى الطالب بأن تكون قراءته في كتب أهل العلم منهجية متدرجة متوازنة متكاملة دائمة.

فالقراءة المنهجية هي التي يسير فيها على خطّة منظمة؛ فيعتني فيها أولاً بما يكمّل به مرحلة التأسيس العلمي، ثم ينطلق في البناء العلمي، وتغذية أصوله العلمية، ثمّ ما يكتسب به مهارات النشر العلمي.

والقراءة المتدرجة هي التي يُراعى فيها التدرّج العلمي حسب مستوى القارئ ورقيّه في مدارج العلم.

والقراءة المتوازنة هي التي ينوّع فيها طالب العلم القراءة في كتب أهل العلم حتى يكون بناؤه العلمي بناء متوازناً؛ فلا يكون كالمتعمّق في علم من العلوم وكالعامّي في علوم أخرى مهمّة.

والقراءة المتكاملة هي التي يجمع فيها الطالب أطراف ما يحتاج إليه من العلوم؛ وفنون العلم يكمّل بعضها بعضاً.

والقراءة الدائمة هي التي يداوم عليها صاحبها، وأحبّ العمل إلى الله أدومه وإن قلّ، وفي المداومة بركة عظيمة؛ وأنا أرجو لمن يخصص ساعتين يومياً للقراءة العلمية لا يخلّ بهما أن لا تمضي عليه سنوات يسيرة حتى يحصّل علماً غزيراً مباركاً.

وينبغي لطالب العلم أن يتعاهد نيّته في القراءة وأن يصحح مقاصده، وأن يُعْرِض عن لغو القراءة، وأن يتجنّب القراءة فيما يضرّ ولا ينفع، وأن لا ينشغل عن القراءة في علم واجب بالقراءة في غيره؛ فأولى ما ينبغي لطالب العلم أن يحصّله من العلم ما يؤدّي به ما فرضه الله عليه.

مراتب القراء:

قراء الكتب العلمية على مرتبتين:

المرتبة الأولى: قراء وجهوا عنايتهم وهمَّتهم لِفَهْم الكتاب الذي يقرأونه، وهؤلاء هم غالب القراء.

والمرتبة الثانية: قراء توجهت عنايتهم لمعرفة مسالك ما يحتاجون إليه من العلم من خلال الكتاب الذي يقرأونه؛ فأتقنوا مهارة التعرف عليها، ولم ينحصر نظرهم في فهم مسائل الكتاب الذي بين أيديهم.

فأما أصحاب المرتبة الأولى فيحصلون تحصيلاً جيداً لكنهم بحاجة إلى وقت أطول وخطة منهجية في القراءة قد يطول أمدها في بعض العلوم، وحاجتهم إلى الإشراف العلمي أشد.

وأما أصحاب المرتبة الثانية فهم القراء السباقون إلى المعرفة وحسن التحصيل، ومَن رُزِق منهم مَلَكَة حسنة في القراءة العلمية وأحسن اكتساب مهاراتها نبغ نبوغاً مبكراً وانفتحت له آفاق واسعة من العلم النافع، وتعرف ما وراء الكتب من الفوائد العلمية التي تبين له مسالك العلم الذي يقرأ في كتبه، وتوضح له مناراته التي متى تبينت له أبصر الهدف الذي إذا وصل إليه عرف أنه أدرك بغيته وقضى نهمته.

والذي نسعى إليه في هذا الكتاب هو تكوين هذه الملكة لدى طلاب العلم وصقلها وتنميتها بإذن الله تعالى.

مهارات القراءة العلمية:

المهارات التي يحتاجها القارئ ليحسن قراءة الكتاب وينتفع به متعددة، ومن أهمّها:

١ : مهارة استخراج مقاصد الكتاب، وهي اللبنة الأولى في بناء القراءة الصحيحة، وتُعنى باستخلاص فائدة الكتاب ولبّ محتواه.

٢: معرفة الاستمداد المعرفي للكاتب.

٣: معرفة أساليب المعالجة العلمية وأدواتها.

٤: معرفة أساليب عرض المادّة العلمية وتنظيم مادّة الكتاب.

٥: تلخيص المقاصد

٦: جرد المطولات

٧: التعرّف على معالم العلوم

وسأخصص لبعض هذه المهارات أبواباً مستقلّة، وقد أدمج بعضها في باب واحد، والله الموفّق والمعين.



الباب التاسع: مهارة استخراج مقاصد الكتب

من الشكاوى الشائعة لدى كثير من قراء الكتب أن منهم من يقرأ الكتاب ويحسّ من نفسه أنه يفهم ما يقرأ، لكنه إذا فرغ من قراءة الكتاب لم يكد يجد من نفسه ضبطاً لما في ذلك الكتاب إلا نُتَفاً مما يعلق بالذهن، وهذا التحصيل الذهني غير مأمون عليه من الذهاب بتطاول العهد.

وهذه المشكلة قائمة على سببين:

أحدهما: تفاوت مستوى الإدراك بين الكاتب والقارئ؛ فالقارئ المبتدئ قد يمنح نفسه درجة من الفهم لنصّ الكتاب لم يصل إليها في حقيقة الأمر، وإنما يتبيّن له ذلك إذا أوردت عليه أسئلة تكشف له غفلته عن مستوى العمق المعرفي الذي أراده المؤلف، وأسباب تصرّفه في التأليف تقديماً وتأخيراً وتصريحا وتلميحاً، وإيجازا وإسهاباً، واختيار بعض العبارات على بعض.

وكثير من كتب أهل العلم إنما يفهم منها طلاب العلم المبتدئون والمتوسطون بقدر ما بلغوا من مستوى الفهم والإدراك، وما يفوتهم من حيث لا يشعرون علمٌ كثير.

والسبب الآخر: غفلة القارئ عن إدراك مقاصد الكتاب، واشتغال ذهنه بفهم النص الذي يقرأه في الحال، فيغفل عن تناسب فصول الكتاب، واتّساقها مع مقاصده، ولو أنه أدركها لأعانه ذلك على ضبط كثير مما في الكتاب؛ لأنه بعد فراغه من الكتاب يكتمل لديه التصور الشمولي القائم على دعائمه المترابط بعضها ببعض؛ يذكّر بعضها ببعض، ويقود تناسبها وترابطها إلى فقه مقاصد الكتاب.

وموضوع هذا الباب هو في علاج هذا السبب، وذلك بالتعريف بمهارة استخراج مقاصد الكتاب، ويبقى على الدارس مواصلة التمرّن على اكتساب هذه المهارة حتى يتقنها بإذن الله تعالى.

وأما السبب الأول فإنما يكون علاجه بكثرة القراءة في كتب ذلك العلم، ولا سيما مصادره الأصلية حتى يدرك ما وراء كثير من المسائل التي يذكرها أهل العلم.

ومن سلك سبيل العناية بمقاصد الكتب وأَحسنَ اختيار ما يقرأ كان حرياً أن يسبق أقرانه إلى مرتبة عالية من حسن التحصيل، وجودة التأصيل، مع ما يفيده التدرب على اكتساب هذه المهارة من إعمال الفكر والنظر في الكتاب نظر الحريص على استخلاص أحسن ما فيه.

ولذلك فإنّ هذه المهارة أصلٌ تُبنى عليه كثير من مهارات القراءة، والمداومةُ عليها تبني ملَكة الفهم والتأمل والاستنباط وهي من أخص صفات أهل العلم؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾. فذكر العلماء بأخص صفاتهم.

ولذلك فإنّ من أهم ما يحتاجه طالب العلم في قراءة التعلم توجيه عنايته أولا لإدراك مقاصد الكتاب الذي يقرأه، فإذا أدركها فقد أحرز قدراً مهماً وأساسياً من نجاح عملية القراءة.

ولكل كاتب مقاصد فيما يكتب ورسالة يريد تأديتها للقارئ، وللعلماء طرق مختلفة في بيان هذه المقاصد فمنهم من يلخصها في أول كتابه، ومنهم من يجملها في آخره، ومنهم من يقسم كتابه إلى أبواب وفصول تتضح مقاصد الكتاب باستقرائها،ومنهم من يفرِّق ذكر هذه المقاصد في كتابه ويكثر من الاستطرادات في المسائل والفوائد والأقوال والحجج فتتفرق الإشارات إلى مقاصده في صفحات كتابه حتى تخفى على كثير ممن يقرأ الكتاب قراءة عابرة.

ما هي مقاصد الكتاب؟

تطلق مقاصد الكتاب على معنيين:

المعنى الأول: المقصد العام، وهو غرض المؤلف من تأليف الكتاب.

المعنى الثاني: المقاصد الفرعية، وهي الجمل الرئيسة في الكتاب التي قصد المؤلف بيانها.

ومما ينبغي أن يُعلم أن **لكل كتاب من الكتب التي يؤلفها العلماء عِمَاداً وسِنَاداً واستطراداً:**

- **فأما العِمَاد:** فهو ما يقوم عليه الكتاب من المسائل التي هي قصد المؤلف إلى بيانها والاستدلال لها، وكلامه في كتابه إنما يدور عليها؛ فهي لكتابه كالأعمدة للبنيان.

- **وأما السِّنَاد:** فهو ما يَسْنُد به المؤلف كلامه من الاستدلالات والتقريرات والتعليلات والقصص والمسائل التي لها صلة بتعزيز بيان مسائل العماد.

- **وأما الاستطراد:** فهو الكلام في مسائل لا تتصل بالعماد اتصالاً مباشراً وإنما يحصل بذكرها بعض الفوائد التي لو لم يذكرها المؤلف لم تؤثر على بيان تلك المقاصد، وقد يفيد ذكرها في بيان السناد فتلتحق به.

ولبعض الاستطرادات لطافة وظرافة تستملحها النفوس فربما انصرفت هِمَّةُ بعض القراء إليها وغفلوا عن المقاصد، وهذا خطأ منهجي في القراءة؛ يورث صاحبَه الغفلة عن مقاصد الكتب.

ولذلك يوصى طالب العلم بأن يجعل عنايته الأولى متجهة لإدراك مقاصد الكتاب وضبطها، ثم معرفة جُمَل من السناد؛ فإذا فعل ذلك فقد نجح في قراءة ذلك الكتاب وانتفع به بإذن الله تعالى.

ومن فقه طالب العلم أن يلحظ عناية المؤلف من نوع المسائل التي يستطرد إليها، فإنّ الغالب على من يكثر الاستطراد في كتبه أنه يستطرد إلى نوع من العلوم التي يتقنها ويبرع فيها بسبب غلبتها على عنايته العلمية، وقد يستطرد لأدنى مناسبة.

وهذه فائدة مهمة لطالب العلم في توظيف استفادته من المسائل الاستطرادية في الكتب التي يقرؤها فإذا وجد عالماً من العلماء يكثر من الاستطراد في مسائل تتعلق بعلم من العلوم فاعلم أن له بهذا العلم عناية كبيرة، وقد قيل: (من أكثر من شيء عرف به).

فعلى سبيل المثال: نجد شيخ الإسلام ابن تيمية إذا ما كتب كتاباً يستطرد كثيراً في ذكر مسائل تتعلق بالعقيدة وأقوال الفرق والرد عليهم وبيان فساد أقوالهم فيعلم القارئ بذلك أن له عناية كبيرة بهذا العلم، فإذا عرضت له مسألة في العقيدة حرص على الرجوع لكتب شيخ الإسلام ابن تيمية لما عرف عنه من العناية بهذا العلم، مع إجادته لعلوم أخرى كثيرة لكن غلب عليه هذا العلم في أكثر مؤلفاته.

وصية:

اقرأ كتب أهل العلم بنَفَس المسترشد المتعلِّم الحريص على فهم مسائلها وإدراك مقاصدها، لينتفع بعلمهم، ويسلك سبيلهم، لا بنَفَس المنتقد الباحث عن الإشكال لإثارته، فرب نية حرمت صاحبها الانتفاع من كتاب عظيم النفع.

طرق استخراج مقاصد الكتب:

كتب أهل العلم على نوعين:

النوع الأول: كتب تكاد تخلو من التبويب والتقسيم الظاهر للكتاب، وهذا حال كثير من الرسائل المطولة؛ كرسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض كتب تلميذه ابن القيم، ورسائل ابن رجب، وغيرهم.

والنوع الثاني: كتب مقسّمة على أبواب وفصول يُعنون كل منها بعنوان له دلالةٌ ما على ما تضمنه، وقد تكون تلك الدلالة مطابقة وقد تكون غير مطابقة وإنما صيغت على سبيل التنبيه والإشارة ودلالة الجزء على الكل.

فأما **كتب النوع الأول فأوصي طلاب العلم بتقسيم العمل فيها على مراحل:**

المرحلة الأولى: تصفح الكتاب سريعاً لغرض معرفة مباحثه المهمة، وصلتها بعنوان الكتاب، وهذه المعرفة الذهنية كالتهيئة لتنظيم قراءة الكتاب.

المرحلة الثانية: تقسيم الكتاب إلى مقادير وأجزاء بحيث يمكنه إتمام قراءة كل مقدار من تلك المقادير في جلسة واحدة، وضبط مسائلها؛ فتوافر الهمّة في الجلسة الواحدة على ضبط مقدار معيّن يعين نافع جداً.

المرحلة الثالثة: البدء بقراءة الجزء الأول، وتدوين أسماء المسائل التي يذكرها المؤلف، مع الحرص على إحسان صياغة المسائل بما يدل على المراد بعبارات جامعة واضحة، ووضع علامة على ما يشكل لإعادة قراءته لاحقاً، ثم إكمال قراءة بقية الأجزاء بالطريقة نفسها، مع التيقظ للعبارات التي لها صلة ببيان مقاصد المؤلف وتمييزها، فقد يقع يصرّح في بعض المواضع من كتابه بمقاصده.

المرحلة الرابعة: جمع أسماء المسائل العلمية بعد الفراغ من القراءة الأولية للكتاب، وتصنيفها إلى أصناف؛ فيجعل المسائل التي يمكن اندراجها في باب واحد في صنف مستقل، ثم يعنون كل صنف من هذه المسائل بعنوان جامع لها، وهذه الأصناف هي المقاصد الفرعية للكتاب.

المرحلة الخامسة: ترتيب هذه الأصناف ترتيبا موضوعيا، ثم عنونتها بعنوان جامع بمراعاة ما يشير إليه المؤلف أو يصرّح به من مقاصد الكتاب، وهذا العنوان الجامع هو المقصد الكلي للكتاب.

ولا حرج في كون العنوان في المقاصد طويلاً نوعاً ما من أجل الوفاء بدلالة العبارات دلالة بيّنة على المراد.

إذا أحسن القارئ أداء هذه المراحل فيرجى أن يكون قد أدرك معرفة مقاصد الكتاب، وبنى هذه المعرفة على قواعد ودلائل يمكنه أن يبرهن عليها؛ فالمقاصد الفرعية مبنية على المسائل، والمقصد الكلي مبني على المقاصد الفرعية.

وأما **كتب النوع الثاني فالعمل فيها مشابه للعمل في كتب النوع الأول غير أنه يختلف عنه في أمور:**

الأمر الأول: أن الأبواب والفصول تقوم مقام المقادير والأجزاء.

الأمر الثاني: أن أسماء تلك الأبواب قد تعين القارئ على معرفة مقاصدها، وهذا ليس على إطلاقه؛ فقد يحتاج القارئ بعد استخراجه لمسائل كلّ باب إلى إعادة تسمية الباب باسم يدلّ على تلك المسائل دلالة جامعة بيّنة.

الأمر الثالث: أنّ القارئ بعد مرحلة تدوين المسائل قد يحتاج إلى إعادة ترتيب المسائل فيلحق بعض المسائل ببعض الأبواب التي تكون أليق بها.

وذلك للوصول إلى ترتيب علمي موضوعي لمسائل الكتاب، والكاتب قد يدفعه إلى مخالفة الترتيب الموضوع دوافع متعددة منها أن يستطرد في أحد الأبواب بذكر مسائل تعدّ من عماد أبواب أخرى ثمّ يرى عدم الحاجة لإعادتها.

الأمثلة:

هذه أمثلة أرجو أن تبيّن فائدة التعرّف على مقاصد الكتب، ومنها ما هو تامّ ومنها ما أدّيت بعض مراحله، وتركت للطالب أداء ما تبقّى ليسير في الكتاب نفسه على مثال ما أنجز من مراحله.

المثال الأول: تلخيص مقاصد رسالة "أمراض القلوب وشفائها" لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. [١]

المثال الثاني: تلخيص مقاصد "التحفة العراقية" لشيخ الإسلام ابن تيمية. [٢]

المثال الثالث: تلخيص مقاصد مقدمة تفسير ابن كثير. [٣]

المثال الرابع: تلخيص مقاصد مقدمة صحيح مسلم. [٤]

التطبيقات:

بعد قراءة الباب وتأمّل الأمثلة أودّ أن يؤدي الطالب تطبيقين من التطبيقات التالية:

التطبيق الأول: تلخيص مقاصد "الرسالة التبوكية" لابن القيم.

التطبيق الثاني: تلخيص مقاصد رسالة "قاعدة في المحبة" لشيخ الإسلام ابن تيمية.

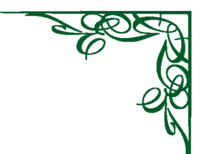
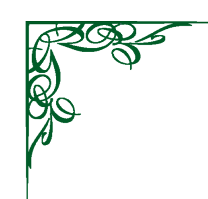
التطبيق الثالث: تلخيص مقاصد رسالة "الفرق بين العبادات الشرعية والعبادات البدعية" لشيخ الإسلام ابن تيمية.

التطبيق الرابع: تلخيص مقاصد "رسالة كلمة الإخلاص" للحافظ ابن رجب الحنبلي.

وأسأل الله تعالى لي ولكم التوفيق والسداد.

---

(١) انظر الملحق ص ١٤١.
(٢) انظر الملحق ص ١٦١.
(٣) انظر الملحق ص ١٩٤.
(٤) انظر الملحق ص ٢٢٦.

الباب العاشر: جرد المطولات

جرد الكتب العلمية المطولة من الأمور المهمة في مسيرة طالب العلم إذا تأهّل له، وله أثر كبير في تنمية بنائه العلمي وتقويته، وهو شُغْل أهل العلم الكبار، وما سبقه من مراحل الطلب كدراسة المختصرات وأوائل مراحل البناء العلمي إنما هو كالتهيئة وإعداد العدة للانطلاق في قراءة المطولات التي هي أصول العلم ومجامعه.

وجرد المطولات من أسباب تحصيل سعة الاطلاع، وتوسيع المدارك، واكتساب المهارات العلمية المتنوعة، وسعة المعرفة بأصول المسائل ونشأتها، وتنوع طرائق أهل العلم في دراستها وبحثها، ومعرفة مصادر استمدادهم المعرفي، والوقوف على غرر الفوائد، ولطائف المعارف.

وكم أزيل بالجرد من إشكال، وحُلَّ به من معضلة، وتبيّنت به من حقيقة.

وهو سبب ظاهر التأثير في تفاضل العلماء وتفاوت مراتبهم في سعة الاطلاع والتحقيق.

قال الشيخ بكر أبو زيد: (الجَرْدُ للمُطَوَّلاتِ من أَهَمِّ المُهِمَّاتِ ؛ لتَعَدُّدِ المعارِفِ، وتوسيعِ المَدَارِكِ واستخراجِ مَكنونِها من الفوائدِ والفرائدِ، والخبرةِ في مَظَانِّ الأبحاثِ والمسائلِ، ومَعرِفَةِ طرائقِ المُصَنِّفِينَ في تآليفِهم واصطلاحِهم فيها)ا.هـ.

المراد بجرد المطولات:

جرد الكتب المطولّة يراد به قراءتها قراءة يستقصي بها القارئ ما يريده منها، وهو مأخوذ من جَرْدِ الأرض إذا استؤصِلَ نبتها، وأُتي عليه.

قال الزبيدي: (جُرِدَت الأَرْضُ فهي مجرودة إِذا أَكَلَ الجَرادُ نَبْتَها، وجَرَدَ الجَرَادُ الأَرْضَ يَجْرُدها جرْداً: احْتَنَكَ ما عليها من النَّبَات فلم يُبْقِ منه شيئاً)ا.هـ.

وقال ابن فارس: (وقال بعضُ أهلِ العِلم: سمِّي جراداً لأنّه يجرُد الأرضَ يأكلُ ما عليها).

وهكذا شأن طالب العلم إذا قرأ الكتب المطوّلة ليستقصي ما تضمنته من الفوائد، حتى لا يكاد يفوته شيء مما أراده منها.

فوائد جرد المطولات:

يمكن إجمال فوائد جرد المطولات في النقاط التالية:

١. تعريف طالب العلم بمعالم العلوم التي اعتنى بها أهل العلم، واستجلاء أبوابها وفصولها ومسائلها، وهذه من أعز معارف طلاب العلم والعلماء؛ لأنها تجعل خريطة المسائل العلمية واضحة في ذهن طالب العلم؛ فيعرف موضع كلّ مسألة، ومراجع بحثها، معرفة ذهنية سريعة تمكّنه من سرعة الوصول إلى المعلومة المطلوبة وتسهيل بحثها.

٢. توسيع المدارك بمعرفة تنوّع طرق العلماء في تناول المسائل العلمية؛ وقد تكون المسألة من المسائل المشتركة بين عدد من العلوم فيبحثها أهل كلّ علم من وجه عنايتهم؛ فيحصل لطالب العلم بمعرفة هذه الأوجه من سعة الأفق في تصور المسائل العلمية ما هو أنفع له من كثير من الشرح، ولا سيما إذا أجرى ذلك التصور على نظائر تلك المسائل.

٣. ضبط المسائل العلمية ورسوخ معرفتها في الذهن بكثرة القراءة وتكرار المرور عليها من أوجه متعددة.

٤. تعميق المعرفة العلمية وتأصيلها بالاطلاع على مصادر المسائل العلمية ومآخذها وأصول نشأة تلك المسائل، وما يتصل بها من تفصيل؛ فكثير من المسائل

العلمية التي يدرسها الطالب في المختصرات إنما كانت دراسته إياها على وجه يحصل به التصور الأولي، وفهم تلك المسائل بما يناسب حال المبتدئين، لكنه إذا قرأ المطَّولات عرف ما وراء تلك المسائل من تأصيل وتفصيل، ومواقف وأخبار لأهل العلم، بل ربما كان بسبب بعض تلك المسائل من المحن والابتلاءات والمؤلفات والمناظرات والردود بين أهل العلم ما يطول ذكره، ويعظم أثره.

٥. صقل مواهب القارئ وتنمية مهاراته وتوجيه عنايته إلى ما يحسنه من المسالك العلمية، وذلك أن طالب العلم إنما يقرأ لينتفع؛ فإذا وجد ما يوافق ما وهبه الله من ملكات ومهارات توجّه إليه؛ فكان ذلك فتحاً مباركاً له؛ لأنه يشغله بما يحسنه، ويضعه في الموضع المناسب له، ويسلك به المسلك الأمثل له في القراءة والطلب والدعوة والتعليم.

٦. تعريف طالب العلم بما يحتاجه من المهارات العلمية المتنوعة وإعانته على اكتسابها، والانتفاع بتجارب أهل العلم قبله، وطرقهم في صقلها وتنميتها، وكثير من تلك المهارات له أثر قوي في اختصار كثير من الوقت والجهد وضبط المسائل العلمية، وبعض تلك المهارات لا تظهر الحاجة إليها إلا بعد الاطلاع على المطولات.

٧. توارد الأفكار العلمية الكثيرة والمتنوعة مما ينقدح في الذهن بعد الوقوف على مواضع الحاجة في المطولات، ومما يجده من أمنيات أهل العلم في كتبهم، ودعواتهم للتأليف في بعض العلوم والأبواب والمسائل، وإرشاد بعضهم لطرق إعداد تلك المؤلفات؛ فيحصل لطالب العلم من جمع تلك الأفكار العلمية النافعة والنظر فيها بتأمّل والاشتغال بما يناسبه منها إسهام محمود في تنمية المكتبة الإسلامية وتتميمها، وإفادة طلاب العلم، وإذا اهتدى طالب العلم للمسلك الأنفع له وللأمّة فقد هُدي لخير عظيم.

أنواع الجرد:

للجرد أنواع مشتهرة في استعمال أهل العلم:

النوع الأول: جرد كتاب بأكمله من أوّله إلى آخره؛ وهو أشهر أنواع الجرد، وأمثلته كثيرة جداً.

النوع الثاني: جرد كتب متعددة لغرض واحد، ويكثر هذا المثال في أغراض البحث والتأليف وتقوية الأصول العلمية في باب من الأبواب.

ومن أمثلة ذلك: جرد الكتب الستة لاستخراج الأحاديث المتعلقة بالعقيدة منها.

النوع الثالث: جرد فصول محددة من كتب متعددة لغرض واحد.

ومن أمثلته: جرد أبواب حكم المرتد في كتب الفقه وأبواب الإيمان في كتب العقيدة لأجل دراسة نواقض الإسلام وأحكام التكفير.

مقاصد الجرد عند العلماء:

تأمّلت مقاصد الجرد عند العلماء فوجدتها دائرة بين أمور:

الأمر الأول: تصحيح النسخ وضبطها بالقراءة على الشيوخ أو مقارنة النسخ والروايات لدى العارفين بها، وهذا كان من أشهر المقاصد فيما مضى قبل زمن الطباعة.

وهذا الأمر مقصده الأهمّ أن يحصّل نسخة موثوقة من الكتاب مع الإلمام السريع بمحتواه.

والأمر الثاني: الجرد لغرض البحث، كأن يجرد كتاباً من كتب الحديث ليستخرج حديثاً يبحث عنه، أو كتاباً فقهيا من الكتب غير المرتبة على الأبواب ليبحث عن مسألة، وكان هذا النوع من الجرد شائعاً فيما مضى.

وكان من العلماء من يصل بجرده الدقيق إلى إطلاق أحكام عامة من مثل قول بعضهم: وليس لفلان (من الرواة) في الكتب الستة إلا بضعة أحاديث ثم يذكرها.

والأمر الثالث: الجرد لغرض استخراج نوع من أنواع المسائل العلمية أو باب من الأبواب، وهو أعمّ مما قبله، لأنه يجمع ما يتعلق بذلك النوع من المسائل أو بذلك الباب من الكتب التي يجردها.

والأمر الرابع: الجرد لغرض التأليف، وهو أعمّ مما قبله، وهو كثير الاستعمال عند أهل العلم.

والأمر الخامس: الجرد لغرض اختصار الكتب المطولة وتهذيبها.

والأمر السادس: جرد الكتب المطوّلة لغرض التعليق عليها وتحشيتها، وهذا أمر خارج عن حدّ دراستها؛ فإنّ الذي يعلّق إنما يعلق على مواضع من ذلك الكتاب؛ فينبه على الخطأ، ويسدّ الخلل، ويشرح المستغلق.

والأمر السابع: اتخاذ الكتاب أصلاً علمياً فيكرر قراءته مراراً كثيرة؛ فتكون قراءته الأولى قراءة متأنية، وقراءاته التالية كالجرد لغرض التعاهد والاستذكار.

عناية العلماء بالجرد:

من تأمّل سير العلماء وجد عنايتهم بجرد الكتب ظاهرة بيّنة، وتبيّن له أنها من أسباب سعة اطلاعهم، وتميّز كثير من مؤلفاتهم بجودة التحرير وحسن التقصي وسعة الأفق، وسأذكر أمثلة تكفي اللبيب عن كثير من الشرح والتطويل، وتعرّفه بشيء من التطبيق العملي لجرد الكتب العلمية والاستفادة منه في أغراض شتّى.

فمن ذلك:

١: ما سبق ذكره عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أنه جرد التفاسير المسندة لاستخراج أقوال السلف في مسائل التفسير وتدوينها مجردة عن الاستدلال، وهو أصل علمي مهمّ جدا في علم التفسير.

٢: أن عبد العظيم بن عبد القوي المنذري(ت:٦٥٦هـ) اختصر صحيح مسلم بتجريده من الأسانيد ليسهل حفظه، وقد اشتهر مختصره هذا، وطبع، واشتهر بعده اختصار كتب السنة، وتقريبها للحفظ، وهو مقصد صالح من مقاصد الجرد.

٣: أن أبا العباس الأصم(ت:٣٤٦هـ) جرد كتب الإمام الشافعي من رواية شيخه الربيع بن سليمان المرادي (ت:٢٧٠هـ)؛ واستخرج منها الأحاديث التي رواها الشافعي بإسناده، لكنّه لم يرتبه على المسانيد ولا على أبواب الفقه، ولذلك رتبه غير واحد من أهل العلم، وطبع باسم "مسند الشافعي"، ومن أشهر من رتّبه:

أ: الأمير سنجر الجاولي (ت:٧٤٥هـ)، وترتيبه مطبوع.

ب: الحافظ محمد بن عابد السندي (ت:١٢٧٥هـ)، وترتيبه مطبوع.

٤: ما ذُكر عن جماعة من المحدثين من قراءة الضبط لكتب الحديث، وتحقيق السماع فيها، وتصحيح النسخ، وأمثلة هذا النوع لا تحصى كثرة.

قال جمال الدين القاسمي: (ذُكر في ترجمة المجد الفيروزآبادي صاحب القاموس أنه قرأ صحيح مسلم في ثلاثة أيام بدمشق، وأنشد:

قرأت بحمد الله جامع مسلم	بجوف دمشق الشام جوف الاسلام
على ناصر الدين الإمام بن جهبل	بحضرة حُفَّاظ مشاهير أعلام
وتم بتوفيق الإله وفضله	قراءة ضبط في ثلاثة أيام)

وقد ذكر هذه الحكاية المقّري في "أزهار الرياض"، وابن العماد في "شذرات الذهب".

وأعجب منه ما ذكره الذهبي في "سير أعلام النبلاء" أن الخطيب البغدادي قرأ "صحيح البخاري" على شيخه إسماعيل بن أحمد الحيري الضرير في ثلاثة مجالس؛ ميعادان في ليلتين، والثالث من ضحوة إلى الليل، ثم إلى طلوع الفجر.

وذكر الحكاية في "تاريخ الإسلام" مختصرة ثم قال: (وهذا شيء لا أعلم أحداً في زماننا يستطيعه).

وذُكر في ترجمة الحافظ ابن حجر أنه قرأ "صحيح البخاري" في عشرة مجالس، كل مجلس نحو عشر ساعات، وصحيح مسلم في أربعة مجالس، وسنن ابن ماجة في أربعة مجالس، ومعجم الطبراني الصغير في مجلس واحد بين صلاتي الظهر والعصر.

٥: أن شمس الدين الذهبي (ت:٧٤٨هـ) جرد كتابه "ميزان الاعتدال في نقد الرجال" ليستخرج منه "الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردّهم" ثم لم يزل يزيد عليه من غيره حتى أخرج كتابا بهذا الاسم، وهو مطبوع.

والأمثلة على أغراض الجرد لدى العلماء المتقدمين كثيرة جداً، ثم منها ما يخرجونه في مؤلفات، ومنها ما يجعلونه في أصولهم العلمية، ومنها ما يكررون قراءته لكثرة فائدته.

ومن الأمثلة المعاصرة:

١. أن الأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة جرد كثيراً من كتب القراءات والتفسير والنحو ليستخرج منها ما يتعلق بمعاني حروف القرآن، ومسائل النحو والصرف المتعلقة بمعاني القرآن، وقد مكث في جرده هذا أكثر من ثلاثة وثلاثين عاماً، وطبع كتابه في أحد عشر مجلداً بعنوان "دراسات في أساليب القرآن".

٢. أن الدكتور هشام بن إسماعيل الصيني له رسالة علمية بعنوان "أقوال الصحابة في مسائل الاعتقاد".

قال في بيان منهج عمله في الرسالة: (قمت بجرد الكتب المسندة المصنفة في الاعتقاد والحديث والتفسير -المطبوع منها- فاستخرجت أقوال الصحابة المتعلقة بمسائل الاعتقاد فقط، وكنت في بداية الجرد اهتممت بكتب الاعتقاد أولاً، ثم بكتب الأصول من كتب الحديث والتفسير كالصحاح والسنن والمسانيد، وبعض الأجزاء الحديثية، وكتفسير الثوري وعبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم).

إلى أن قال: (وقد بلغت الكتب التي جردتها أكثر من تسعين كتاباً مسنداً، تقع في قرابة ثلاثمائة وخمسين مجلداً).

٣. ما منّ الله به عليّ من جرد كتب ابن القيم رحمه الله المطبوعة من شهر ربيع الأول عام ١٤١٧هـ إلى شهر محرم من عام ١٤١٩هـ لاستخراج كلام ابن القيم رحمه الله في شرح أسماء الله الحسنى ومسائل الأسماء والصفات، وقد يسّر الله طباعته في كتاب سميته "المرتبع الأسنى في رياض الأسماء الحسنى".

وهذه الأمثلة إنما أسوقها للبيان ولتحفيز طلاب العلم على الجرد المنظم الذي يخرج منه بإضافة يضيفها إلى أصله العلمي أو عمل ينشره وينتفع به طلاب العلم.

أمثلة لأغراض الجرد:

أغراض الجرد كثيرة متنوعة، وخيرها ما كان ألصق بحاجة طالب العلم وأنفع له ولأمته.

وتعيين الغرض قائم على أمرين:

الأمر الأول: حاجة طالب العلم لتحقيق ذلك الغرض.

والأمر الثاني: أن يكون الكتاب الذي يراد جرده من مظانّ تحقيق ذلك الغرض.

ومن الأمثلة على الأغراض الحسنة:

١. جرد تفسير ابن جرير الطبري لاستخلاص مسائل التفسير وأقوال السلف فيها، وهو عمل نافع لمن كان له تحصيل علمي جيد في التفسير وأصوله.

٢. جرد تفسير ابن عطية لاستخراج قواعد التفسير والأمثلة عليها، وذلك لإمامة ابن عطية في إعمال أصول التفسير وقواعده في مسائل التفسير.

٣. جرد فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية لاستخلاص أقواله في مسائل علم السلوك.

٤. جرد كتاب «شرح السنة» للالكائي لاستخراج أقوال السلف في مسائل الاعتقاد.

٥. جرد فتح الباري لاستخراج مرويات السيرة النبوية من الأحاديث والآثار وتعليقات ابن حجر عليها.

٦. جرد المغني لابن قدامة لاستخراج مسائل الخلاف القوي في الفقه.

٧. جرد تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري لاستخراج تعقباته على كتاب «العين» للخليل بن أحمد.

٨. جرد مجموعة من الكتب في علم من العلوم لغرض تشجير مسائل ذلك العلم، ومعرفة أبوابه وفصوله.

وهذه الأمثلة ليست مرادة بأعيانها، وإنما سقتها للتمثيل، وللدلالة على نظائرها، ومن كان مشتغلا بعلم من العلوم فإنه يحتاج إلى المداومة على جرد كتبه وتنويع أغراضه من الجرد حتى يتمم أصله العلمي في ذلك العلم ويقوّيه.

وصايا لطالب العلم قبل الانطلاق في جرد المطولات:

مَن سَمَت همّتُه لجرد المطولات فليعلم أنّه إذا لم يأت هذا الأمر من وجهه الصحيح فقد عرّض نفسه لمخاطر ومزالق، وربما اغترّ بشيء من الفوائد واللطائف وهو مضيّع لأصول العلم في حقيقة الأمر.

ذلك أنّ جرد المطولات كالغوص في البحور، من تقحّمه على غير معرفة وتأهّل كان على خطر من الهلاك، ولذلك أوصي من يريد جرد المطولات بوصايا مهمة:

الوصية الأولى: العناية بضبط المختصرات قبل الاشتغال بجرد المطولات

وذلك لأجل أن يكون للطالب في العلم الذي يريد جرد كتبه أصلٌ علمي يمكنه البناء عليه، يحقق له هذا الأصل ثلاث معارف مهمة:

أولاها: معرفة أبواب ذلك العلم وفصوله ومسائله.

وثانيها: معرفة مسائل الإجماع والخلاف في ذلك العلم بضبط يناسب مستواه العلمي.

وثالثها: معرفة أئمة ذلك العلم وأهمّ الكتب المؤلفة فيها ومناهج مؤلفيها.

وهذه المعارف الثلاث هي كالأساس للانطلاق في قراءة مطولات ذلك العلم، ويكفي أن يكون تحصيله فيها بما يناسب مستواه العلمي؛ فإنه إذا رُزق مع هذا الضبط حُسْنَ فهم، ومعرفةً لقدر أئمة ذلك العلم، وصلاحَ قصدٍ رُجي له أن ينتفع بقراءة كتبهم المطولة.

والذي يبدأ بجرد المطولات وهو لم يتقن المختصرات يضيّع كثيراً من وقته وجهده في غير ضبط ولا إتقان، بل ربما أضرّ بنفسه بتقحمها لجج المسائل والخلافات وهو لم يضبط أصول ذلك العلم، ولم يعرف منهج أهله، وإن زعم أنه عارف فهو زعمُ مكابرٍ لا يرى جَهْلَ نفسِه.

وليعلم طالب العلم أنه لا يحفظ وقته ولا يضبط علمه بمثل دراسة كتاب مختصر في ذلك العلم يكون كالأصل الذي يمكنه البناء عليه.

فإن قيل: ماذا يصنع من ليس لديه أصل علمي، ولديه تحصيل علمي سابق غير منظّم؟

قيل: من كان لديه تحصيل علمي سابق؛ فبناء الأصل العلمي الذي يمكنه البدء به لا يكلّفه كثيراً من الجهد والوقت؛ فليحرص على اختيار أنسب الأصول إليه وأنفعها له وأيسرها عليه، وقد مضى بيان أنواع الأصول العلمي عند أهل العلم.

ثم لينطلق بعد ذلك في تنظيم قراءته في كتب ذلك العلم حتى يصل إلى جرد المطولات.

وليحذر طالب العلم من استصعاب بناء الأصل العلمي في أيّ علم من العلوم، ولا يظننّ أن بناء الأصل يستلزم منه أن يؤلف كتاباً جامعاً في ذلك العلم يحرّر

عباراته ويطيل في شرحه، فهذا الخطأ في التصور مما حرم كثيراً من طلاب العلم من اكتساب التأصيل العلمي ومن النبوغ وبلوغ مراتب العلماء.

وإنما يكفيه أن يدوّن فيه ما يذكّره بما يحتاج إليه من الأبواب والمسائل وبعض الأقوال سواء ذكرها بنصها أو أحال عليها.

والحال يقتضي من كثير من طلاب العلم أنهم يدونون في أصولهم عبارات أشبه بالإشارات، بل ربما استخدم بعضهم رموزاً خاصة، ولذلك فإنّ الأصول العلمية غير صالحة للنشر غالبا.

وسبب ذلك أن طالب العلم كثيراً ما يقف على فوائد نفيسة وأقوال لأهل العلم وهو في حال عجلة من أمره أو اشتغال بدرس أو قراءة في كتاب، أو أمر عارض فلا يجد من الوقت ما يكفيه لتحرير العبارة واستكمال الكتابة، فيكتفي بوضع إشارة في أصله لتلك الفائدة أو إحالة أو اختصار.

الوصية الثانية: احرص على ما ينفعك

مسالك العلم كثيرة لا يحاط بها، وأوجه الانتفاع به متعددة، وخير تلك الأوجه لطالب العلم ما فُتح له فيه، ووافق ما وهبه الله من ملكات وقدرات علمية، ووجد من نفسه استعداداً له ونهمة فيه.

وهذا يتبيّن لطالب العلم غالبا بعد اجتياز مرحلة التأسيس العلمي؛ فإنّه يعرف ما يحسنه هو من العلوم والمهارات، وما ينفعه الازدياد منه.

وهذان الأمران ينبني عليهما تنظيم خطّة القراءة واختيار طريقة جرد الكتب.

وطالب العلم إذا اعتنى ببناء أصله العلمي فإنه يعرف مواضع الحاجة لديه، والأبواب والمسائل التي لم يتقنها، فيختار من الكتب ما يتمّم به أصله، ويسدّ خلله، ويقوّي بناءَه العلمي.

وإذا سار على هذه الطريقة الراشدة في اختيار الكتب وتتميم أصله كانت قراءاته في كتب أهل العلم مدارجَ له إلى حسن التحصيل وجودة التأصيل.

وليحذر طالب العلم من الاغترار بتجارب الآخرين التي لا تناسبه؛ فيحمل نفسه على محاكاتها، أو الخوض فيها قبل التأهّل لها.

ومن اشتغل بما لا يحسن ولا قدرة له على إتقانه أضاع وقته وجهده في غير طائل، وقد قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجـــاوزه إلى مـا تستطيع

الوصية الثالثة: التفريق بين دراسة المسائل العلمية وجرد المطولات

ينبغي أن يفرّق طالب العلم بين مقام دراسة المسائل العلمية، ومقام جرد المطولات؛ ولكل مقام ما يقتضيه؛

فأمّا مقام دراسة المسائل العلمية وتفهّمها فهذا يكون بدراسة المختصرات والبحوث الخاصة.

وأما مقام جرد المطولات فينبغي أن يجمع فيه القارئ همّته على تحصيل مقاصد الجرد.

ومن كلّف نفسه دراسة الكتب المطولة كما تدرس المختصرات رمى بنفسه في ميادين واسعة لا يبلغها جريه، واقتضى الأمر منه السنين الطوال، والجهد الكبير على غير سداد؛ إلا أن يقتصر على كتاب أو كتابين يتخذهما أصولاً علمية يكرر قراءتها؛ فيحصل له بتكرار القراءة ضبط حسن.

الوصية الرابعة: العناية بتربية النفس على السلوك الحسن في القراءة

طالب العلم تعترضه فتن في طريقه لطلب العلم يُختبر بها صدقه، ومن ذلك ما يجده من الفتن في وقته، وما يعترضه من الشواغل والقواطع، فهو معها في صراع ومغالبة، ومن انتظر أن يتهيّأ له الحال ليقرأ ويجرد كتب أهل العلم أضاع كثيراً من وقته في هذا الانتظار.

ومما يغفل عنه كثير من طلاب العلم أنّ النفس تتعوّد ما عُوّدت عليه حتى في سلوكها في القراءة وطلب العلم، وإذا اعتادت على أمر حسن أو سيّء حتى يكون كالسجية لها شقّ عليها تركه والانتقال عنه إلا بمجاهدة ومصابرة.

والنفس لها تطلّعٌ غالب فهي تنازع صاحبها بكثرة تطلّعها، وهذا التطلّع إذا لم يوجّهه المرء إلى وجهته الصحيحة انحرف إلى الاشتغال بالقواطع والشواغل وأدنى ما يثير الانتباه.

ومن أخذ نفسه على القراءة بإقبالٍ وجمع همّة على الكتاب أفضى به الحال إلى أن يصل إلى مرتبة يقرأ فيها أضعاف ما كان يقرأ في ذلك المقدار من الوقت في أوّل الأمر؛ لأنّ النفس ترتاض لما يروّضها عليه صاحبها، وتكون لها مهارة فيه بكثرة المران، وطول المراس.

ومن كان كثير التوقف والتردد ذهب عليه وقته الذي جعله للقراءة ولم ينجز أكثر ما كان يريد إنجازه، بل ربما كان ما أنجزه أنجزه على ضعف ونقص، فأثّر عليه هذا السلوك في القَدرِ والكيفية.

ثمّ إن النفس إذا اعتادت كثرةَ الانقطاع شقّ عليها أن تواصل القراءة ساعة واحدة من غير انقطاع، بل ربما أقلّ من ذلك.

ومن تأمّل أخبار العلماء وجدهم يواصلون الساعات الطوال وهم في انهماك شديد في القراءة حتى إن منهم من يذهل عن طعامه وشرابه وكثير من شؤونه!!.

وأين تحصيل مَن هذا حاله من تحصيل كثير التوقف والتردد والاشتغال بأدنى عارض؟!!

واعلم أن وقتك الذي تجعله لقراءة الكتب جزء من حياتك الثمينة، وأن اشتغالك بالقراءة من أعظم ما تعمر به وقتك وتنير به حياتك، ولذلك فإنّه ينبغي لك أن تحذر ما يسرق وقتك، ويشتت ذهنك، ويُضعف همّتك من القواطع والشواغل التي يمكنك تأجيلها حتى تفرغ من وردك من القراءة.

واعتبر بحال مَن يجري في ميدان من الميادين وهمّته مجتمعة على مساره فإنه يقطع الشوطَ بأقلّ ما يمكنه من الجهد والوقت، بخلاف الذي يكثر الالتفات والتوقف والرجوع فإنه يضيع كثيراً من وقته وجهده في غير طائل، بل ربما سئمت نفسه وملّت.

الوصية الخامسة: العادة الحسنة تقطع بها المفاوز

من أمثل ما يستعان به في استثمار الوقت ونشاط النفس أن يكون للمرء عادة حسنة في القراءة كيفا وكماً، وأن يكون له وقت معلوم في اليوم والليلة لا يخلّ به ما استطاع؛ يخصصه للقراءة والجرد، وقد يجد مشقّة في أوّل الأمر ويعترضه ما يضطرب به انتظامه لكنّه إذا صبر وصابر رجي له أن يوفّق لعادة حسنة يلتزمها، وعمل يداوم عليه؛ فيحصل له ببركة المداومة خير كثير.

والنفس إذا ارتاضت للعوائد الحسنة سهلت عليها، وصارت كالجزء منها؛ بحيث إذا مرّ عليه يوم لم يؤدّ فيه ما اعتاده من العمل وجد فقده في نفسه.

ومن وصل إلى هذه المرتبة أمكنه أن يعرف ما ينجزه في يومه وليلته، وأخذ نفسه بما يصلح لها من العمل فيترقّى سريعاً.

وقد تأملت أحوال جماعة من العلماء فوجدت لهم عوائد حسنة يداومون عليها في عباداتهم وقراءاتهم وتعليمهم حتى إنهم ليؤدون أعمالاً كثيرة قد يرهق أحدنا نفسه ولا ينجز رُبعها، وهم يؤدونها على كبر في السنّ بجدّ ونشاط اعتادت عليه أنفسهم فلا يجدون له مشقة تحملهم على طلب الراحة منه.

فهذا أبو عبيد القاسم بن سلام (ت:٢٢٤هـ) وهو من أهل العلم الكبار له مؤلفات مباركة وكان كثير التصنيف عالم بالتفسير والقراءات والحديث والفقه واللغة وهو من أئمة أهل السنة.

قال عنه أبو بكر بن الأنباري: (كان أبو عبيد -رحمه الله- يقسم الليل أثلاثا؛ فيصلي ثلثه، وينام ثلثه، ويصنف الكتب ثلثه).

فجمع بين أداء حقّ الله وأداء حقّ النفس والاشتغال بالتصنيف والتعليم.

ولو أنّ طالب العلم أخذ نفسه بالمداومة ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم على جرد كتب أهل العلم لأمكنه أن يجرد في عام واحد كتباً كثيرة يغذي بها أصوله العلمية ويقويها ويجد فائدتها وبركتها بإذن الله تعالى.

والمقصود تنبيه طالب العلم إلى أن تربية النفس على عادة حسنة ومداومة على عمل تؤديه حتى يكون كالسجية لها خير من حملها على عمل شاقّ تؤديه بمغالبة ثم تنفر منه ولا تعود إليه إلا بمشقة ومجاهدة مرة أخرى.

مهارات جرد المطولات:

جرد المطولات من الأعمال العلمية التي يحتاج فيها طالب العلم إلى مهارات متنوّعة، تعين الجارد على حسن الجرد وتقرّب له فوائد الكتاب، وتحقيق مقاصده من جرده.

وبناء المهارات يكون شيئاً فشيئاً بالتكرار المتقن المتدرّج والمتنوّع، وترويض النفس حتى تكتسب المهارة، وقد تتيسّر له سريعاً إذا كان حسن الاستعداد الفطري

لها، وقد تحتاج نفسه إلى مزيد من التمرن والرياضة حتى تسهل عليها وتتقن قدراً مرضيا منها، ثم يتعاهدها بالصقل والتنمية،

وكثير من الأعمال التي يُحتاج فيها إلى مهارة عالية يجد المبتدئ فيها صعوبة في أوّل الأمر، فينبغي لطالب العلم أن لا يعوّقه ضعف البدايات وكثرة أخطائها عن السير لبلوغ كمال النهايات.

وسأدمج الحديث عن مهارات الجرد في شرح خطواته - بإذن الله تعالى - ليكون أيسر في تصوّر المراد بها.

شرح خطوات مقترحة لجرد المطولات:

إذا عزمت على جرد المطولات فإني أوصيك بوصايا أرجو أن تعينك على تيسير عمل الجرد وتحسين الاستفادة منه في بنائك العلمي.

أولاً: اختيار الكتاب المناسب

ومن الأمور المهمة التي ينبغي لطالب العلم أن يلاحظها عند اختيار كتاب للجرد:

١. أن يحرص على اختيار كتاب من الكتب النافعة القيّمة المأمونة، وأن يجتنب في أوّل مسيره الكتب التي تجمع الغثّ والسمين بلا تمييز، والكتب التي حذّر منها أهل العلم لانحراف أصحابها عن منهج أهل السنة والجماعة، وإن كان فيها بعض ما ينتفع به العارف البصير الذي يميّز صوابهم من خطئهم.

وسبب هذا التحذير أن طالب العلم في أوّل الأمر ينبغي أن يصرف عنايته للكتب التي عُرف أصحابها بالإمامة في ذلك العلم، وتلقّاها العلماء بالقبول فنهلوا منها، ووصّوا بها، حتى يستفيد منها في تغذية بنائه العلمي وتقويته؛ حتى إذا تقدّم في جرد الكتب، واشتدّ عوده فيه، وأضحى لديه أصل علمي متين وفرقان يميز به

الحقّ من الباطل، والفاضل من المفضول، والسمين من الغثّ، وكانت له بصيرة بمنهج أهل السنة ومسارب مخالفيهم أمكنه أن يقرأ في الكتب التي فيها نفع ظاهر وعليها مؤاخذات نبّه على بعضها أهل العلم؛ فيأخذ منها ما ينتفع به.

٢. أن يختار كتاباً موافقاً لمستواه العلمي؛ فلا يشرع في كتب صعبة المراس في أوّل الأمر وإن كانت من الكتب التي عرف أصحابها بالإمامة والتقدّم في العلم، ذلك أن بعض تلك الكتب تستدعي من طالب العلم إلماماً حسناً بأصول ذلك العلم ومناهج المؤلفين فيه، ومواضع الإجماع والخلاف فيه، وأن يترقى بقراءة عدد من الكتب حتى إذا قرأ ذلك الكتاب قرأه على حال يتيسّر له فهمه، وسبر غوره، ويحسن انتفاعه به.

٣. أن يكون الكتاب الذي اختاره من مظانّ تحقيق الغرض على وجه التحديد؛ وأن لا يغترّ بشهرة كتاب في علم من العلوم فيجرده لغرض من الأغراض التي يكون لدى المؤلف فيها ضعف وتقصير، وإن كان مجيداً في فنّه الذي ألّف الكتاب من أجله.

ومن الأمثلة التي توضح المقصود:

- إذا أردت أن تجرد المسائل التي لاختلاف القراءات فيها أثر على التفسير؛ فلا تأخذ نسبة القراءات من التفاسير التي لا يعدّ أصحابها من القرّاء؛ ففي تلك التفاسير أخطاء معلومة في نسبة القراءات.

- وإذا أردت أن تجرد المعاني اللغوية للألفاظ العقدية فلا تعمد إلى المعاجم التي عرف عن أصحابها انتحالهم لمذاهب بدعية.

٤. أن ينتقي أجود أجود الطبعات ما أمكنه، وذلك لما يكون بين الطبعات من التفاوت الظاهر الذي يصل إلى درجة سقط بعض الصفحات وكثرة التحريف والتصحيف في بعضها، وقد يحتاج في بعض الكتب إلى الجمع بين طبعات عدة.

٥. أن يحرص على التكامل العلمي فيما يحتاج إليه، حتى يكون نموّ أصوله العلمية متوازناً؛ فلا يكون كالمتعمّق في بعض الأبواب على ضعف شديد في أبواب أخرى تمسّ إليها الحاجة.

ثانياً: تعيين الغرض من الجرد

إذا أردت أن تجرد كتاباً من الكتب المطولة فليكن غرضك من الجرد واضحاً؛ حتى إذا أتممت قراءة الكتاب خرجت بفائدة يُعتدّ بها، ويُبنى عليها، ويكون لها أثرها في تنمية أصولك العلمية.

وأما القراءة المجردة من غير غرض بيّن يحصل به نفع ظاهر فلا أوصي بها لأنها تشغل طالب العلم عما هو أنفع له من الدراسة والقراءة المنظمة، ويذهب كثير من وقته في غير ضبط ولا إتقان، ولا استخراجٍ لعمل نافع يضيفه إلى أصوله العلمية.

وقد مضت الإشارة إلى أمثلة نافعة لأغراض الجرد.

ثالثاً: استكشاف مباحث الكتاب ومعرفة مقداره

وهذا الاستكشاف مهمّ لأخذ التصور الأولي الشامل عن الكتاب والمواضع المهمة فيه، وهو بمثابة التهيئة النفسية لقراءة الكتاب والإعداد لوضع الخطة المناسبة للجرد.

وجرد الكتب المطولّة شبيه بسباقات الجري الطويلة التي تسمّى (الماراثون) من أجهد نفسه في الجري في أوّل السباق ضعف عن مواصلة السباق، وأصابه الإنهاك.

ولذلك فإنّ من يقرأ الكتاب من أوّله بتركيز عالٍ ربما أنهك نفسه قبل أن يصل إلى المواضع التي يحتاج فيها إلى التركيز العالي؛ فيقرأها على عجل لما أصابه من الإنهاك والتبرم من الجدّ.

رابعاً: وضع خطة الجرد

وهذه الخطة ينبغي أن تتضمن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: تقسيم الكتاب إلى مقادير معينة يكون كلّ مقدار منها مما يمكنه أن يتمّه في جلسة واحدة.

والأمر الثاني: أن يكون للخطة جدول زمني يجتهد في الانتظام فيه حتى يتمّ الجرد في الوقت المحدد.

والأمر الثالث: أن تكون طريقة الجرد معينة على تحقيق الغرض، وهذه الطرق تختلف باختلاف الأغراض وتباين أحوال القراء وما يناسبهم.

خامساً: ملاحظة جوانب القوة العلمية لدى الكاتب

وهو من الأمور المهمّة التي لها أثر كبير في تنمية مهارات القارئ، وإعانته على الاستفادة مما يحسنه الكاتب، بل ربما احتاج إلى إضافة بعض مؤلفاته الأخرى إلى خطة الجرد.

وقد سبق الحديث عن الوسائل المعينة على تعرّف جوانب القوة العلمية.

سادساً: استكشاف الأفكار المهمة وتقييدها

وهذا الأمر من أعظم ثمرات الجرد لمن وُفّق إليه، بل ربما كانت فائدة بعض تلك الأفكار أعظم من الغرَض الذي أراد جرد الكتاب من أجله، فقد يقف على أمنيات لبعض أهل العلم يجد في نفسه قدرة على تحقيقها، وقد يقف على حاجة إلى التأليف في باب من الأبواب، أو تكميل تأليف سابق، أو غير ذلك من الأفكار التي قد تكون فكرة واحدة منها يشتغل بها طالب العلم ويسدّ حاجة الأمة فيها خير له من كثير من الأعمال.

ومن اجتهد في تدوين الأفكار الحسنة رُجي له أن يوفّق للقيام ببعضها والدلالة على بعضها فيكون له مثل أجر فاعلها.

وتلك الأفكار سيجد لها طالب العلم روافد ترفدها في المطولات، ومن عني بهذا الأمر وأخذ من تلك الأفكار بما يناسبه كان حريا بالنبوغ المبكّر وانصراف الهمّة إلى ما يحسنه.

سابعاً: تدوين المهمّ من المسائل والفوائد العلمية والإشكالات

فأما تدوين المهمّ من المسائل والفوائد العلمية فهو لأجل حفظها والانتفاع بها.

وأمّا تدوين الإشكالات فلأجل أن يُعمل الذهن في حلّها، وسؤال أهل العلم عمّا أعياه منها؛ حتى يستفيد من طريقتهم في نظائر ذلك الإشكال، وربّما دوّن طالب العلم إشكالاً ثمّ وجد بمواصلة الجرد ما يجيب على ذلك الإشكال.

وهذه الأمور هي بمثابة المحفّزات الذهنية لمواصلة القراءة وضبط المسائل وتثبيت المعلومات.

تنبيهات ومحاذير:

وفي ختام الحديث عن جرد المطولات هذه تنبيهات أودّ من طلاب العلم أن يعتنوا بها:

التنبيه الأول: التحذير من الاشتغال بالمطولات قبل ضبط المختصرات

فالعلم إنما يؤخذ بالتدرج، ومَن تقحّم المطولات وهو لم يضبط أصول العلم، فقد عرّض نفسه لمزالق ورمى بها في مخاطر، وقد سبق الحديث عن هذا الأمر.

وهذا لا يقتضي أن يحرم طالب العلم نفسه من جميع المطولات طيلة فترة اشتغاله بضبط المختصرات، بل يمكن أن يقرأ - بقدرٍ - في المطولات المأمونة التي تمتاز بوضوح الأسلوب؛ إذا كان ذا فهم حسن وفطنة.

التنبيه الثاني: أن جرد المطولات لا يغني عن دراسة المسائل العلمية

من الخطأ البيّن ما يتصوره بعض الطلاب المبتدئين والمشتغلين بالقراءة من أن أحدهم إذا قرأ خمسة تفاسير أو سبعة أو أكثر من ذلك من التفاسير المطولة فإنه سيكون مفسّرا حاذقاً.

وسبب الخطأ أن كثيراً من مسائل التفسير يحتاج العالم وطالب العلم إلى دراستها على يقتضيه نوع تلك المسألة، وهذا إنما يعرفه من أتقن أصول التفسير؛ فدراسة مسائل التفسير اللغوي ومراجع بحثه يختلف عن دراسة مسائل أحكام القرآن ومراجع بحثها، وهكذا في سائر أنواع المسائل العلمية المتعلقة بالتفسير؛ فلكل مسألة أصولها ومراجع بحثها ومصادرها الأصلية التي تُحصّل منها أقوالها، وبحث المسألة الواحدة من مسائل الخلاف في كل نوع من هذه الأنواع لا يكفى فيه هذا العدد من التفاسير؛ بل يحتاج الباحث فيه إلى مراجعة كتب أخرى مهمة غير كتب التفسير.

وكذلك يقال في مسائل علوم الحديث والفقه والاعتقاد والتاريخ وغيرها.

لكن من النافع لطالب العلم أن يكون له أصل علمي في ذلك العلم ثم يجرد كتاباً من الكتب المهمة فيه ويضيف إلى أصله ما يخرج به من قراءة ذلك الكتاب من الفوائد المتعلقة بتحقيق مقصد صالح من مقاصد الجرد.

التنبيه الثالث: احذر الموازنات الجائرة

من طلاب العلم من يوازن نفسه وهو في بداية طريقه في جرد المطولات بكبار القراء من العلماء الذين أمضوا سنوات طويلة في الجرد والقراءة والتحصيل، وتمرّنت عليه نفوسهم، ولهم أصول علمية كبيرة، فيقرأ عن بعضهم أنه ربما قرأ المجلد في جلسة واحدة؛ ثم يحاول أن يحاكيهم وليس له مثل أصولهم ولا تمرّسهم ولا مخزونهم المعرفي، ولا اعتيادهم على نمط جادّ في القراءة؛ فإذا رأى أنّه لم يطق ما أطاقوه رجع على نفسه بالحسرة والملامة، بل ربما انقطع عن الجرد.

وهو بمطالبته نفسه أن يحاكي هؤلاء القراء الكبار كمن يطالب الصبي الصغير بمجاراة كبار العدّائين في السباق.

وهذه الآفة من أسباب الحرمان، ولو أنّه نظر بعين البصيرة إلى حالهم في البدايات لوجدها مقاربة لحاله، فإن سار على طريقهم، وانتهج نهجهم، وصبر مثل صبرهم كان حقيقاً بأن يصل إلى مرتبتهم في القراءة والتحصيل أو قريب منها.

التنبيه الرابع: الاغترار بالذاكرة السريعة والفهم الأولي

من يقرأ المطولات يقف على درر مكنونة من العلم، وتظهر له أفكار حسنة قيّمة في البحث العلمي، ولبعضها أثر في تحسين خطته العلمية في القراءة والدراسة، فمن غفل عن تدوين هذه الفوائد القيمة، والأفكار الحسنة اغتراراً منه بذاكرته لم يأمن عليها النسيان والتفلت حتى ربما أتى عليه وقت يجتهد في تذكّرها وطلبها ثم لا يهتدي لها.

وكان من العلماء من إذا خطرت له خاطرة فيها فائدة علمية يقوم من فراشه ويوقد السراج ويدوّن الفائدة خشية نسيانها، وقد نقل هذا عن الشافعي والبخاري وغيرهما من كبار الحفاظ.

ومن العوائد الحسنة أن يجعل القارئ لنفسه دفتراً أو ملفاً إلكترونيا يدوّن فيه تلك الفوائد والأفكار، حتى يكون له موضع واحد يتعاهده بالنظر والإضافة، ولا بأس أن يدونه أولا في آخر الكتاب لكن ليحذر من إغفاله بعد ذلك، والأولى أن ينقله إلى دفتر فوائده أو الملف الإلكتروني المخصص، فقد جُرّب أنّ الفوائد التي تدون على أواخر الكتب لا يكاد يرجع إليها القارئ إلا نادراً، فيضعف تعاهد تلك الفوائد والأفكار وإعمال الذهن فيها.

التنبيه الخامس: التحذير من الغفلة عن مقاصد الجرد وتنمية الأصول العلمية

جرد المطولات من أهمّ ما تُنمّى به الأصول العلمية، وكثير من العلماء لم يبلغوا مرتبة التحقيق في العلم إلا بعد جرد المطولات جرداً حسناً، ولذلك ينبغي أن يحذر طالب العلم من الغفلة عن مقاصد الجرد وتنمية الأصول العلمية به، فيشتغل باستطرادات الكتاب ولطائفه حتى يغفل عن المقصد الذي قرأ الكتاب لأجله، وهذه الآفة سببها غلبة حب الاستطلاع، والاسترسال مع النفس في ما يستأثر بعنايتها، ولو كان في غير مقصده الأصلي.

واستطلاع طالب العلم ينبغي أن يكون موجَّها بما يرجو أن يحقق له أعلى المصالح، وأن يقدّم العناية بتحقيق المقصد على ما سواه، فإنّه متى صرف عنايته إلى تحقيق المقاصد أمكنه أن يسير في خطّته العلمية حتى يتقدّم بها تقدّما كبيراً بإذن الله تعالى.

وإذا اشتغل بملح العلم عن أصوله أضاع كثيراً من جهده ووقته في غير البناء الذي يُعتمد عليه في تحصيله العلمي، وإن كان في ظاهر الحال مشتغلا بقراءة الكتب.

خاتمة الباب:

كنت أودّ وضع أمثلة وتطبيقات يؤديها دارسو هذا الكتاب لبعض أعمال الجرد وتُصحَّح لهم، لكن خشيت أن يطول أمد دراسة هذا الكتاب، ولأجل أن لا تفوت الفائدة كلياً سأضع تطبيقات ميسّرة يؤديها من يشاء من الدارسين للفائدة الشخصية حتى يتمرّن على أعمال الجرد ويؤدي بعضها، على كتب تشبه المطولات، وليست معدودة منها، ثم ينطلق بعد ذلك في جرد المطولات على خطة علمية ملائمة له.

التطبيق الأول: اجرد كتاب "فضائل القرآن" للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام لتستخرج منه ما يتعلق بآداب تلاوة القرآن.

التطبيق الثاني: اجرد كتاب "السنة" للإمام محمد بن نصر المروزي لتستخرج منه ما يتعلق بدلائل حجية السنة وكشف شبهات الطاعنين في حجيتها.

التطبيق الثالث: اجرد كتاب "تاريخ المدينة" لعمر بن شبة لتستخرج منه ما يتعلق بجمع القرآن.



الباب الحادي عشر: نقد القراءة السريعة

القراءة السريعة مع حسن الفهم وجودة الاستيعاب مطلب مهمّ لكثير من القراء، لكنّه من المطالب التي إذا اشتغل بها القارئ قبل حينها، واستعملها في غير مجالها كان لها أثر عكسي عليه؛ فأضعفت تحصيله العلمي من حيث أراد تقويته، وأكسبته سوء الفهم من حيث أراد إحسانه.

وبيان ذلك: أنّ طالب العلم في أوّل طلبه للعلم تكون حاجته إلى فهم المسائل العلمية وضبطها أشدّ، ليؤسس التصور الصحيح للمسائل العلمية، بما يعينه على إدراك متطلبات كلّ مسألة وفهم متعلقاتها، وإذا قرأ الكتاب الذي ينبغي له أن يحسن دراسته قراءة سريعة فوّت على نفسه إحسان فهم تلك المسائل غالباً، وخرج بتصور ضعيف ناقص، وربما اشتمل فهمه على جملة من الأخطاء التي لم يجعل لنفسه فرصة كافية لاكتشافها وتصحيحها، حتى يستفيد منها في نظائرها، وربما عوّد نفسه بتلك القراءة السريعة الاكتفاءَ بأخذ تصور سريع ناقص عن المسائل العلمية.

وإذا سار طالب العلم على هذه الطريقة كان تحصيله العلمي ضعيفاً هشاً غير مؤصّل ولا مترابط.

وعلى خلاف ما يظنّ كثير من الناس بأنّ الأناة في القراءة والدرس والعناية بضبط المختصرات تؤدي إلى التأخّر فإنّ المجرّب أنها من أسباب اختصار الوقت وتأهيل طالب العلم لمرحلة يُحسن فيها القراءة السريعة بمهارة يجمع فيها بين السرعة والضبط.

وقد يحتاج القارئ في بعض المواضع إلى التوقّف والنظر والتأمّل، وقد يعرض له في مواضع من الكتب ما يشكل وما يستغلق، لكنّه على وجه العموم يقرأ الكتاب قراءة سريعة حسنة إذا أتى الأمر من بابه، وتدرّج في مدارجه الصحيحة.

بيان خطر القراءة السريعة على المبتدئين:

القراءة السريعة في كتب أهل العلم خطر على المبتدئين لأنها مظنة الفهم الخاطئ وقصور النظر، وإكلال الذهن عن سبر غور المسائل العلمية؛ فتجد القارئ العجول يريد أن يحصل النتيجة السريعة كيفما اتفق له، فيقع له بذلك من الخلط والخطأ في التصور وضعف البناء العلمي ما يكون له أثر سيّء عليه.

وأخطر من ذلك أن يعتاد دراسة المسائل العلمية بهذه الطريقة؛ فيعوّد نفسَه السطحية في القراءة، والاستعجال في التصور، والإعراض عن متعلقات المسائل العلمية، وينفّرها من الدراسة المؤصّلة والتكرار والمراجعة، فيضعف تعاهده للمسائل العلمية على ضعفه في تحصيلها أصلاً؛ فيُضيع شطراً من عمره في ضعف على ضعف، أو يترقّى من جاهل بسيط إلى جاهل مركّب، ولا سيّما إذا صاحب تلك العجلة في القراءة اعتداد بالرأي وزهو في النفس واستعجال للتصدّر.

ومن الأخطاء التي لها أثر سيء على نفس طالب العلم أن يقايس نفسه بكبار القراء وهو ما يزال في أول الطريق؛ فتحمله نفسه على مجاراتهم من غير أن يتدرج في القراءة كما تدرجوا، ولا أن يتدرب كما تدربوا؛ فإذا رأى عجزه عن مجاراتهم، وتخلفه عن مراتبهم عاد على نفسه بالحسرات، بل ربما أيس وانقطع عن القراءة وطلب العلم.

وليعلم طالب العلم أنه لا يختصر على نفسه الجهد والوقت في الوصول لغايته بمثل إتقان الدراسة وضبط المختصرات على طريقة أهل العلم، والمداومة على ما يتيسّر له من التحصيل اليومي ولو كان قليلا.

وليتفطّن إلى أنّ المهارات العلمية لا بدّ فيها من تدرّج طبيعي، ومداومة على التمرين بما تطيقه النفس، والصبر على التكرار، واحتمال الخطأ والضعف في أول المشوار؛ حتى يشتدّ عوده فيها، ويعود صعبها سهلاً، وطويل شوطها قصيراً.

التحذير من المغالطات في شأن القراءة السريعة:

مما شاع في هذا العصر الدعوة للقراءة السريعة، وتأليف الكتب فيها، وقد تأمّلت بعض تلك الكتب مما هو مترجم أو مأخوذ من كتب أجنبية فوجدت مجال القراءة السريعة فيها غير المجالات التي يقرأ فيها طلاب العلم. وعامّة تلك الكتب تجارية تستند على محاولة إبهار القارئ وإدهاشه بما يجذبه ولا يمكنه تحقيقه، وفيها من المبالغات وتعميم الحالات الفردية شيء كثير.

ومن المغالطات في تلك الكتب ما يضرّ بمن انخدع بها، كدعوى بعضهم أنّ فلانا من أصحاب المناصب يقرأ ألفي كلمة في الدقيقة!! أو ثلاثة آلاف كلمة؛ فيظنّ أنه يقرأ كتباً علمية بهذه السرعة، وهم إنما يريدون أنه يقرأ تقارير إدارية قد يكون على علم مسبق بكثير مما اشتملت عليه؛ فلا يحتاج إلى قراءة تلك التقارير جملة جملة.

وكدعوى بعضهم أنّ فلاناً يقرأ بطريقة x أو s فيستوعب ما يقرأ بسرعة مذهلة، ونحو ذلك من الترّهات، التي يعلم اللبيب أنّ الغرض منها إنما هو إبهار القارئ وإغرائه باقتناء الكتاب والترويج له.

وفي بعض تلك الكتب مع ذلك توصيات حسنة، وتنبيهات على بعض الأخطاء الشائعة في القراءة، وهذا هو القدر المفيد منها، لكن طالب العلم والمعرفة الصحيحة بحاجة إلى تبصيره بما ينفعه، وإرشاده لما يحسّن به قراءته من غير مبالغة ولا تهويل، ولا مغالطته بمقاييس غير مطّردة ولا صحيحة.

وتلك الكتب على ما فيها من المبالغة الظاهرة يكتنفها أمران:

أحدهما: أن تلك الكتب المؤلفة في القراءة السريعة موجهة في الأصل لغير طلاب العلم، وينتقي أصحابها أمثلتها بما لا يلائم حال طالب العلم مع كتب العلماء، فلا تتماثل قراءة كتاب دراسي بقراءة تقارير إدارية، ومقالات صحفية.

والأمر الآخر: أنّ القراءة في الكتب الأجنبية تختلف قوانينها عن القراءة في الكتب العربية، ولا سيما كتب أهل العلم.

فنظام الكتابة في الكتب الأجنبية يسهّل على القارئ سرعة القراءة؛ لأن الكاتب غالبا ما يقسّم أفكار المقالة أو الفصل من الكتاب إلى فقرات يناقش في كلّ فقرة منها فكرة واحدة، يذكر خلاصتها في أوّل الفقرة؛ فمن أراد أن يسرع في القراءة يمكنه أن يكتفي بقراءة أوائل الفقرات ليستوعب فكرة كلّ فقرة إن كان صاحب فطنة وذكاء.

وكتب أهل العلم قد تجد السطر الواحد منها يشتمل على مسألتين أو ثلاث، ولا سيما المختصرات في التفسير والعقيدة والفقه.

وهذا التحكم في انتقاء الأمثلة واختلاف مجال التطبيق قد لا يتفطن له القارئ المبتدئ؛ فينخدع بتلك المغالطات، ويحاول أن يقرأ كتب أهل العلم كما تُقرأ التقارير الإدارية والمقالات الصحفية.

الطرق العلمية الصحيحة لتسريع القراءة:

لتسريع القراءة مع العناية بالفهم والاستيعاب طرق علمية صحيحة تلائم طلاب العلم، ومنها:

١. أن يتدرّج في دراسة مختصرات في علم من العلوم؛ حتى يكون على معرفة حسنة بعامّة مسائله؛ ثمّ ينظّم قراءته في كتب ذلك العلم؛ فسيجد من نفسه قدرة على تسريع القراءة مع حسن الفهم بإذن الله تعالى.

وسبب ذلك أن كثيراً مما في تلك الكتب قد أصبح لديه مخزون معرفي سابق لقدر منها، **يفيده هذا المخزون المعرفي في جانبين لهما أثر في تسريع القراءة:**

الجانب الأول: تسريع تصور فهم المسائل العلمية، فليس حال من يقرأ كلاماً لأوّل مرة يطرق سمعه كحال من لديه معرفة بقدر منه.

والجانب الآخر: أن تنوّع تناول العلماء لتلك المسائل وما يقع في كلامهم من الزيادات والتفصيل يحفّزه ذهنه للتركيز، لأنّ الذهن له اشتغال سابق بتلك المسائل فلما يقرأ من كلام له صلة بزيادة تفصيل أو تنبيه على أمر متعلق بتلك المسألة، أو تفسير لأمر كان مشكلاً عليه، كلّ ذلك مما يحفّز الذهن لإدراك ما يقرأ مع ما يشعر به من المتعة والانهماك في القراءة وسرعتها حتى يقرأ كثيراً في وقت وجيز.

٢. أن يقرأ مَن كان له تحصيلٌ علمي لا بأس به كتباً متعددة لعالمٍ من العلماء؛ ولا سيما المكثرين منهم؛ ومن كان له عناية بعلم من العلوم؛ فيجد أن مؤلفاته تتكامل، ويعتاد لغته العلمية وأسلوبه في عرض المعلومات، فيختصر ذلك عليه كثيراً من الأعمال الذهنية في القراءة لما يقع بين تلك الكتب من التشارك في المادة العلمية وموارد الاستمداد وأساليب المعالجة وطرق العرض، ولذلك ترى من له عناية بكتب عالم من العلماء يميّز بين ما يصحّ عنه وما هو منحول عليه؛ لخبرته بتلك الأمور في كتبه.

والمقصود أن تحصيل الخبرة في كتب عالم من العلماء تعين على تسريع القراءة في كتبه وما يتعلق بها.

٣. أن يقرأ قراءة منظمة يعتني فيها بتصحيح سلوكه في القراءة؛ من حيث جمع النفس على القراءة، واختيار ما يناسب مستواه العلمي، والعناية بالمقاصد، وتكامل المعارف، فإنه إذا رُزق مع هذا فطنة وذكاء تمرّنت نفسه على سرعة القراءة بمهارة يراعي فيها حسن الفهم والاستيعاب.

فيصل إلى مرتبة القراءة السريعة المتقنة بعد سنوات من المداومة على القراءة الصحيحة، وثراء المخزون المعرفي.

٤. أن يكرر قراءة الكتاب الذي فهمه لغرض تعاهد مسائله حتى لا ينساها، وكان من شأن جماعات من أهل العلم تكرار قراءة بعض الكتب، بل ربما قرأ بعضهم بعض الكتب المطولة عشرات المرات، ومن كان هذا شأنه فإنّ قراءاته الأخيرة ليست كقراءاته الأولى؛ لأنّ الأولى قراءة تأسيس، والأخريات قراءة تعاهد؛ فيمكنه أن يقرأ المجلد قراءة تعاهد في جلسة واحدة من غير مشقّة، بل ربّما سُئل عن دقائق في الكتاب فأجاب باستظهار حسن.

تجربة خاصّة:

كنت قبل أكثر من عقدين من الزمان أقرأ في بعض الكتب المترجمة في مهارات القراءة السريعة وتنمية الاستيعاب لأحاول اختصار الوقت والجهد في قراءة كتب أهل العلم، واجتهدت في تطبيق ما وقفت عليه فلم أر أثراً يُذكر، وقدّمت العناية بتفهّم المسائل العلمية، ولو مكثت في المسألة الواحدة أياماً؛ فانتفعت بالدراسة وتفهّم المسائل العلمية أكثر من انتفاعي بمحاولة تسريع القراءة في ذلك الوقت.

وعرضت كتاباً من الكتب التي اشتغلت بإعدادها لنفسي على رجل من أهل العلم كنت أعرفه بسعة الاطلاع وكثرة القراءة؛ فأخذ يقرأ الكتاب أمامي لا يكاد يمكث في الصفحة الواحدة إلا أقل من دقيقة فيقلبها إلى غيرها، ويعلّق تعليقات تدلّ على فهمه وإدراكه، وقرأ صفحات وهو في ذلك الموقف فجعلت أتعجب من سرعة قراءته، وكنت أحسب لنفسي نحو ثلاث دقائق في قراءة الصفحة الواحدة.

فلما رآني أتعجب؛ قال: لو رأيت قراءة الشيخ بكر أبو زيد لكان تعجبك أشدّ؛ كانت قراءته أسرع من قراءتي بمراحل!!

فلما عدت إلى البيت اجتهدت في محاكاته فلم أقدر؛ فكنت إذا أسرعت في القراءة فات عليّ بعض ما في الصفحة واختلط علي الأمر واضطرب نظام الكتاب حتى أعود لأقرأ وأتفهم؛ ثم رأيت أن انصراف الهمة إلى تسريع القراءة يشغل حيزاً من التفكير ويُضعف الإدراك؛ فيؤثّر ذلك في الفهم وسرعة التصور.

وهم كانوا يقرءون على سجيتهم دون تكلف؛ ويفهمون ويناقشون ويستدركون!!

فأيقنت أنّ لسرعتهم في القراءة أسباباً تخفى عليّ.

ثمّ رأيت من الشيخ بكر أبو زيد بعد ذلك من سرعة القراءة ما صدّق عندي خبر ذلك الرجل.

وبقي أمر سرعة القراءة في ذهني أتأمّل أسبابه وأتعرّف طرقه؛ حتى أيقنت أنّ **لأهل العلم أسباباً تساعدهم على تسريع القراءة:**

أولها: الاستعداد الفطري؛ فإن الموصوفين بالسرعة العالية في القراءة مع جودة الفهم كانوا أفذاذاً منهم.

وثانيها: المخزون المعرفي الكبير؛ وقد تبيّن لي فرط جهلي إذ كنت أحاول محاكاتهم وليس لي مثل سعة علمهم، ولا طول تمرّنهم.

وثالثها: كثرة ممارسة القراءة، وترويض النفس على نمط جادّ في القراءة.

ورابعها: خبرتهم بمسالك المسائل العلمية ومناهج مؤلفيها وموارد استمدادهم وأدواتهم العلمية في معالجة تلك المسائل وأساليبهم في العرض؛ وهذه المعارف لها أثر كبير في تسريع القراءة، ومن أهل العلم من يرمز لها برموز أو يسمي بعضها بمصطلحات يدركها أهل العلم في ثوان معدودة، ويحتاج المبتدئون إلى شرح كثير وجهد كبير لمحاولة فهمها.

ولذلك لا يستغرب إذا قرأ أحد أولئك القراء الكبار أوّل كلام عالم من العلماء في مسألة من المسائل فيتصور مجمل كلامه في تلك المسألة وهو لم يقرأها من قبل،

وسبب ذلك: أنه بهذه المعارف المتقدم ذكرها، وخبرته بطريقة المؤلف فيها سهل عليه تحصيل هذا التصور الذهني السريع؛ بل ربما استدرك عليه، ونقده في بعضها، فحصلت له القراءة السريعة من غير كدّ ذهنيّ ولا تكلّف.

وهذا أمر لا يختصّ بالقراءة؛ بل كلّ من كان له خبرة في أمر من الأمور فإنه قد يعرف من مباديها ما يبصّره بنهايتها.

والمقصود التنبيه إلى أنّ القراءة السريعة مطلب مهمّ لكن من الخطأ أن تُطلب من غير طريقها الصحيح.



الباب الثاني عشر: توصيات وتنبيهات

هذا الباب هو خاتمة أبواب هذا الكتاب وسأذكر فيه جملة من التوصيات والتنبيهات لما فاتني ذكره في الأبواب السابقة ليكون كالتتميم لفوائدها، والجواب على ما وردني من أسئلة الدارسين.

الوصية الأولى: التذكير بأن القراءة لتعلّم العلم الشرعي عبادة:

وهذا الأمر إنما كررت التنبيه عليه لأجل حاجة طالب العلم إلى احتساب وقته وجهده في قراءة كتب العلم، وليعلم أن الشيطان يشتدّ كيده على من سلك سبيلاً يحبّه الله ويرضاه ليصرفه عن سبيل نجاته ورفعته، وهذه القضية إذا كانت حاضرة في ذهن طالب العلم أعانته على دفع كثير من الآفات التي تحول بين القراء وبين الانتفاع من قراءتهم، وربّ قارئين متجاورين بينهما كما بين السماء والأرض من الفضل وتفاوت المراتب؛ فالأوّل متعبّد لله بقراءته، مجاهد لنفسه، يحرّك قلبه بما يقرأ، متطلّع لما يقرّبه إلى الله، والآخر في غفلات عن هذه العبادات، بل مبتلى بآفات من الكبائر الباطنة كالعجب والحسد والبغي.

فأوصي نفسي وإخواني من طلاب العلم بمعرفة قدر ما أنعم الله علينا من نعمة الأبصار والأفئدة والقراءة والكتابة وأن نجتهد في شكر تلك النعم بصرفها فيما يقرّب إلى الله تعالى، وأن نحذر كلّ الحذر من اتّباع خطوات الشيطان والقراءة فيما يضرّ ولا ينفع، فأدنى ما يصيب العبد منها ذهاب الوقت في غير نفع، وشتات القلب، وتشويش الذهن، ومزاحمة الأعمال الفاضلة وإضعاف ثمرتها.

الوصية الثانية: التحذير من تثبيط المثبطين عن القراءة في كتب أهل العلم:

احذر تثبيط المثبطين وتعويق والمعوّقين عن القراءة في كتب أهل العلم، وما تنفث به أفواههم من سموم تفتك بالهِمَم، وتوهن العزائم، وتزهّد بالفاضل وتولع بالواهي والمفضول، وليكن لك حصن حصين من اليقين بنفع القراءة في كتب العلماء، والبصيرة بفضلها، والاتساء بأهل العلم والإيمان في دراستهم وقراءتهم، وانتهج نهجهم، واتّبع سبيلهم.

واعتبر بحال المخدوعين بتلك المثبطات؛ وكيف صرفتهم عن سبيل رفعتهم حتى جرفتهم إلى جرف هار فانهار بهم إلى درك الحرمان والشقاء؛ فكم من مخدوع بتزيين علم ضارّ حتى فتن به وصار هلاكُه بسببه، وكم من مخدوع بالتثبيط عن القراءة النافعة مسترسل مع النفس في تسويفها حتى فترت عزيمته، وسفلت همّته، وغُبِنَ في زهرة عمره وريعان شبابه، وعاد عاميّا بعد أن كان معدوداً من طلاب العلم.

والتثبيط له دركات وألوان وقد يصدر من أصناف من الناس منهم ضعيف المعرفة على ما لديه من محبة الخير، ومنهم المتعالم، ومنهم الحاسد، ومنهم صاحب الهوى المفتون.

ومن أدقّ أنواع التثبيط وأشدّها ضرراً - من حيث لا يحتسب كثيرٌ من القراء - تقديمُ القراءة في كتب مُلَح العلم وكتب المخلّطين والمتعالمين والكتب المترجمة والروايات والكتب الفكرية وقنوات التواصل والاغترار بزخارف ألفاظها، ولمعان بوارقها؛ حتى يصرف لها سَنَام الوقت وذروة النشاط فلا يبقى لكتب العلماء المشتملة على متين العلم إلا فضول الوقت والجهد؛ فيقرأها على حال ضعف وفتور فلا يجد لقراءته فيها أثراً يذكر لغلبة تلك الكتب على قلبه واستئثارها بعنايته؛ بل ربما فتن بها؛ فانحرف عن طلب العلم.

الوصية الثالثة: لا تكن كالسجين في مرحلة المبتدئين:

مرحلة الابتداء في كلّ علم مرحلة عسرة على النفس مع سهولتها في حقيقة الأمر، ذلك أنّ المبتدئ يجاهد نفسه لسلوك السبيل الأمثل لطلب العلم والقراءة في كتب العلماء، ودراسة المسائل العلمية؛ فإذا جاهد نفسه وصبر رجي له أن ييسّر الله له سبيلاً يحصّل به علماً غزيراً مباركاً، ويجتاز مرحلة المبتدئين في مدّة يسيرة.

وإني وإن كنت قد كررت في هذه الأبواب وغيرها تحذير المبتدئين من جملة من الأمور؛ فإني لم أقصد أن يحبس طالب العلم نفسه في هذه المرحلة سنين طويلة، وإنما أردت له أن يجمع همّته على ما هو أنفع له حتى يتمّ هذه المرحلة في مدّة وجيزة.

والمعروف المشاهَد أنّ طالب العلم إذا داوم على الدراسة بانتظام وإتقان كَفَتْه أشهر يسيرة في بعض العلوم لاجتياز مرحلة المبتدئين فيها، والعلوم الموصوفة بالطول كالفقه والتفسير قد يكفيه فيها نحو عامين من المداومة على الدراسة.

ويُعرف اجتياز مرحلة الابتداء بضبط مختصر جامع لمسائل العلم، ومعرفة مواضع الإجماع والخلاف فيه، ومعرفة أئمة ذلك العلم ومراتب الكتب المؤلفة فيه؛ فهذه ثلاثة معالم تدور عليها العلوم.

وبعض العلوم ليس لها مختصر جامع فيدرس الطالب فيها عدداً من المختصرات تقوم مقام المختصر الجامع، وهذا ظاهر في علم العقيدة وعلم السلوك وعلوم اللغة.

ومن تأمّل أحوال العلماء المتقدّمين وجد عنايتهم بهذا الأمر ظاهرة بل كان أكثر ساعات أيامهم تذهب في الدراسة والحفظ والمراجعة، ولذلك كانوا يتمون كتباً كثيرة في مدد يسيرة:

- فهذا النووي رحمه الله قد ذُكر في سيرته أنه حفظ التنبيه في الفقه الشافعي في نحو أربعة أشهر ونصف، ثمّ حفظ المهذّب، ثم تدرّج به الأمر إلى أن شرح المهذّب في كتابه الماتع المبارك "المجموع" الذي يعدّ من أهم كتب الفقه عند الشافعية.

- وابن قدامة المقدسي حفظ "مختصر الخرقي" في صغره، ثم تدرّج به الحال إلى أن شرحه وهو في أوائل الثلاثين من عمره في كتابه الكبير "المغني" الذي يعدّ عمدة في الفقه الحنبلي.

- وهذا ابن هشام النحوي كانت أكثر عنايته بعلم النحو؛ فلما أراد دراسة الفقه الحنبلي حفظ "مختصر الخرقي" في أقلّ من أربعة أشهر وهو في الثامنة والأربعين من عمره.

- وهذا جلال الدين السيوطي حفظ في صغره كتباً كثيرة في مبادئ العلوم حتى كانت له بها معرفة حسنة؛ وكان شيخه جلال الدين المحلي يكتب مختصراً في التفسير بدأ فيه من سورة الكهف إلى سورة الناس ثم عاد إلى أوّل المصحف فكتب تفسير سورة الفاتحة ثمّ مات سنة ٨٦٤هـ قبل أن يتمّه، وجلال الدين السيوطي في الخامسة عشرة من عمره، وكان جلال الدين المحلّي أصولياً معروفاً بجودة التلخيص وحسن الاختصار بعبارات جامعة؛ فلما كان عام ٨٧٠هـ عزم جلال الدين السيوطي على إكمال تفسير شيخه؛ فأكمله من أول تفسير سورة البقرة إلى نهاية سورة الإسراء في أربعين يوماً على طريقته ومنهجه، وهو في الحادية والعشرين من عمره، ثمّ فرغ من تبييضه في صفر من السنة التالية، وعُرف تفسيرهما بتفسير الجلالين، وهو من التفاسير المباركة التي عني بها العلماء، وله اليوم طبعات كثيرة جداً، وقرر في عدد من الجامعات والمدارس، وشرحه جماعة من العلماء، وله حواشٍ مطبوعة في مجلدات، وهو قد كتبه في سنّ مبكرة، وهذا لا يتأتّى إلا لمن كانت له معرفة حسنة بعلوم الآلة.

وكان من أوّل تصانيفه كتاب في تفسير الاستعاذة ألّفه وهو دون العشرين؛ أطال فيه وتوسّع، وذكر مباحث حسنة نافعة.

ولما بلغ الثالثة والعشرين من عمره كتب كتابه المعروف بالتحبير في علم التفسير، وهو من أجلّ كتب علوم القرآن وأشهرها، ولا يزال أهل العلم ينهلون منه إلى

يومنا هذا، وهو أصل كتابه الكبير "الإتقان في علوم القرآن".

وهذا يدلّ دلالة واضحة أنّه لم يمكث في مرحلة المبتدئين إلا مدّة يسيرة حتى تأهّل للكتابة والتأليف.

والمقصود التنبيه إلى أنّ طالب العلم إذا عزم على دراسة مختصرٍ من المختصرات فليجتهد في ضبطه وإتقانه في أقلّ مدة ممكنة، وليحذر من تطويل أمد الدراسة؛ فكم من طالب أمضى في مرحلة المبتدئين ما كان يكفيه لأن يكون من العلماء.

وإنه ليحزنني أن أرى كثيراً من المنتسبين لطلب العلم تضيع عليهم سنوات من أعمارهم وهم لا يزالون معدودين من المبتدئين، وقد كان يكفي أحدهم في بعض العلوم أشهُرٌ قلائل يجتاز بها مرحلة المبتدئين بإتقان.

وقد جالست عدداً من هذا الصنف مدّة من الزمن وتأمّلت أحوال من عرفت منهم فوجدتهم يشتركون في **ثلاث آفات لا يكاد يسلم أحد منهم منها كلّها أو من بعضها:**

الآفة الأولى: العشوائية في القراءة

فقراءة أحدهم ليس لها نظام، يقرأ في كتاب ثمّ لا يتمّه، ويدرس عند شيخ دروساً معدودة، ثمّ يتحوّل عنه إلى شيخ آخر، ويدرس في كتاب فيجتهد اجتهاداً بالغاً في دروسه الأولى ثمّ يفتر وينقطع، حتى تضيع عليه سنوات طويلة وهو على هذا الحال.

ولو أنّهم صبروا حتى يتمّوا تلك الكتب المعدودة لكان خيراً لهم، ولأمكنهم اجتياز مرحلة الابتداء بسلام في مدّة وجيزة.

والآفة الثانية: تطويل أمد الدراسة في مرحلة الابتداء

ومن أشهر أشكال هذا التطويل وأكثرها شيوعاً الاقتصار على الدروس الأسبوعية في دراسة المتون العلمية؛ فما كان يكفيه أسبوعان من الدراسة اليومية يدرسه في عام كامل بالدروس الأسبوعية، وما يكفيه شهران يدرسه في أربعة أعوام، وهذه حقيقة مشاهدة.

بل أخبرني بعض طلاب العلم أنّه منذ تسع سنوات يدرس بلوغ المرام عند شيخٍ له فوصل إلى كتاب الحج، وهو ما يقارب ربع الكتاب.

ورأيت أحد المشايخ استهلّ شرح منار السبيل في درس أسبوعي، ثمّ وقفت عليه بعد ثلاثة عشر عاماً فوجدته قد قارب ثلث الكتاب، والذي يغلب على الظنّ أن أكثر الدارسين في حلقته قد تغيروا مراراً.

ولو أنّ دروسه كانت في خمسة أيام أو أربعة في الأسبوع لأمكنه أن يتمّ شرح الكتاب لهم في عامين أو أقلّ.

وهذا التطويل في أيّ علم من العلوم له آثار سلبية على طالب العلم، إذ يحبسه في مرحلة المبتدئين مدّة طويلة يكلّ فيها ذهنه، ويفتر فيها عزمه، ويضعف عن تنمية المهارات العلمية وصقلها، على ما يعتري المقتصرين على الدروس الأسبوعية من ضعف الترابط بين الدروس ونسيان كثير من العلم، وفتور في العزم بسبب طول أمد الدراسة.

والآفة الثالثة: ضعف العناية بالمراجعة

وهي آفة خطيرة شائعة، فإذا اجتمعت مع الآفتين السابقتين لم يبق للطالب سبب يحصّل به العلم؛ ذلك أنّ العلم كالنبات إذا تعاهدته حفظته، ورَسَخَتْ أصولُه ونمت فروعه وآتى ثماره، وإذا تركته عَدَت عليه عوادي الآفات فذهب أصله أو ذبل؛ فقلّ الانتفاع به.

وقد رأيت من أحوال بعض أولئك المقتصرين على الدروس الأسبوعية أنّ أحدهم ربما أتى موعد الدرس التالي ولم يفتح الكتاب فيما بينهما؛ بل ربما جعل الكتاب في سيارته لعلمه بحال نفسه، أنه لا يأخذه إلا للحلقة حتى لا يحضر للدرس بغير كتاب؛ فربما سألهم الشيخ عن مسائل شرحها لهم في دروس سابقة؛ فلا يكاد يجد منهم مجيباً، بل كثيراً ما كنت أسمع من المشايخ التنبيه على أمر المراجعة، وأنه لا يليق بطالب العلم أن يكون عهده بالكتاب حلقة شيخه.

وكان بعض الموفَّقين من طلاب العلم إذا رجع إلى بيته نظر في شرح شيخه، وانتخب عدداً من الشروح الأخرى للكتاب يوازن بينها ويلخص، ويدوّن ما يشكل عليه حتى يسأل شيخه، وهو مع ذلك ماضٍ في خطّته في الدراسة غير مقتصر على الدروس الأسبوعية، وإنما يستفيد منها وسيلة تواصل مع شيخه لسأله عمّا يشكل عليه، وليراجع ما يدرس؛ فإذا أتمّ زملاؤه شرح الكتاب في عامين أو ثلاثة فإذا به قد أتمّ كتباً كثيرة.

وليعلم طالب العلم أنّ مراحل طلب العلم لا تقاس بالأعمار؛ فربّ فتى لم يبلغ العشرين معدود من العلماء، ورجل مكتهل في طلب العلم لا يزال من المبتدئين.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً تنفعنا به إنك أنت السميع العليم

اللهمّ هذا العمل منك ولك فتقبّله وبارك فيه إنّك إن باركت في شيء نفع

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فرغت من إعداد هذا الكتاب

ليلة الخميس ٢٧ جمادى الآخرة ١٤٣٩هـ

ثمّ فرغت من مراجعة أبوابه وتهذيبها لتخرج في كتاب

ضحوة يوم الأربعاء ٢٥ رجب ١٤٣٩هـ


ملحق

المثال الأول: تلخيص مقاصد رسالة «أمراض القلوب وشفائها» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

أولاً: مسائل الرسالة:

مقدمات في أحوال القلوب

• القلوب إنما خلقت لأجل حبّ الله تعالى وعبادته، وهذه هي الفطرة التي فُطر الناس عليها.

• إذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً بالله محبّا له عابداً له وحده.

• إذا كان القلب محبّا لله تعالى وحده لم يُبتل بحبّ غيره أصلاً.

• فساد الفطرة يكون بسبب مرض القلب أو موته؛ ثمّ قد يعود القلب إلى فطرته إذا يسّر الله تعالى لعبده السعي في إعادته لفطرته.

• القلب له موت وحياة ومرض وشفاء، وهو أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه.

• للقلب عوارض وأدواء، ومن العوارض ما يؤذيه ويؤلمه كالغيظ والغمّ، ومنها ما يفتنه إذا كان في القلب مرض.

• القلب يحيا، ويخشع، ويخبت، وينيب، ويصلح، ويمرض، ويُشفى، ويقسو، ويفسد، ويموت، ويتقلّب.

• اعتنى العلماء ببيان أحوال القلوب وأمراضها وشفائها فيما كتبوا من التفاسير وشروح الأحاديث والوصايا والسير، ومنهم من أفردها بالتصنيف كما فعل الخرائطي في كتابه "اعتلال القلوب".

أنواع القلوب

• قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: (**القلوب أربعة**:

- **قلب أجرد** فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن.

- **وقلب أغلف**؛ فذاك قلب الكافر.

- **وقلب منكوس**؛ فذاك قلب المنافق.

- **وقلب فيه مادتان**: مادة تمده الإيمان ومادة تمده النفاق؛ فأولئك قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا).

صحة القلب

• صحّة القلب هي سلامته من الآفات والعلل، وارتواؤه بما يغذّيه ويقوّيه.

• صحّة القلب تقوّيه وتحميه من التأثر بكثير من العوارض التي يُفتن بها مريض القلب.

• يصحّ القلب ويقوى ويتزكّى بتعدّد أسباب قوّته وسلامته من الأمراض والعلل.

• **عماد صحّة القلب وقوّته على أمرين**: **البصيرة** التي تحصل بها صحّة العلم، و**الرشاد** الذي يكون بسبب صحّة الإرادة.

مرض القلب

• مرض القلب هو نوع فسادٍ في تصوّره وإرادته.

أ: فساد التصوّر يحصل به الافتتان بالشبهات.

ب: وفساد الإرادة يحصل به الافتتان بالشهوات.

• من فساد التصوّر أن لا يبصر الحقّ فيحتار ويتردد، أو يرى الحقّ باطلاً والباطل حقّا.

• مرض القلب يضعفه ويُنهكه حتى يتأثر بعوارض يسيرة، ويفتتن بأدنى فتنة.

• مرض القلب يكون بالغفلة عن غذائه، أو إصابة القلب بشعبة من شعب الفسق أو الكفر أو النفاق.

• يزداد المرض بتعدّد أسبابه وتزايد آثاره.

• قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مرضى القلوب لم تمت قلوبهم كموت قلوب الكفار والمنافقين، وليست صحيحة كصالح قلوب المؤمنين، بل فيها مرض شبهة وشهوات.

• قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ دليل على أنّ صحيح القلب لو تعرّضت له المرأة لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة؛ فإذا خضعت المرأة بالقول حرّكت شهوته.

• مرض القلب منه ما يكون بسبب ذنب يقع فيه العبد، ومنه عقوبة كما قال الله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

•"إذا وردت الفتنة على قلب مريض كان ذلك أسرع في فتنته؛ كما قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

قسوة القلب

• قسوة القلب يُبسه وعدم انتفاعه بمواعظ الله وآياته، وذلك بسبب استفحال مرضه، وقحطه مما يغذّيه من العلم النافع والمواعظ الحسنة والأعمال الصالحة.

• القلب القاسي كالأرض الجرداء لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ.

• قسوة القلب أخطر من ضعفه لأنها تورث صاحبها فساد التصوّر، والجسارة على الباطل، والإمعان في الغواية.

• قسوة القلب علامة بيّنة على ضلال العبد: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

ظلمة القلب

• ظلمة القلب تكون بفساد الاعتقاد والتصوّر وما يتبعه من الأعمال المترتبة عليه.

• كلما عظم الفساد ازدادت الظلمة؛ حتى يحتجب عن القلب إبصار الحق.

• المؤمن المتّقي كلما عرض له شيء من أنواع الفساد في الاعتقاد والتصوّر أو الفساد في الإرادة والعمل بادر إلى تطهير قلبه لتعود إليه بصيرته، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾.

• من البصيرة أن يدرك المؤمن عاقبة المعصية وقبحها وسوء أثرها ويبصر البرهان على ذلك بقلبه فيزدجر عن المعصية، كما قال الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

• الظلم من أسباب ظلمة القلب، **وهو على ثلاثة أنواع**: **الشرك** وهو الظلم العظيم، و**ظلم الخلق**، و**ظلم النفس**.

• كل معصية هي من ظلم المرء لنفسه، لأنه لم يعدل في حقها عليه بإلزامها طاعة الله؛ فظلمها إذ عرّضها لسخط الله وعقابه، وحرمها فضله وثوابه.

• القلب يظلم وينير بحسب ما فيه من الإيمان والنفاق، وإنارته إبصاره للحق، وإظلامه عمايته عنه.

• استحكام ظلمة القلب إنما يكون للكفّار والمنافقين، **وهم على صنفين**:

- صنف زُيّن لهم سوء أعمالهم فرأوها حسنة؛ فهم أصحاب جهل مركّب، ممعنون في الغواية والضلال.

- وصنف أصحاب جهل بسيط يتخبّطون في الظلمات؛ من حيرتهم وتردّدهم.

• ضرب الله تعالى مثلين لهذين الصنفين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾.

موت القلب

• يموت القلب بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل.

• يموت القلب إذا فقد غذاءه وشفاءه وكثرت علله وأمراضه.

• الشرك من أعظم أسباب موت القلب، ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

• يموت القلب وإن كان البدن حيّاً، قال الله تعالى عن الكفار: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ فذكروا الموانع على القلوب والأسماع والأبصار، وأبدانهم حيّة تسمع الأصوات وتبصر الأشخاص وتفهم الخطاب، لكنّها حياة بَدَنٍ لا حياة قلب.

• القلب الميّت هو الذي لا يستجيب لما يحييه؛ فلا يسمع سمعاً ينفعه، ولا يتكلّم بما ينفعه، ولا يبصر ما ينفعه، ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾.

• قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ٤٣﴾.

• صاحب القلب الميّت تتسلّط عليه الشياطين بسبب إعراضه عن ذكر الله فتضلّه وتغويه حتى يظنّ أنه مهتدٍ وهو في ضلال مبين، ويرى أعماله السيئة حسنة،

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

• صاحب القلب الميّت ينفر من الحقّ من شدّة إعراضه عنه، وبغضه له، ولا يطيق سماعه، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ وقال تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

• **تنبيه**: الآيات الواردة في ذمّ القلوب الميّتة والمريضة وإن كانت نازلة في الكفار فهي تتناول بالتنبيه من في قلبه شعبة من شعب النفاق أو الكفر الأصغر.

حياة القلب

• حياة القلب لا تكون إلا بتوحيد الله تعالى والاستجابة له؛ **فالتوحيد يزيل إلهية ما سوى الحقّ من القلب**، و**الاستجابة لله تعصمه من الهوى واتّباع الشيطان**.

– **دليل الأول** قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ أي: بتوحيد الله.

– **ودليل الثاني**: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

• القلبُ المنوّر يسمع ويبصر ويعقل، والقلب الميّت لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾.

• القلب الحيّ ينتفع بالتذكير والوعظ والترغيب والترهيب ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾.

• القلب الحيّ يمتنع مما يؤذيه ويضرّه بخلاف القلب الميّت الذي يتناول ما يضرّه ولا يشعر بضرره.

• القلب الحيّ يجعل الله فيه نوراً يمشي به صاحبه، وفرقاناً يفرّق به بين الحقّ والباطل، وكلما كانت حياة القلب أتمّ كان نوره أعظم، وفرقانه أظهر، حتى يتبيّن له الحقّ من الباطل، والهدى من الضلال، والغيّ من الرشاد، فلا تلتبس عليه؛ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

• القلب الحيّ ينجذب إلى ما يزيده حياة ونوراً وزكاة فيألف الطاعات ويحبّها ويأنس بها، وينفر من المعاصي والغفلات ويستوحش منها.

أدواء القلوب

• القلب له أدواء إذا أصيب ببعضها أمرضته، والمؤمن يشعر بمرض قلبه ويجد أثره؛ فيبادر إلى مداواته.

• أدواء القلوب منها ما يفسد التصوّر، ومنها ما يفسد الإرادة، وصلاح القلب إنما يكون بصحّة العلم، وصلاح العمل.

• **من أدواء القلوب:** الجهل والعيّ، والشكّ والارتياب، والشحّ والبخل، والكبر والخيلاء، والحقد والحسد، والشهوة والعشق، والهوى والوَهَن.

• أسهب شيخ الإسلام ابن تيمية في الحديث عن بعض هذه الأدواء، وأشار إلى بعضها، وسألخّص ما ذكره في مسائل، وقد أضيف إضافات يسيرة للتنبيه على ما يحسن ذكره.

▪ الجهل والعيّ

• الجهل هو أصل علل القلوب، لفقدان صاحبه البصيرة بما ينفع، ابتداء أو عقوبة.

• الجهل الأصلي فتنة لصاحبه، والجهل الذي يكون بعد قيام الحجة والإعراض عن الذكر عقوبة لصاحبه.

• السائر بلا بصيرة يحصل له من الأذى بسبب التخرّص والتوهّم والتردد ما يجعله غير مطمئنّ القلب في ذلك الشأن، وفي الحديث الصحيح: «إنما شفاء العيّ السؤال».

• الجهل مرض في القلب شفاؤه التبصّر باتّباع هدى الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسؤال أهل العلم.

▪ الشك والارتياب

• الشكّ والارتياب من أخطر أمراض القلوب، ويحصل لصاحبه ألم لا يزول إلا بالعلم واليقين.

• يقع الشك والارتياب بسبب عدم تصديق الله تعالى وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم.

• من لا يتّبع الرسول يقع في حيرة وشكّ يلازمانه، ولا يزولان عنه إلا بتحقيق الإيمان والاتّباع.

▪ الحسد

• الحسد مرض غالب من أمراض القلوب لم يسلم منه إلا قليل من الناس.

• من وجد في نفسه شيء من الحسد؛ فليكتمه وليبرّك لصاحبه، وليكره ذلك من نفسه، وليتّق الله حتى لا يقول ولا يعمل بمقتضى ما وجده في نفسه من الحسد.

• من عمَّى الحسد في نفسه، وفعل ما أُرشد إليه أعين على ترك الحسد، وحصلت له السلامة من إثمه وآثاره.

• من الواجب أيضاً على المسلم نصرة المحسود بما يستطيع من قول أو عمل.

• كثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود ولا يعينون من ظلمه، لكنّهم لا يقومون بحقّ نصرته مع قدرتهم على ذلك؛ فهؤلاء يعاقبون بالخذلان وبخس حقوقهم.

• الحسد هو كراهة ما يراه الحاسد من حسن حال المحسود.

• الحاسد يتألّم من وجود النعمة على محسوده وزوال تلك النعمة يرفع عنه هذا الألم؛ فيلتذّ بزوال النعمة عنه وإن لم يكن له نفعٌ بزوالها.

• أكثر ما يُحسد عليه الناس المال والجاه، ولذلك يقع على العلماء من الحسد ما لا يقع على العُبَّاد؛ لأنهم رؤوس الناس يعلّمونهم ويُفتونهم.

• أكثر ما يكون التحاسد بين الشركاء في منفعة أو مال، وإذا استرسل الحاسد مع حسده انتقل إلى البغضاء وهي الحالقة، ثم إلى الظلم والعدوان.

• الحسد عمل قلبيّ؛ فإذا صدر عن الحاسد بمقتضى حسده قولٌ أو فعلٌ فهو ظالم متعدٍّ؛ وتجب عليه التوبة من الحسد.

• المحسود مبتلى مظلوم، وهو مأمور بالصبر والتقوى، وموعود بالنصر والرزق إذا صبر واتّقى.

• التحقيق في معنى حسد الغبطة أن يكره فضل صاحبه عليه من غير أن يتمنّى زوال النعمة عنه؛ بل يريد أن يكون مثله أو أحسن منه.

• سمّيت الغبطة حسداً لأنّ الحامل عليها هو نظره إلى إنعام الله على غيره مع كراهته أن يتفضّل عليه ذلك الغير.

• هذا الكره إذا لم يصحبه تمنّي زوال النعمة؛ فلا يلام عليه صاحبه، وذلك كما يكره كل واحد من المتسابقين أن يسبقه صاحبه، من غير أن يكون حاسداً له، ويقال مثل ذلك في المنافسة في الخيرات.

• العامل الذي يحبّ أن ينعم الله عليه من غير أن يكون في قلبه التفات إلى أحوال الناس ليس في قلبه من الحسد شيء، وهو أفضل حالاً من الذي إنما يحمله على العمل الغبطة، وملاحظة إنعام الله على غيره.

• من لم يسرّه ما يسرّ المؤمنين ويسوئه ما يسوئهم فليس منهم.

▪ الشحّ

• الشحّ داء دويّ، يمنع صاحبه من أداء الحقوق، وبذل الإحسان، ويحرمه خيراً كثيراً.

• ترك الشحّ من أسباب الفلاح كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

• الشحّ داء يمرض القلب، ويعرّضه لفتنة كثيرة؛ إذ يزداد طمعه وحرصه على حظّ نفسه فيحمله ذلك على إمساك ما يجب عليه بذله، والتعدّي على ما لا يحلّ له.

• الشحّ يكون بالحرص على المال والمنفعة، والمنافع كثيرة متنوّعة.

• يترتّب على الشحّ أعمال سيّئة كثيرة قولية وعملية وقلبية باعثها الحقيقي إنما هو الشحّ.

• كان عبد الرحمن بن عوف يكثر من الدعاء في طوافه بقوله: «**اللهم قني شُحّ نفسي**». فقال له رجل: ما أكثر ما تدعو بهذا فقال: «**إذا وقيت شح نفسي وقيت الشح والظلم والقطيعة**».

• الإيثار من دلائل سلامة القلب، واتّصاف صاحبه بالأمانة لانتفاء الطمع من القلب.

▪ الكِبر

• الكبر من أعظم أدواء القلوب، ومن أعظم ما يفسد التصوّر، وينحرف بالإرادة.

• من دلائل خطر الكبر أنه لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرّة منه.

• الكبر هو بطر الحقّ وغمط الناس.

■ الهوى

• اتّباع الهوى مفسد للقلب.

• النفس تنشط في اتّباع ما تهوى لأجل ما يحصل لها من اللذة بذلك.

• من أحبّ محبّة مذمومة أو أبغض بغضاً مذموماً وعمل بمقتضى هذا الحبّ والبغض أو تكلّم به كان آثماً، ومن كتمه ونهى النفس عنه كان متّقياً صابراً.

• الهوى يفسد الحبّ والبغض في القلب؛ فيحبّ ما يهوى ويحبّ لأجل ما يهوى ما تضرّه محبّته، ويبغض ما لا يهوى وإن كان نافعاً له، ويبغض لأجل بغضه ما قد يضرّه بغضه ويحرمه خيراً كثيراً.

• إذا استحكم الهوى في القلب أفسد التصوّر والإرادة.

• من ترك ما تطلبه نفسه مما يبغضه الله فينهاها خشية لله تعالى كان ممن دخل في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

■ الغضب

■ الشهوة

■ العشق

• العشق هو الحبّ الزائد المفرط المتعدّي لحدود الله.

• حقيقة العشق حبّ النفس لما يضرّها، وهو مرض نفسانيّ، وإذا قوي أثّر في البدن والعقل.

• العشق مرض لأنّ فيه تعدّياً لحدود الله، ولو كان المعشوق مما تباح محبّته في الأصل كالزوجة، وإذا كان في محبّة الممنوع كان ضرره وإفساده أعظم.

• الإفراط في الحبّ يكون بسببه طغيان المحبوب على القلب، واستيلاؤه على التفكير؛ فيؤثره بالحبّ والتذكّر والطاعة، حتى يرتكب لأجله بعض المحرّمات، أو يفرّط في بعض الواجبات لأجله.

• العشق من الأمراض التي تفسد دين صاحبها وعرضه ثمّ قد تفسد عقله وجسمه.

• العاشق كالمريض الذي يشتهي ما يضرّه فإن تناوله أضرّه، وإن منع منه تألّم لحرمانه منه.

• يزداد العشق باتّصال العاشق بمعشوقه مشاهدةً أو ملامسةً أو سماعاً، ويضرّه التفكير فيه، والتخيّل له.

• واليأس يزيل الطمع؛ فتضعف الإرادة؛ فيضعف الحبّ.

• شفاء المريض إنما هو بزوال مرضه، وشفاء العاشق بزوال الحبّ المذموم من قلبه.

• اختلف في العشق؛ فقيل هو فساد في الإرادة وهو المشهور، وقيل: فساد في التصوّر.

• من ابتُلي بالعشق فعفّ وصبر أثيب على تقواه لله.

• إذا كان القلب محبّا لله تعالى وحده لم يُبتل بحبّ غيره أصلاً فضلاً أن يبتلى بالعشق.

• من ابتلي بالعشق فلنقصٍ محبّته لله وحده، وتوحيده إيّاه، ولذلك سلم يوسف عليه السلام من العشق، وشقيت به امرأة العزيز مدّة من عمرها.

• القلب الصالح فيه صارفان يصرفانه عن العشق: إنابته إلى الله ومحبّته له، وخوفه من الله.

• الحبّ الفاسد يُزال بحبّ ما هو أعظم منه مما ينفع العبد؛ وبخوف عاقبة ذلك الحبّ الفاسد.

• العبد لا يترك محبوباً إلا لمحبوب أعظم منه أو خوف ضرر تجرّه عليه تلك المحبّة.

شفاء القلب

• أصل شفاء القلوب إنما هو بالقرآن الذي جعله الله شفاء لما في الصدور من أمراض الشبهات والشهوات.

- ففيه من البصائر والبيّنات ما يشفي القلب من مرض كلّ شبهة.

- وفيه من الحكمة والموعظة ما يشفي القلب من مرض كلّ شهوة.

• **شفاء القلوب قائم على أصلين:**

- **البصيرة في الدين**، وتحصل بصحّة العلم؛ ومن أثرها أن يرى الحقّ حقاً، والباطل باطلاً، والحسن حسناً، والقبيح قبيحاً.

- **الرشاد**، ويحصل بالاستقامة على أمر الله واتّباع هداه؛ فيرغب فيما رغّب الله فيه، ويرهب مما رهّب الله منه، ويحبّ ما أحبّه الله، ويبغض ما أبغضه الله.

• القرآن شفاء للعلل المفسدة للتصوّر والإرادة؛ فيصلح القلب، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها.

• القلب لا بدّ له من غذاء يقوّيه، وحماية تقيه من الآفات والعلل؛ وبذلك تحصل له الحياة والزكاة.

• حاجة القلب إلى التغذية والحماية أعظم من حاجة البدن؛ وأثرها فيه أسرع من أثر غذاء البدن.

• أصل صلاح القلب هو حياته واستنارته.

إصلاح القلب

• العبد مأمور بالسعي في إصلاح قلبه.

• يصلح القلب بتصحيح العلم، ورشاد العمل.

• يصلح القلب بتحقيق التوحيد والإيمان، والقيام بالفرائض، والكفّ عن المحرمات، وتلاوة القرآن، والتوبة والاستغفار، والصبر والشكر، والتفكّر في آيات الله، وكثرة الذكر، والدعاء، والصدقة، والتعويذات الشرعية.

▪ تحقيق التوحيد والإيمان

• القلب خلق لعبادة الله وحدته، فمفتاح صلاحه إنما هو بالإيمان بالله وإفراده بالعبادة.

• صحة القلب تحفظ بالإيمان.

• الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

• القلب الموحّد منيب إلى الله تعالى، وجلٌ منه، مفتقر إليه، مطمئنٌّ بذكره.

• قال سهل بن عبد الله التستري: (ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار).

▪ أداء الفرائض

• تقديم الواجبات والحرص على إكمال الفرائض ظاهراً وباطناً ثم التقرّب إلى الله تعالى بما يتيسّر من النوافل من أعظم أسباب نيل محبّة الله تعالى وإصلاح القلوب.

▪ الكفّ عن المحرّمات

• اجتناب الفواحش الظاهرة والباطنة من أعظم أسباب زكاة القلوب، لأنها أخلاط رديئة تضعف الروح، وتوهن النفس، وتفسد القلب.

• قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

▪ تلاوة القرآن

• تلاوة القرآن وتدبّره من أعظم أسباب صلاح القلوب.

• بصائر القرآن تصحح التصوّر، ومواعظه تقوّم الإرادة.

▪ التوبة والاستغفار

• التوبة مطهرة للقلب والنفس من آثار الذنوب والمعاصي؛ وكلما كانت التوبة أحسن كان التطهير أعظم.

• من استغفر الله ثمّ تاب إليه متّعه الله متاعاً حسناً إلى أجل مسمّى ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ... ﴾.

▪ الصبر

• الصبر من أعظم أسباب إصلاح القلوب؛ **وهو على أنواع: صبر على طاعة الله**، و**صبر عن معصية الله**، و**صبر على أقدار الله المؤلمة**.

• **الصبر على البلاء على نوعين:**

- **صبر اضطراريّ** من لم يصبر فيه صبر الكرام سلا سلوّ البهائم، وهو الصبر على ما لا اختيار للعبد فيه؛ كالصبر على موت القريب، وذهاب المال، وفقد نعمة من النعم.

-**وصبر اختياري،** وهو مجاهدة الأعداء الذين يُبتلى بهم بما أرشد الله إليه من أنواع المجاهدة ومراتبها.

• الصبر الاختياري أفضل من الاضطراري من جهة أن العبد له اختيار في الفعل والترك، فيصبر نفسه على اتّباع الهدى، وإلزامها التقوى، ومجانبة الهوى، وحفظ حدود الله تعالى.

• الذي يؤذى على طاعة الله ورسوله، وهو صابر محتسب؛ يثاب على كلّ ما يناله من أذى صغير أو كبير في سبيل الله، ويكتب له به عمل صالح.

• النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، ومع العسر يسر.

• لم ينل أحدٌ شيئاً من جسيم الخير نبيٌّ فما دونه إلا بالصبر.

▪ الشكر

• الشكر من أسباب صلاح القلوب؛ لأنه يحصل به التوفيق لمزيد من الأعمال الصالحة، والسلامة من العذاب.

• الشكر من أسباب رفع العذاب، ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.

• الشكر من أسباب زيادة فضل الله تعالى على عبده، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

▪ التفكّر في آيات الله

• التفكّر في آيات الله يورث القلب البصيرة واليقين، وحسن المعرفة بعواقب الأعمال؛ فيعينه ذلك على الاستقامة والرشاد.

▪ كثرة الذكر

• كثرة الذكر من أسباب الفلاح كما قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

• الأوراد من الأذكار في طرفي النهار وعند النوم والاستيقاظ من أحسن غذاء القلوب.

• الإكثار من «لا حول ولا قوة إلا بالله» له أثر عظيم في تحمّل المشاقّ، وإطاقة الأعمال العظيمة، ونيل المراتب الرفيعة.

▪ الدعاء

• المداومة على الدعاء من أعظم أسباب الإجابة، وليحذر العبد من الاستعجال.

▪ الصدقة

• الصدقة تطفئ الخطيئة وتنمّي اليقين في القلب؛ فيحصل بها التطهير والتزكية ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

▪ التعويذات الشرعية

• التعويذات الشرعية من أحسن الوقاية للقلوب.

علامات صلاح القلب

• من علامات صلاح القلب تحقيق التوحيد لله تعالى.

- قال أحمد بن حنبل لبعض الناس: (لو صححت لم تخف أحدا).

- قال ابن تيمية: (أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك كمرض الشرك والذنوب).

• من علامات صلاح القلب صحّة التصوّر، واستقامة الإرادة.

• صلاح الجوارح من آثار صلاح القلب.

• استقامة اللسان وكثرة الذكر من دلائل صلاح القلب.

• حياء القلب من الإيمان ومن دلائل حياة القلب، لأن الحياء يمنع من القبائح، والقلب الحيّ يمنع ما يؤذيه بخلاف القلب الميّت.

- من حُرم الحياء استمرأ القبائح، ومن مات قلبه اجترأ على الموبقات.

• من سرته حسنته وساءته سيّئته فهو مؤمن، وذلك لأجل صلاح التصوّر والإرادة.

• صلاح القلب يتفاضل فيه الصالحون على درجات كثيرة.

زكاة القلب

• زكاة القلوب والنفوس من فضل الله تعالى ورحمته، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾.

• الزكاة سبب الفلاح، وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾.

• **زكاة القلب تحصل بأمرين:**

– شفاء القلب من أمراضه وعلله، وتخلّصه من آثار الذنوب والمعاصي.

– تغذية القلب بما يقوّيه؛ وأعظم غذاء للقلب: تحقيق التوحيد، وازدياد اليقين، وفعل الطاعات.

تقلّب القلب

• القلب يتقلّب، وحاجة المرء إلى سؤال الله تعالى التثبيت والهداية دائمة متجددة.

• في قول المؤمن في كل صلاة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ دليل على عظم الحاجة إلى هذا الدعاء.

• المؤمن بحاجة إلى البصيرة والإعانة على الطاعة في كلّ أمر من أموره؛ وبهما تحصل الهداية وتكمل.

• دخول المسلم في الإسلام هو أصل الهداية؛ لكنّه يحتاج إلى هدايات كثيرة متنوّعة.

• الفتن التي تعترض المؤمن في يومه وليلة كثيرة متنوّعة ومن لم يهده الله ضلّ بها.

• مجرّد العلم بالحقّ لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه.

• الذين هداهم الله من هذه الأمّة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء.

• حاجة المؤمن إلى هذا الدعاء أشدّ الحاجات ولذلك فرضه الله تعالى على المؤمنين في كلّ ركعة من صلواتهم، ومحبّة الله تعالى لهذا الدعاء عظيمة تعرف بدلالة فرضه بهذا القدر العظيم.

• إذا حصلت الهداية حصل ما يترتب عليها من النصر والرزق والتوفيق وأنواع الفضائل والبركات، وما تطلبه النفس من أحوال السعادة.

ثانياً: المقاصد الفرعية:

قامت هذه الرسالة على جملة من المقاصد:

١: مقدمات في أحوال القلوب بين فيها المؤلف أهمية أعمال القلوب وأنّا تموت وتحيا وتمرض وتشفى، وتعرض لها عوارض وأدواء.

٢: بيان أنواع القلوب.

٣: بيان معنى صحة القلب وأسبابها.

٤: بيان معنى مرض القلب وأنواعه وأسبابه.

٥: بيان معنى فساد القلوب وأسباب قسوتها وظلمتها وموتها.

٦: بيان معنى حياة القلب وآثارها.

٧: بيان جملة من أمراض القلوب كالجهل والعي، والشك والارتياب، والحسد والشحّ، والكبر والهوى، والغضب، والشهوة، والعشق.

٨: بيان طرق وأسباب شفاء القلوب من أمراضها.

٩: بيان معنى صلاح القلوب وأسبابه وعلاماته.

١٠: بيان معنى زكاة القلب وأسبابه وآثاره.

١١: التحذير من تقلب القلب، وبيان أسباب الثبات.

ثالثاً: المقصد الكلّي العام:

التعريف بأهمية أعمال القلوب وأحوالها وأنواعها، وعلامات صلاحها وفسادها، وبيان جملة من أمراض القلوب وطرق شفائها منها، وبيان معنى حياة القلب وزكاته، والتحذير من تقلّبه، وبيان أسباب الثبات.

المثال الثاني: مقاصد التحفة العراقية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

وتكشيف مسائلها

[مع إضافات وتوضيحات لبعض الجمل والمقاصد]

إجمال مقاصد التحفة العراقية

المقصد الرئيس: فقه أعمال القلوب.

بينه المؤلف في أول رسالته بقوله: (أما بعد فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب، التي قد تسمى الأحوال والمقامات).

المقاصد الفرعية: وهي الجمل الرئيسة والمباحث المهمة التي أودعها المؤلف في رسالته. (مع إعادة ترتيبها وإضافات يسيرة).

ظهر لي بعد التأمل والدراسة أن لها ثلاثة مقاصد هي:

- المقصد الأول: بيان أهمية أعمال القلوب.
- المقصد الثاني: بيان المنهج الحق في أعمال القلوب.
- المقصد الثالث: الرد على المخالفين في هذا الباب، والتحذير من الاغترار بمخالفاتهم وهي على نوعين: بدع وأخطاء.

• المقصد الأول: بيان أهمية أعمال القلوب.

وبيان ذلك أن الغاية التي خلق الله الجن والإنس لأجلها هي عبادته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

والعبادات تنقسم إلى قسمين: **عبادات ظاهرة** و**عبادات باطنة**.

فالعبادات الظاهرة منها قولية وعملية كالصلاة والزكاة والصيام والحج وتلاوة القرآن، والعبادات القلبية الباطنة كالإخلاص والمحبة والخوف والرجاء والتوكل والاستعانة والرغبة والرهبة وغيرها.

وهذه العبادات القلبية الباطنة هي المقصودة بالأصل، وهي أصل العبادات الظاهرة، فإذا لم تصح العبادات الباطنة كانت العبادات الظاهرة باطلة.

وسعادة الإنسان وشقاوته متوقفة على صحة عبادته أو بطلانها، فمن كانت عبادته مقبولة كان من السعداء، ومن ردت عبادته شقي في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر شيخ الإسلام أنواعاً من أعمال القلوب: كالإخلاص والاستعانة والمحبة والخوف والرجاء والصدق والتوكل والرضا والحمد والصبر.

وذكر اقتران بعض أعمال القلوب ببعض، وأنه ينتج عبادة متركبة منهما هي أحب إلى الله من انفراد أحدهما دون الآخر، كالجمع بين الإخلاص والاستعانة المذكور في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، والجمع بين المحبة والخوف والرجاء، وكذلك: الصبر واليقين، والخوف والطمع، والصدق والإخلاص، والتوكل والرضا، والصبر والشكر، والصبر والمرحمة.

وأعمال القلوب قسمين:

القسم الأول: أعمال يتعبد بها لله كمحبته وخوفه ورجائه.

والقسم الثاني: أعمال قلبية هي من لوازم عبادة الله وآثارها ومعينة عليها كمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ومحبة المؤمنين، ورحمتهم، وحسن الظن بهم، والغيرة على المحارم، والزهد في الدنيا والزهد فيما في أيدي الناس. ونحو ذلك من الأعمال القلبية التي يحبها الله ويثيب عليها.

وكلا القسمين عبادة يثاب عليها.

وأما الأعمال القلبية التي تخلو من معاني التعبد فقد تكون مباحة وقد تكون محرمة وقد تكون مكروهة.

والناس في الأعمال القلبية على درجات: فمنهم ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات بإذن ربه.

• المقصد الثاني: بيان المنهج الحق في أعمال القلوب.

وبيان ذلك أن العبادات إما أن تكون صحيحة أو باطلة، فالعبادات الصحيحة التي يتقبلها الله ويثيب عليها هي التي جمعت الإخلاص والمتابعة، وهو ما تقتضيه الشهادتان، والعباد يتفاضلون في الإخلاص، ويتفاضلون في إحسان المتابعة، وهذا يدلك على أن أعلى المقامات تجريد الإخلاص وإحسان الاتباع، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، وجهه أي: قصده.

فلا يعبد إلا الله، ولا يعبد الله إلا بما شرع.

فأما إخلاص العبادة لله فهو معنى الإسلام الذي بعث الله به المرسلين، وكل رسول دعا قومه إلى توحيد الله، وهو الدين الذي لا يقبل الله سواه، ولا يكون الإخلاص إلا بالكفر بالطاغوت والبراءة مما يعبد من دون الله، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾.

وأما إحسان المتابعة فإنه يعصم العبد من الشرك والبدعة والغلو والتفريط.

والآفات التي تعترض العُبَّاد منها ما يقدح في الإخلاص ومنها ما يقدح في المتابعة، ومن سلم له إخلاصه ومتابعته فقد سلمت له عبادته.

فآفات النوع الأول يكون بسببها الشرك الأكبر والأصغر والخفي، وعلل وأدواء أخرى بسبب ضعف الإخلاص وما يترتب عليه من ضعف وعلل في مقامات الاستعانة والتوكل والصدق والخوف والرجاء والمحبة وغيرها.

وآفات النوع الثاني: يكون بسببها البدعة والغلو والتفريط.

• المقصد الثالث: الرد على المخالفين في هذا الباب، والتحذير من مخالفاتهم

وهذه المخالفات على نوعين:

النوع الأول: بدع أحدثتها بعض الطوائف.

النوع الثاني: أخطاء حصلت من بعض المشايخ بسبب سوء فهم وضعف علم، أو عبارات قالها قائلهم وهو في حال لا يؤاخذ بها؛ ففتن بها بعض الأتباع.

النوع الأول: التحذير من البدع المحدثة

ومن ذلك: الاغترار بالكرامات وطلبها بوسائل بدعية، والاسترسال مع القدر، والفناء بمشهد الربوبية عن مشهد الألوهية، أو بمشهد الألوهية عن مشهد الربوبية، والضلال في باب الأسباب، والذوق والوجد البدعيان، ومسألة السماع البدعي، والاتحاد والحلول، والفناء البدعي، وبدعة الملامية.

النوع الثاني: الأخطاء والأغاليط

ومن ذلك: تنقص مقام التوكل وزعم أنه من مقام العامة، أو أنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة، والخطأ في ادعاء مقامات من العبودية كمقام الحزن، والتحذير من شطحات الصوفية وأغلاط بعض مشايخهم في عبارات قد يقولونها وهم على حال لا يؤاخذون فيها بما يقولون من ذهاب العقل.

والواجب أن توزن تلك العبارات بميزان الشريعة فما قبل منها كان مقبولاً، وما ردت الشريعة رد، ولا يلزم من رده العدوان على قائله؛ فإنه قد يكون معذوراً، وقد يكون مخطئاً غير معذور.

وما أحسن ما قال أبو سليمان الداراني: (ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة).

وقد ذكر شيخ الإسلام في رسالته بعض هذه العبارات.

فائدة مهمة:

هذه الرسالة كتبها شيخ الإسلام على حين عجلة، كما صرح بذلك في أولها بقوله: (اقتضى ذلك بعض من أوجب الله حقه من أهل الإيمان، واستكتبها وكل منا عجلان). فكتب هذه الرسالة بخاطر حاضر وذهن سيال بعد خبرة وممارسة طويلة في بحث هذه المسائل والمناظرة عليها وكتابة الردود فيها ومنها مؤلفات ذات مجلدات.

وقد أودع في هذه الرسالة من نفائس المسائل والقواعد والفوائد ما يعز اجتماعه في غير هذا الكتاب، ومن يكتب على مثل حاله كتابة على عجلٍ ليس كمن يبدئ ويعيد في كتابته ليحرر الكلام ويجود العبارة، وقد عرف عنه - رحمه الله - سرعة الكتابة، وسرعة البديهة، وجودة الخاطر حتى إنه لإسراعه في الكتابة كان يترك نقط بعض الحروف.

ومن اللطائف في ذلك أنه كتب فتواه الكيلانية وهي في نحو مائة وثمانين صفحة جواباً لسؤال وقال في أثنائها لما عرض لمسألة فيها : (لكن هذا الموضع فيه اشتباه وإشكال لا تحتمل تحريرَه وبسطَه هذه الفتوى لأن صاحبها مستوفز عجلان يريد أخذها...).

وفي رسالته الكيلانية من الفقه وحسن النظر والتحرير ما يتعجب منه العلماء، وقد كتب ذلك على عجل وصاحب الفتوى مستوفز أي ليس بجالس جلسة المستريح بل على هيئة الذي يريد القيام لاستعجاله، وإنما أخَّره انتظاره أن يتم له الشيخ الجواب، فراعى الشيخ حاله واستعجل له في الجواب فكان في نحو مائة وثمانين صفحة!!

ومن يكتب على مثل هذا الحال تتوارد الأفكار على ذهنه ويطول الفصل بين بعض المقدمات والمقاصد ويدخل في ذلك بعض الاستطرادات والتنبيهات

والفوائد العارضة، فالذي اعتاد الكتابة السهلة المرتبة قد يجد صعوبة في قراءة مثل هذه الرسالة، ومن طلاب العلم من لا يجد صعوبة في قراءتها، لكنه لا يقرؤها قراءة مثلى، وذلك لأنه يحصر ذهنه على فهم ما يقرؤه في الحال، فينتهي من قراءة الرسالة ولا يعلق بذهنه إلا بعض الفوائد واللطائف والمسائل التي كرر التنبيه عليها، وهذه الفائدة المستعجلة تذهب مع الوقت وعدم المراجعة.

ولذلك أوصي طالب العلم عند قراءة كتب شيخ الإسلام خاصة أن يحرص على استخراج المقاصد أولاً، ولو مكث في مثل هذه الرسالة القيمة أياماً يستخرج مقاصدها ويعيد ترتيب مسائلها ويجمع الكلام المتفرق في كل مسألة في موضع واحد، ويميز الاستطرادات من المقاصد، ثم يتأمل ما خرج به من المسائل، وكيف بنى المؤلف بعضها على بعض حتى تتبين له المقاصد بجلاء ووضوح.

ودراسة هذه الكتب بمثل هذه الطريقة أنفع لطالب العلم من القراءة العابرة ولو تكررت، وضبط المسائل المهمة في هذه العلوم يعود على الطالب بالنفع والفائدة العظيمة في علمه وفهمه ووقته، ويعينه على رسوخ هذه المسائل في ذهنه فلا ينساها بإذن الله.

ولا يزال هذا دأب طالب العلم حتى يكون من الراسخين فيه بإذن الله.

الكشاف التحليلي لمسائل التحفة العراقية

العبادة هي الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها

- **بيان معنى العبادة**
- العبادة هي غاية الذل وغاية المحبة.
- تنقسم العبادات إلى قسمين: **عبادات صحيحة** و**عبادات باطلة**.
- وتنقسم أيضاً إلى قسمين: **عبادات ظاهرة** و**عبادات باطنة**.

العبادة الصحيحة والعبادة الباطلة

• العبادة الصحيحة هي التي جمعت الإخلاص والمتابعة، وهو ما تقتضيه الشهادتان.

• أعلى المقامات تجريد الإخلاص وإحسان المتابعة، ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ وجهه أي: قصده.

• إخلاص العبادة لله هو معنى الإسلام الذي بعث الله به المرسلين، وكل رسول دعا قومه إلى توحيد الله.

• لا يكون الإخلاص إلا بالكفر بالطاغوت والبراءة مما يعبد من دون الله.

• إحسان المتابعة يعصم العبد من الشرك والبدعة والغلو والتفريط.

• الآفات التي تعترض العُبَّاد منها ما يقدح في الإخلاص ومنها ما يقدح في المتابعة.

• إذا سلم لك إخلاصك ومتابعتك فقد سلمت لك عبادتك.

أقسام التوحيد

• ينقسم التوحيد إلى قسمين : قولي علمي، وعملي إرادي.

• سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ هي في التوحيد القولي العلمي، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ هي في التوحيد العملي الإرادي.

• لهاتين السورتين فضائل عظيمة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرن بينهما في ركعتي الفجر وركعتي الطواف.

• بين القسمين ارتباط وثيق، والأول يستلزم الآخر.

• المقصود في هذه الرسالة هو التوحيد العملي، الذي هو عمل القلب وإرادته.

• من ضلوا في القسم الأول ظهر أثر ضلالهم في القسم الآخر.

• لا يوجد أحد من أهل التعطيل (الجهمية) وأهل التمثيل (المشبهة) إلا وفيه نوع من الشرك العملي.

• أصل قولهم فيه شرك وتسوية بين الله وخلقه، أو بينه وبين المعدومات.

• في الطائفتين شبه باليهود والنصارى

• اليهود كثيرا ما يعدلون الخالق بالمخلوق ويمثلونه به حتى وصفوا الله – تعالى عن ذلك علوا كبيراً – بالعجز والفقر والبخل ونحو ذلك.

• والنصارى كثيراً ما يعدلون المخلوق بالخالق حتى جعلوا في بعض المخلوقات من نعوت الربوبية وصفات الألوهية، ويجوّزون لها ما لا يصلح إلا لله سبحانه.

• أمرنا الله جل وعلا أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم من اليهود ومن شابهم ولا الضالين من النصارى ومن شابهم.

• أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن في هذه الأمة من يتبع سنن اليهود والنصارى حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه.

• تأمل ما بينه الله ورسوله من انحرافات اليهود والنصارى وأسبابها مفيد جداً للسالك ليحذر مما حذَّر الله منه ورسوله.

الفرق بين العبادات الظاهرة والعبادات الباطنة

• أصل الدين في الحقيقة هو الأعمال الباطنة، والأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها

• **أصول العبادات القلبية:** المحبة والخوف والرجاء.

• **أصول العبادات الظاهرة:** الصلاة والصيام وتلاوة القرآن.

  • يوصف من يكثر من هذه الأعمال بأنه عابد.

• الكلام في العبادات الظاهرة وشروطها وأركانها وآدابها أفاض فيه الفقهاء في كتب الفقه.

• الكلام في العبادات الباطنة وآثارها وآداب أصحابها هو مدار علم السلوك.

• تكلم علماء الاعتقاد في العبادات القلبية من جهة تحقيق الإخلاص فيها ودرجات دخول الشرك فيها.

حقيقة الهدى والرشاد

• العلم النافع هو أصل الهدى، والعمل بالحق هو الرشاد

• يحتاج السالك إلى علم وإرادة؛ فإذا كان علمه صحيحاً وإرادته جازمة سلك سبيل الرشاد بإذن الله.

• زكَّى الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ ﴾.

• العلم النافع عصمة من الضلال والعمل بالحق عصمة من الغواية.

• لا ينال الرشاد إلا بالصبر، ولا إيمان لمن لا صبر له.

أهمية أعمال القلوب

أنواع أعمال القلوب

• **الإخلاص**

• إخلاص العبادة لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو معنى الإسلام الذي بعث الله به المرسلين.

• حقيقة الإسلام هي الانقياد لله وحده لا شريك له، فيكون قلبه وعمله سالماً من الشرك خالصاً لله.

- من أسلم قلبَه لله فقد أخلص العبادة لله.
- **مما يعين على تحقيق الإخلاص**: اليقين والصبر.
- تسلط الشيطان وإغواؤه إنما هو على غير المخلصين.
- من فضائل الإخلاص أن صاحبه لا يكون مذموماً ولا مخذولاً.
- **الصدق**
- **التوكل**
- **المحبة**
- **المحبة أصل الدين**
- محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده.
- المحبة هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين.
- كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة (للمؤلف رسالة في هذه المسألة بعنوان: قاعدة في المحبة، وهي من القواعد الكبار).
- جميع الأعمال الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله لأن الله لا يقبل إلا ما أريد به وجهه.
- الخوف والرجاء مبناهما على المحبة؛ لأن الراجي يطمع فيما يحب، والخائف يخشى على ما يحب.
- إخلاص العبادة لله تعالى هو ثمرة المحبة الصادقة.
- المحبة الدينية هي إرادة الله وحده؛ فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته، وهذا كمال المحبة.

• يعبَّر عن كمال المحبة بالعبادة لأن العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايته مع كمال التذلل والتعظيم.

• المحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له ليس بمعبود، وكذلك المعظم الذي لا يُحَب.

• **أسباب محبة الله:**

١: أن يحب الله لأجل إحسانه وإنعامه.

٢: أن يحب الله لمعرفته بأسمائه وصفاته

• **المحبة المحمودة والمحبة المذمومة**

• كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة: إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة.

• أصل المحبة المحمودة هي محبة الله تعالى، ومن آثارها محبة ما أمر الله به، وما أذن الله بمحبته.

• المحبة المذمومة هي محبة ما يبغضه الله.

• كل ما يُحَب لغير الله فمحبته باطلة. «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلما».

• **معنى كون المؤمنين أشد حباً لله**

• لأن المؤمنين أعلم بالله، والحب يتبع العلم، ويزداد بازدياده؛ وكلما كان العبد أعرف بالله وبأسمائه وصفاته وآثارها كان أكثر حباً له.

• ولأن المؤمنين جعلوا حبهم لله وحده (حب العبادة)، والمشركون جعلوا بعض حبهم لغيره وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب.

• **قاعدة في التفريق بين حب التعبد وحب لوازم العبادة وآثارها والحب الطبيعي الخالي من المعاني التعبدية.**

• **لفظ المحبة فيه إطلاق وعموم، وله ثلاث إطلاقات:**

١: فيطلق على ما يحمل معنى التعبد، وهو الحب الذي فيه تذلل وتعظيم وخوف ورجاء ورغبة ورهبة فهذا حب التعبد، وصرفه لغير الله شرك أكبر.

٢: ويطلق على ما هو من لوازم محبة الله وآثارها؛ كمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ومحبة المؤمنين ومحبة ما يحبه الله من الأمكنة والأزمنة وغيرها.

• محبة الرسول الله صلى الله وعليه وسلم ليست من جنس محبة الله، وإنما هي تابعة لمحبة الله، ولذلك لا تتضمن معاني تعبدية تصرف للرسول صلى الله عليه وسلم.

• وكذلك محبة الصالحين هي تابعة لمحبة الله تعالى، وأما من أحب الصالحين محبة تعبّد لهم فقد أشرك بهم من دون الله جل وعلا.

٣: الحب الجبلّي الطبيعي الخالي من المعاني التعبدية قد يكون مباحاً مأذوناً به، وقد يكون محرماً وقد يكون مكروهاً، بحسب غرضه وأثره.

• **آثار المحبة ودلائلها**

• اتباع النبي صلى الله عليه وسلم دليل المحبة ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾، ولذلك تسمى هذه الآية آية الامتحان.

• الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال دليل المحبة الكاملة لأنه بذل أغلى ما يملك العبد لله جل وعلا.

• الهجرة في سبيل الله عند وجوبها أو استحبابها من أعظم دلائل المحبة. ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ ...﴾ الآية.

• التواضع للمؤمنين والتذلل لهم (تذلل عطف ورحمة وأخوة) والعزة على الكافرين (من غير ظلم لهم) من أعظم دلائل صحة المحبة.

• ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

• المحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم ولا عذل العاذل، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

• المقصود أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه ولا بد أن يحب ما يحبه الله من جهادهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.

• «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق».

• «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله».

• «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان».

• من علامات سلامة القلب وصحة المحبة أن توالي أولياء الله وتعادي أعداء الله وتعظم ما عظمه الله وتحقّر ما حقَّره الله، وترضى لما يرضي الله وتغضب لما يغضب الله.

• هؤلاء هم الذين يرضى الله لرضاهم ويغضب لغضبهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر في طائفة فيهم سلمان وصهيب وبلال: «لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك» وذلك لما مرَّ بهم أبو سفيان في غزوة أحد فقالوا: «**ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها**» وذلك غضباً لله جل وعلا.

• غاية ما يرجوه المحب في الدنيا ما تضمنه حديث الولي: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به...» الحديث.

• عبادة المحبة ضلت فيها طائفتان: طائفة أنكرتها وصرفتها إلى محبة الثواب وهم الجهمية، وطائفة أدخلت فيها باطلاً كثيراً من كثرة الانبساط وما لا يليق من الأقوال والأحوال، وهم طوائف من الصوفية، ووصل الأمر بغلاتهم إلى الكفر الصريح.

• من الأغلاط الشنيعة ما يذكره بعضهم في شأن محبة الله جل وعلا من الأشعار والأقوال التي تحمل معنى الهجر والتجني والصد والقطيعة ونحو ذلك من المعاني في المتحابّين من البشر للهوى.

• الخوف

• الخوف تابع للمحبة؛ لأن الخائف يخشى فوات ما يحبه من السلامة والنعيم.

• أعظم درجات الخوف عند المحبين أنهم يخافون أن يحتجب الله عنهم يوم القيامة كما قال في الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾.

• الخوف من عذاب النار ومن أهوال يوم القيامة من صفات المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ وقال في أهل النار: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾.

• **الخوف من عذاب النار يشمل الخوف مما يعذب به أهلها ومن ذلك:**

• قول عمر: «**نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه**» ليس فيه نفي الخوف عنه، وإنما مراده أن إجلاله لله يمنعه من معصيته.

• الرجاء

• التوبة

• أصل التوبة ندم القلب ورجوعه إلى الله.

• التوبة فيها فرار وإقبال يقال: تبت من ذنبي، وتبت إلى الله.

• الله تعالى يحب التوابين، ويفرح بتوبة عبده كما في الحديث الصحيح.

• التوبة الصحيحة مقبولة من جميع الذنوب حتى الشرك بالله جل وعلا والردة وإن تكررت.

• لا يغفر الله الشرك لمن لم يتب منه، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك وإن لم يتب العبد منه.

- **الإنابة**
- **الاستعانة**
- **الاستعاذة**
- **الاستغاثة**
- **الزهد**
- **الفرق بين الزهد والورع**
- الزهد المشروع هو ترك ما لا ينفع في الآخرة (فضول المباحات).
- والورع المشروع هو ترك ما قد يضر في الآخرة (المحرمات والمكروهات).
- الزهد فيما ينفع في الآخرة أو ما يعين عليه من المباحات ليس من الدين في شيء.
- **الصبر**
- ذكر الله الصبر في القرآن في أكثر من تسعين موضعاً.
- **الرضا**
- الرضا من أرفع أعمال القلوب، وكماله الحمد، حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا.
- كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل ربه الرضا بعد القضاء.
- ما يكون قبل القضاء إنما هو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا.
- كان طائفة من لمشايخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء فإذا وقع انفسخت عزائمهم.
- كراهية تمني البلاء، والتعرض له، ولذلك ينهى عن تمني لقاء العدو، وطلب الإمارة، والقدوم على بلد فيه طاعون.

• المؤمن يسأل الله العافية ولا يتمنى البلاء؛ فإذا ابتلي وجب عليه أن يصبر.

اختلف العلماء في حكم الرضا بالقضاء على قولين: واجب ومستحب.

• على القول الأول يكون الرضا من أعمال المقتصدين، وعلى القول الثاني يكون من أعمال المقربين.

• **تنبيه:** حديث: «إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل، وإن لم تستطع؛ فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً» **ضعيف**.

• قال عمر بن عبد العزيز: «**الرضا عزيز، ولكن الصبر معول المؤمن**».

• لم يأت في القرآن إلا مدح الراضين بقضاء الله، ولم يرد إيجابه.

• **تنبيه:** هذا في الرضا بالقضاء وأما الرضا بالأمر فأصله واجب وهو من توابع المحبة التي هي أصل الإيمان.

الرضا والاستخارة

• من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله.

• الرضا بعد القضاء، والاستخارة قبل القضاء.

للرضا بعد القضاء سببان:

١: اليقين بأن الله مستحق للرضا في جميع الأحوال، وهذا رضا المحبة.

٢: الرضا لعلم العبد بأن ما أصابه من قضاء الله هو خير له، وهذا رضا حسن الظن بالله والتصديق بوعده.

• من ثواب الرضا عن الله أن يرضي الله عبده، والله عليم بما يرضي عبده.

• **الحمد**

• الحمد هو تمام الرضا.

• **الحمد له نوعان**: حمد له تعالى على ما يستحقه لنفسه، وحمد له على إحسانه إلى عبده.

• ورد في فضل الحَمَّادين (الذين يحمدون الله في السراء والضراء) أحاديث منها الصحيح وغيره.

• مما صح حديث عمران بن الحصين: «أفضل عباد الله تعالى يوم القيامة الحَمَّادون» رواه الطبراني.

• **الحمد على السراء يوجبه شكر النعمة، والحمد على الضراء يوجبه مشهدان:**

١: العلم بأن الله سبحانه مستحق للحمد لذاته، فلا يكون إلا حميداً له الحمد كله، وذلك لما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى.

٢: العلم بأن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختيار العبد لنفسه، ولهذا أدلة:

• قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ ولم يقل: علينا، والنفي والاستثناء هنا يفيدان الحصر.

• حديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

• **فقه الآية والحديث**: أن المؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر النعماء كل قضاء في حقه خير له.

• وأما الذي يخالف فلا يصبر أحياناً ولا يشكر أحياناً فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له.

• اليقين بهذه الحقيقة يعين على تحقيق مقامي الصبر والشكر.

• **مسألة: ما يُقضى على المؤمن من المعاصي هل هو خير له؟**

• **الذنوب في نفسها شر لأن الله يبغضها وقد يعاقب عليها، وعن هذه المسألة جوابان:**

• **الأول:** أن حديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له» فسره بعده بقوله: «إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» فهذا إنما يتناول ما أصاب العبد لا ما فعله العبد.

• **الجواب الثاني:** أن هذا في حق المؤمن الصبار الشكور؛ فيكون حاله بعد وقوع الذنب أحسن من حاله قبل وقوعه، لما يترتب عليه من الأحوال الإيمانية من التوبة والاستغفار والاستكثار من الأعمال الصالحة، واندفاع آفات مهلكة عنه كالعجب والغرور والتعالي والغفلة؛ فيكون تقدير الذنب عليه خير له باعتبار ما آل إليه حاله بعد الذنب.

• **الأسباب التي تندفع بها عقوبة السيئات عشرة:**

• التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، ودعاء المؤمنين، وإهداء ثواب الأعمال، والشفاعة، والمصائب المكفرة، والابتلاء في البرزخ، والابتلاء في عرصات القيامة، ورحمة أرحم الراحمين.

• من أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه.

أقسام أعمال القلوب

• أعمال قلبية تعبدية لله تعالى كمحبة الله ورجائه وخوفه وإخلاص القصد له.

• أعمال قلبية هي من لوازم عبادة الله وآثارها ومعينة عليها كمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ومحبة المؤمنين، ورحمتهم، وحسن الظن بهم، والغيرة على المحارم، والزهد في الدنيا والزهد فيما في أيدي الناس. ونحو ذلك من الأعمال القلبية التي يحبها الله ويثيب عليها.

• الأعمال القلبية التي تخلو من معاني التعبد قد تكون مباحة وقد تكون محرمة وقد تكون مكروهة.

الاقتران بين أعمال القلوب

• قال بعضهم: (من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرئ، ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد).

•"هذه المقولة عزاها أبو حامد الغزالي في "إحياء علوم الدين" لمكحول الدمشقي.

• كان العلماء يحذرون ممن يعرف عنه الإكثار من دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية.

• الذي يدعي المحبة وهو بعيد عن اتباع السنة والموالاة في الله والمعاداة في الله والغيرة على حرمات الله فدعواه كاذبة.

• «المتحابون بجلالي» قرن المحبة بالجلال تنبيه على ما في قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه مع التحاب وبذلك يكونون حافظين لحدود الله.

• **الصدق والإخلاص**

• **الإخلاص والاستعانة**

• **الإخلاص والتوكل**

• **الرضا والتوكل**

• الرضا والتوكل يكتنفان المقدور؛ فالتوكل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه.

• **الخوف والطمع**

• قال الله تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾.

• **الرغبة والرهبة**

• **الصبر واليقين**

• الإمامة في الدين مبناها على الصبر واليقين.

• **الصبر والشكر**

• **الصبر والمرحمة**

درجات الناس في أعمال القلوب

• الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات بإذن ربه.

• الرد على المرجئة والوعيدية في حكم الظالم لنفسه من أهل الإيمان.

عناية الأئمة بأعمال القلوب

مسالك الفرق في أعمال القلوب والرد على المخالفين

• اعتقاد بعضهم أن كون الأمور مقضية مقدَّرة يستلزم عدم نفع الأسباب

• ذهب بعضهم إلى أن التوكل والدعاء محض عبادة لا يجلب بهما منفعة ولا يدفع بهما مضرة.

• بيان المنهج الصحيح في الأسباب والرد على الغلاة والجفاة.

• الله تعالى يقدر الأمور ويقدر أسبابها من أفعال العباد وغيرها.

• الرقى والتداوي هو من بذل الأسباب

• الفرق بين الكلمات الدينية والكلمات الكونية

• غلط بعض المتصوفة في الاسترسال مع القدر والغفلة عن الشرع بدعوى التوكل والتفويض.

خطأ التسوية بين ما فرق الله بينه (ما أريد قدراً وما أريد شرعاً)

أفضى الأمر بغلاتهم إلى التسوية بين ما أمر الله به وما قدره الله من المعاصي والشرور.

يستشهدون في ذلك بكلمات مجملة نقلت عن بعض الأشياخ أو ببعض غلطاتهم.

مثال ذلك: قول بعضهم: ينبغي للعبد أن يكون مع الله كالميت بين يدي الغاسل إذا تضمن هذا ترك العمل بالأمر والنهي كان ضلالا عن الهدى.

- الموقف الصحيح من الكلمات المجملة لبعض الأشياخ من العباد والزهاد والعارفين.
- الكلام عن مقام الحزن.
- الخطأ في فهم مقام التوكل.

التوبة من البدعة

- البدعة أحب إلى إبليس من مجرد المعصية
- الغالب على المبتدع أنه يحسب أنه يحسن صنعاً ولذلك لا يتوب
- أسباب التوفيق للتوبة من البدعة

المحاذير:

- **الاغترار بالكرامات**
- **منهج أهل السنة في الكرامات**

– الكرامة لزوم الاستقامة

– تكون الكرامات في المكاشفات والتأثيرات

– القلوب لها من التأثير إصلاحاً وإفساداً ما ليس للأبدان

- الكرامات معروضة على ميزان الشريعة

• يعتقد بعض الجهلة والمبتدعة أن حصول بعض الخوارق لهم دليل على صلاحهم ورفعتهم

• **أقسام الناس في خوارق العادات:**

١ : من تكون كرامة له: وذلك إذا استعملها في طاعة الله، وهو حال أهل الإيمان والتقوى.

٢: من تكون فتنة واستدراجاً له: وذلك إذا استعملها في معصية، وهم أهل المعاصي والبدع.

٣: من تكون في حقهم بمنزلة المباحات، وهم الذين يستعملونها في أمور مباحة.

• **الاسترسال مع القدر**

يُنهى العبد عن الاسترسال مع القدر من غير حرص على فعل المأمور

كل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وإن كان من جنس المباحات

• **الغفلة عن الجمع بين مشهدي الربوبية والألوهية**

• **أقسام الناس في مشهدي الربوبية والألوهية:**

ق١ : من يغلب عليه مشهد الألوهية ويغفل عن مشهد الربوبية، وهو حال كثير من المتعبدة والمتفقهة.

• هؤلاء أحسنوا في تعظيم أوامر الشريعة، وأخطؤوا في غفلتهم عن مشهد الربوبية وآثارها، فلذلك تعرض لهم آفات من ضعف الاستعانة التوكل والرضا، وتظهر آثارها في التسخط والعجز والعجب.

ق٢: من يشهد مشهد الربوبية ويغفل عن مشهد الألوهية، وهو حال كثير من المتفقرة والصوفية

• هؤلاء يشهدون ربوبية الله جل وعلا وافتقارهم إليه ويستعينون به لكن على أهوائهم وأذواقهم غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته.

• هؤلاء يعبدون الله على مرادهم منه لا مراده منهم.

• ولذلك تنصرف هممهم إلى المقامات والأحوال التي يحصلون بها على خوارق العادات غافلين عن أحكام الشريعة.

• تعرض الشياطين لكثير منهم فتفتنهم بالأحوال الشيطانية ويظنونها أحوالاً ربانية.

• غلاتهم يظنون أن هذه هي غاية الحقيقة التي متى وصلوا إليها سقطت عنهم التكاليف.

• من هؤلاء من لا يميز بين المعصية والطاعة لغلبة مشهد القدر عليه فيعطل الأمر والنهي.

• من تأمل سيرهم وأحوالهم وجد كثيراً منهم آل به الأمر إلى الكفر والفسوق والعصيان، والعياذ بالله.

• كثير من هؤلاء يقع في جنس ما وقع فيه المشركون من الاحتجاج بالقدر على المعاصي، والتعبد بما لم يأذن به الله.

ق٣: من أعرض عن المشهدين، وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانته به؛ فهؤلاء شر الأقسام.

ق٤: القسم المحمود الذي جمع المشهدين فحقق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

• هؤلاء يستعينون بالله على طاعته، ويعبدون الله بما شرع.

• **الضلال في باب الأسباب**

• الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع.

• التوكل المأمور به هو ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع.

• **الذوق والوجد**

• الذوق الإيمان هو المذكور في الحديث الصحيح: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً».

• والود الإيماني هو المذكور في الحديث الصحيح: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وإن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله كما يكره أن يقذف في النار».

• **مسألة السماع**

• الذي عليه محققو المشايخ قول الجنيد: من تكلف السماع فُتِن به، ومن صادفه السماع استراح به.

• المراد بالسماع هنا سماع الأشعار والأناشيد التي ترقق القلوب وبعضها يذكّر بدلالة الإشارة والتنبيه

• تحريك القلوب بما يثير المحبة ويزيدها مطلوب من حيث الأصل.

• كان السلف يحركون القلوب بالمواعظ والتذكير والتلاوة، ولم يكونوا يجتمعون للسماع.

• لما طال الأمد صار في طوائف الأمة من ينكر المحبة كالمعتزلة، ومن يتطلبها بالسماع البدعي كبعض المتصوفة.

• اشتهر السماع البدعي عن المتصوفة وتوسعوا فيه إلى أنواع من الفسوق، بل بلغ الأمر ببعض غلاتهم إلى الكفر الصريح.

• ينتج لهم السماع من الأحوال النفسية نظير ما ينتج لعباد الأوثان.

• الاستدلال بحصول الأحوال على صحة السماع باطل.

• عدَّ الشافعي السماع من إحداث الزنادقة، قال: (خلَّفت ببغداد شيئاً أحدثه الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن).

• من سمع ولم يستمع لم يترتب على فعله نهي ولا ذم باتفاق الأئمة.

• من أخذ من بيت سمعه إشارة تناسب حاله لم يكن مذموماً، وقد فعله بعض السلف.

• أعظم ما يحرك القلوب استماع القرآن بقصد طلب الهدى والرحمة.

• المقاصد المطلوبة للمريدين تحصل بالسماع الإيماني القرآني النبوي الذي هو سماع النبيين والصديقين والصالحين ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ... ﴾ الآية، ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾.

• ذم الله المعرضين عن هذا السماع ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

• مسألة السماع مسألة كبيرة ومنتشرة وقد تكلم عنها شيخ الإسلام في مواضع، ولابن القيم كتاب مفرد في مسألة السماع.

• الاتحاد والحلول

• أنواع الاتحاد:

• الاتحاد المقيد بشيء بعينه، وهو قول بعض النصارى والغالية من الرافضة والنُّسَّاك كالحلاجية ونحوهم.

• الاتحاد المطلق الذي هو قول أهل وحدة الوجود الذين يزعمون أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق؛ من شر أقوال أهل الشرك.

• أنواع الحلول:

• الحلول المقيد في بعض الأشخاص.

• الحلول المطلق، وهو قول الجهمية الذين يزعمون أن ذات الله في كل مكان.

• **الفناء والاصطلام**

• الفناء يراد به ثلاثة معانٍ أحدهما صحيح والآخران بدعيان:

• **أنواع الفناء:**

الفناء عن إرادة السوى

• هذا الفناء معناه أن يغيب العبد بإرادة وجه الله عن إرادة ما سواه؛ فلا يخطر له خاطر الشرك والرياء والسمعة لقوة يقينه واجتماع قلبه على الإخلاص.

• يفنى بعبادة الله عن عبادة غيره، وبالتوكل عليه عن التوكل على غيره، وبمحبته عن محبة غيره، وبطاعته عن طاعة غيره، وهذا هو الفناء المحمود.

• الذي يخطر له خاطر الرياء أو إرادة الدنيا بعمل الآخرة ويدافعه مجاهد مخلص، والأول أحسن منه حالاً من هذا الوجه؛ كحال قارِئَيِ القرآن.

الفناء عن شهود السوى

• هذا الفناء يذكره بعض الصوفية ويمدحونه، وهو خطأ.

• يراد بهذا الفناء أن يفنى العبد عن شهود ما سوى الله تعالى؛ فيفنى بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته؛ بحيث يغيب عن شعوره بنفسه وبها سوى الله.

• هذا حال ناقص، قد يعرض لبعض السالكين، وليس من لوازم الطريق إلى الله، ولهذا لم يعرض للنبي صلى الله عليه وسلم والسابقين الأولين.

• من جعل هذا نهاية السالكين فهو ضال ضلالاً مبيناً، وكذلك من جعله من لوازم طريق الله فهو مخطئ.

• القول الصحيح فيه أنه من عوارض الطريق التي تعرض لبعض السالكين لضعف قلوبهم واحتمال أذهانهم عن بعض الحقائق والمعارف.

• من ذهب عقله بسبب يعذر به كقوة المحبة وضعف الاحتمال من غير أن يحصل منه سبب محظور كان معذوراً فلا يؤاخذ بما يصدر منه من الكلام في هذه الحال التي زال فيها عقله، ومن ذلك بعض العبارات المشتهرة عن بعض المتصوفة.

• قيل في أمثال هؤلاء: إنهم قوم آتاهم الله عقولاً وأحوالاً فسلب عقولهم وأبقى أحوالهم، وأسقط ما فرض بما سلب.

• من تطلب هذا الفناء بالسماع البدعي والرياضات المحرمة ونحو ذلك من الأسباب المحظورة لم يكن معذوراً، وإن كان لا يحكم بكفره في أصح القولين.

الفناء عن وجود السوى

• هذا الفناء معناه أن يفنى عن وجود ما سوى الله، بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق، وأن الوجود واحد بالعين، فهذا قول أهل الإلحاد والاتحاد الذين هم من أضل العباد.

• بدعة الملامية

• الملامية قوم يفعلون ما يلامون عليه في الظاهر ويخالفونه في الباطن ليلومهم الناس على ما ظهر منهم، ويزعمون أن ذلك أدعى لتحقيق الإخلاص.

• كان مبدأ أمرهم أنهم يلبسون ما لا يليق بأهل الصلاح من المبالغة في الزينة والثياب ليظهروا للناس أنهم ليسو من أهل الزهد والتنسك وهم في خاصة أمرهم بعيدون عما يظهرون.

• ثم استدرجهم الشيطان إلى أن وقعوا في المكروهات ثم المحرمات واشتهروا بذلك.

• هؤلاء الملامية وقعوا باختيارهم فيما يبغضه الله ورسوله، وهم مستحقون للوم والعقاب.

الأغاليط

• تنقص مقام التوكل.

• وقع الغلط في تنقص مقام التوكل في جانبين:

• الجانب الأول: زعم بعضهم أن التوكل من مقامات العامة

• هؤلاء حصروا معنى التوكل في الأمور الدنيوية، كقول بعضهم: (المتوكل يطلب حظوظه)؛ وقول آخرين: (التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت، والخاص لا يناضل عن نفسه)، قالوا: وأما الخاصة فهم دائرون مع ما يقدره الله.

• ممن وقع في هذا الغلط شيخ الإسلام الهروي صاحب كتاب "علل المقامات"، وعنه ابن العريف في كتابه "محاسن المجالس".

الرد عليهم من ثلاثة وجوه:

١: أن التوكل على الله لا يحصر في الأمور الدنيوية، بل التوكل عليه في الأمور الدينية أعظم وأجلّ.

٢: التوكل من الأمور الدينية التي لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها، والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه.

٣: التوكل محبوب لله مرضي به مأمور به دائماً، وقد أمر به أخصَّ خلقه؛ فلا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين.

• من أعرض عن التوكل على الله فهو عاصٍ لله مخالف لأمره بالتوكل؛ فكيف يكون من الخاصة؟

• ومن الناس من يكون توكله ودعاؤه في أمور محرمة من الإثم والعدوان، وهذا ظالم لنفسه.

• والتحقيق أن مقام التوكل على درجات ينقسم الناس فيها إلى عموم وخصوص، فمن كان توكله في أمور دنيوية وغافلاً عن التوكل في الأمور الدينية

فهو من العامة، ومن كان توكله في اتباع رضوان الله فهو من الخاصة.

• **الجانب الثاني: أن التوكل لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة وإنما هو عبادة محضة، وأن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض.**

• هذا الغلط قاله بعض المشايخ بسبب ظنهم أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة أيضاً تكون من العبد.

• حديث عمران بن الحصين وحديث علي بن أبي طالب وحديث أبي خزامة هي في هذا الباب.

• وهذا راجع إلى الخطأ في باب الأسباب، وسيأتي بيانه.

• **الكلام عن مقام الحزن**

• **اعتبر بعضهم الحزن مقاماً من مقامات العبودية**

• لم يؤمر بالحزن المنافي للرضا قط، ومع أنه لا فائدة فيه؛ فقد يكون فيه مضرة.

• يعفى عن الحزن إذا لم يقترن به ما يكرهه الله.

• البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، ولا ينافي الرضا، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه.

• يبين ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بكى على الميت قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

• لما مات علي بن الفضيل بن عياض ضحك أبوه من باب الرضا ودفع الحزن، وحاله حسنة بالنسبة لأهل الجزع، لكنها ليست حال كمال، لأن الكمال ما اقتضاه هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

• رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالى هي الحال الأكمل، وهي حال النبي صلى الله عليه وسلم.

• أقسام الناس في الصبر والمرحمة:

ق١: من يكون فيه صبر بقسوة.

ق٢: من يكون فيه رحمة بجزع.

ق٣: من يكون فيه القسوة والجزع.

ق٤: من يكون صبر ورحمة، فيصبر على ما يصيبه ويرحم الناس، وهذا هو القسم المحمود.

• أغلاط المشايخ:

قول القائل: (ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك، وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك) **فيه خطأ من جهتين:**

• **الأولى:** أنه ظن أن الجنة لا يدخل فيها إلا التنعم بالمخلوقات، والحق أن أعظم نعيمها رؤية الله تعالى، وأهلها يلهمون التسبيح كما يلهمون النَّفَس، وهو يبين أن غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته، ثم إن الرغبة فيما رغَّب الله فيه من دلائل صدق المحبة والانقياد.

• **الثانية:** أن هذه الدعوى سببها ضعف اليقين وانصراف القلب عن التفكر في شدة العذاب الذي أنذر الله عباده به ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ فمن زعم أن هذا الإنذار لا يحرك قلبه فقد خالف مقصد الإنذار.

• إذا كان مراده أن الله لو لم يخلق جنة ولم يخلق ناراً لكن يجب أن يُعبَد ويُتَقَرَّب إليه؛ كان نظير قول عمر: «**نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه**».

لما سمع بعضهم قول الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ قال: فأين من يريد الله؟

قول آخر في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ قال: إذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه؟

• هؤلاء ظنوا أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات.

• التحقيق أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله.

زعم بعض الغالطين من النُّسَّاك أن كمال العبد أن لا تبقى له إرادة أصلاً.

• سبب هذا الزعم الكلام في حال الفناء، وأن الفاني الذي يشتغل بمحبوبه لا إرادة له.

• وجود الإرادة شيء والشعور بها شيء آخر، وهو لما لم يشعر بها ظنَّ انتفاءها، وهو غلط.

• العبد لا يُتصوَّر أن يتحرك قط إلا عن حب وبغض وإرادة.

• أصدق الأسماء حارث وهمام لأن فكل إنسان له حرث وهو العمل، وله همٌّ هو أصل الإرادة.

مسائل وفوائد

• **تنبيه: غالب هذه المسائل محل بحثها في كتب الاعتقاد، وإنما ذكرت هنا لمناسبتين:**

• **الأولى:** أن ما يتعلق منها بالصفات له أثره على السالكين.

• **الثانية:** أن غالب المخالفين في هذا الباب من أهل البدع، ولبدعهم في السلوك أصول من بدعهم في الاعتقاد.

• هذا يفيد أن تصحيح الاعتقاد أصل مهم في علم السلوك.

• **إثبات صفة المحبة لله تعالى**

• دلت نصوص الكتاب والسنة على إثبات صفة المحبة لله تعالى وأنه يحب المؤمنين والمتقين والتوابين والمتطهرين محبة حقيقية.

• أجمع السلف على إثبات هذه الصفة، وخالف في ذلك المعطلة.

• الجهمية أنكرت المحبة من الطرفين لزعمهم أن المحبة لا تكون إلا لتناسب بين المحب والمحبوب وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة.

• أول من ابتدع هذه البدعة في الإسلام هو الجعد بن درهم في أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق.

• ثم أخذ عنه هذه البدعة الجهم بن صفوان فأظهرها وناظر عليه فقتله سَلْم بن أحوز أمير خراسان بها.

• ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم في خلافة المأمون.

• أصل قولهم هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة من البراهمة والمتفلسفة ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون أن الرب ليس له صفة ثبوتية أصلاً.

• وهؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل عليه السلام وهم يعبدون الكواكب ويبنون الهياكل للعقول والنجوم وغيرها.

• إنكار محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكار لكونه إلها معبوداً كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً.

• **الخلة أخص من المحبة**

• **إثبات صفة التكليم**

• أنكرته المعطلة لإنكارهم أن تقوم به تعالى صفة من الصفات أو فعل من الأفعال.

• **بدعة تأويل الصفات**

• لما كان الإسلام ظاهراً والقرآن متلواً لا يمكن جحده لمن أظهر الإسلام سلكوا طريق التأويل وتحريف الكلم عن مواضعه.

• فتأولوا محبة العباد لربهم بمجرد محبتهم لطاعته والتقرب إليه.

• وهذا جهل عظيم فإن التقرب إليه تابع لمحبته وفرع عنه.

• من كان لا يعمل لغيره إلا لعوض يناله منه أو لدفع عقوبة فإنه يكون معاوضاً له أو مفتدياً منه لا يكون محباً له.

• **دعوى المجاز**

• ادعى بعضهم وجود مجاز حذف في نصوص الصفات.

• الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة.

• معنى نفي الإيمان في قوله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين».

• محبة صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وقرابته.

• درجات محبة القلب للبشر

• العَلاقة، ثم الصَّبابة، ثم الغرام، ثم العشق، ثم التَّتيُّم وهو التعبد للمحبوب، والمُتيَّم المعبود، وتيم الله عبد الله.

الوصايا

• الإكثار من ذكر الله بالقلب واللسان.

• ملازمة الاستغفار.

• العبد بين نعمة الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار.

• قوام الدين بالتوحيد والاستغفار.

المثال الثالث: مقاصد مقدّمة تفسير ابن كثير

المقصد العام للمقدّمة: بيان جملة من المسائل المهمة في أصول التفسير وعلوم القرآن لتكون مقدّمة ينتفع بها من يقرأ التفسير.

المقاصد الفرعية:

أ: بيان بعض الفوائد والقواعد في أصول التفسير

ب: بيان فضل القرآن

ج: جمع القرآن وكتابة المصاحف

د: نزول القرآن على سبعة أحرف

هـ: آداب تلاوة القرآن وأحكامها

و: ذكر فوائد متفرّقة

ترتيب مباحث مقدمة ابن كثير على مقاصدها:

أ: بيان بعض الفوائد والقواعد في أصول التفسير:

- مقدمة (وفيها بيان حكم التفسير وفضله)
- بيان أحسن طرق التفسير
- كيف نفسر ما لا نجد تفسيره في الوحيين ولا في أقوال الصحابة وفي التحذير من التفسير بالرأي

ب: بيان فضل القرآن:

- كتاب فضائل القرآن
- نزول السكينة والملائكة عند القراءة
- فضل القرآن وما جاء في أنه تِركَةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم

- الوصايا بكتاب الله
- التغني بالقرآن ومعناه
- اغتباط صاحب القرآن
- خيركم من تعلم القرآن وعلمه
- الآثار المروية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في فضل القرآن.

ج: جمع القرآن وكتابة المصاحف:

- معارضة النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام بالقرآن
- القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
- جمع القرآن قبل خلافة عثمان رضي الله عنه
- جمع عثمان رضي الله عنه وجمعه للقرآن
- تأليف القرآن وترتيبه
- نقط المصحف وشكله وتقسيمه

د: نزول القرآن على سبعة أحرف:

- نزول القرآن على سبعة أحرف
- معنى الأحرف السبعة

هـ: آداب تلاوة القرآن وأحكامها: (لكثـرة الموضوعات في هذا المقصد قسّمت إلى مقاصد فرعية)

١ : وجوب الإخلاص في تلاوة القرآن

- من راءى بقراءة القرآن أو تَأَكَّل به أو فجر به

٢: فضل تلاوة القرآن

- كتاب الجامع لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن وفضائله وفضل أهله
- كتاب الجامع لأحاديث شتى تتعلق بتلاوة القرآن وفضائله وفضل أهله (٢)

٣: فضل حفظ القرآن

- القراءة عن ظهر قلب
- استذكار القرآن وتعاهده
- نسيان القرآن
- ذكر الدعاء المأثور لحفظ القرآن وطرد النسيان والتكلم في ضعفه

٤: ترتيل القرآن وتجويد تلاوته

- الترتيل في القراءة
- مدّ القراءة والترجيع
- حسن الصوت بالقراءة والاستماع من الغير وقول حسبك للقارئ

٥: أحكام متفرّقة في تلاوة القرآن

- القراءة على الدابة وتعليم الصبيان القرآن
- فصل هل يقول: (سورة كذا)
- في كم يقرأ القرآن؟ والبكاء عند القراءة.
- معنى حديث: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم...».

و: ذكر فوائد متفرّقة:

- المكي والمدني، وعدد كلمات القرآن وحروفه، والتحزيب والتجزئة
- معنى السورة والآية والكلمة

تنبيهات:

١: ما لوّن بالأزرق روابط للموضوعات المنشورة في القسم وليس تلخيصاً للمسائل التي ذكرها ابن كثير رحمه الله.

٢: هذه الموضوعات أعيد ترتيبها على ترتيب المقاصد وليس على ترتيب أصل الكتاب.

٣: قد يكون في بعض ما ذكره ابن كثير في بعض الموضوعات ما يتعلّق بمقاصد أخرى غير التي أدرج رابط الموضوع تحتها فيلحق كلّ مسألة بمقصدها.

٤: يبقى على الطالب أن يلخّص ما ذكر في تلك الموضوعات؛ فيستبدل ما كتب بالأزرق بأسماء المسائل التي ذكرها ابن كثير رحمه الله وأهم الأدلة والفوائد، ويصوغ ذلك بعبارة مختصرة.

توضيحات:

- لتوضيح وتيسير طريقة تلخيص المقاصد نقسّم العمل إلى مراحل:

المرحلة الأولى: استخلاص المسائل من الموضوعات المذكورة تحت كلّ مقصد، وترقيمها، وتلخيص كلام المؤلّف في كل مسألة.

المرحلة الثانية: إعادة النظر في ترتيب المسائل المذكورة تحت كلّ مقصد، فإذا رأينا أنّ بعض المسائل أنسب لبعض المقاصد نقلناها إليها.

المرحلة الثالثة: ترتيب المسائل تحت كلّ مقصد ترتيباً موضوعياً.

المرحلة الرابعة: تلخيص المقاصد للكتاب، وذلك بذكر خلاصة القول تحت كلّ مقصد وأهم مسائله وما استند المؤلّف إليه في تبيانها.

تنبيهات:

- قد تستغرق هذه الطريقة من الطالب وقتا أطول من التلخيص المجرّد لكنّها أقرب إلى الإتقان، وفيما بعد يمكن للطالب أن يختصر على نفسه بعض الخطوات بسبب كثرة التمرّن والتدريب.

- الاختلاف اليسير في عدد المسائل لا ينقص صاحب التلخيص فقد يفوت الطالب بعض المسائل في أوّل الأمر، وبالتمرّن والتدريب يكتسب مهارة التفطّن للمسائل الخفية.

- فيما يلي مثال لاستخلاص المسائل من الموضوعات المندرجة تحت المقصد الأول، وهي المرحلة الأولى، وسأعود للإكمال في أقرب فرصة بإذن الله تعالى.

المقصد الأول: بيان بعض الفوائد والقواعد في أصول التفسير

١: وجوب الإيمان بالقرآن ووعيد من كذّب به

- قال الله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

- قال ابن كثير: (فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده بنصِّ الله تعالى).

٢: الإنذار بالقرآن من مقاصد إرسال الرسل:

- قال الله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

قال ابن كثير: (فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له).

٣: عموم رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين

- قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بعثت إلى الأحمر والأسود». قال مجاهد: يعني: الإنس والجن.

- قال ابن كثير: (فهو -صلوات الله وسلامه عليه- رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مبلغا لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾).

٤: الأمر بتدبّر القرآن

- قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

٥: حكم تفسير القرآن وبيان معانيه للناس

- قال ابن كثير: (فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه).

- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

٦: ذمّ المعرضين عن تدبّر كتاب اللّه

– قال ابن كثير: (ذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله، فعلينا -أيها المسلمون- أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه).

– قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

لطيفة:

قال ابن كثير: (ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم).

٦: أحسن طرق التفسير:

٦-أ: تفسير القرآن بالقرآن.

– ما أجمل في موضع من القرآن فإنه قد فسر في موضع آخر.

٦-ب: تفسير القرآن بالسنّة.

– السنّة مبيّنة للقرآن وشارحة له.

– قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

– وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

- السنّة وحي من الله إلا أنها لا تُتلى كما يُتلى القرآن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» يعني: السنة.

- قال الشافعي: (كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾).

٦-ج: تفسير القرآن بأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

- إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنّة رجعنا إلى أقوال الصحابة رضي الله عنهم

- الصحابة أعلم الناس بالقرآن لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح.

- علماء الصحابة وكبراؤهم لهم مزيد عناية بالعلم بالقرآن كالخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس.

علم ابن مسعود رضي الله عنه بتفسير القرآن:

- قال ابن مسعود: «**والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته**». رواه ابن جرير.

- وقال ابن مسعود أيضاً: «**كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن**».

- وقال أبو عبد الرحمن السلمي: «**حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا**».

علم ابن عباس رضي الله عنهما بتفسير القرآن

- دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل».

- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**نعم ترجمان القرآن ابن عباس**». رواه ابن جرير وصحّحه ابن كثير وقال: (وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعمر بعده ابن عباس ستا وثلاثين سنة؛ فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود رضي الله عنه؟!!).

- وقال الأعمش عن أبي وائل: «**استخلف عليٌّ عبدَ الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية: سورة النور، ففسرها تفسيرا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا**».

٧: حكم رواية الإسرائيليات:

- عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري.

- كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

- الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد.

٧-أ: أقسام الإسرائيليات

- **الإسرائيليات على ثلاثة أقسام:**

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني.

٧-ب: من أسباب اختلاف المفسّرين اختلاف الأخبار المرويّة عن بني إسرائيل

قال ابن كثير: (ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرا، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعددهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم).

٧-ج: حكم نقل الخلاف عن بني إسرائيل

- قال ابن كثير: (نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف: ٢٢]).

- اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما.

- ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال في مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ فإنه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

٧-د: أصول وآداب حكاية الخلاف في المسائل العلمية

- أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم.

- من حكى خلافا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه. أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضا.

- مَن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ.

- مَن نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور.

٨: تفسير القرآن بأقوال التابعين

- قال ابن كثير: (إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة؛ فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين).

- من أئمة التابعين في التفسير: مجاهد بن جبر وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبو العالية الرياحي، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم.

- إذا أجمع التابعون على تفسير فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم.

- من أقوال التابعين في التفسير أقوال فيها تنوّع في الدلالة على المراد ويقع بسبب ذلك تباين في الألفاظ وهي ترجع إلى معنى واحد في حقيقة الأمر؛ فقد يظنّها الظان اختلافاً وليست كذلك.

- بيان ذلك: أن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من المواضع.

٩: علم مجاهد بن جبر بالتفسير

- قال مجاهد: «**عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها**». رواه ابن إسحاق.

- قال ابن أبي مليكة: «**رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله**».

- قال ابن كثير: (ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به).

١٠: هل تفسير التابعي حجّة؟

- قال شعبة بن الحجاج وغيره: «**أقوال التابعين في الفروع ليست حجة؟ فكيف تكون حجة في التفسير؟**».

- قال ابن كثير: (يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة).

١١: حكم التفسير بالرأي

- تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام.

- عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قال في القرآن برأيه، -أو بما لا يعلم-، فليتبوأ مقعده من النار». رواه الترمذي والنسائي وابن جرير.

- عن جندب بن جنادة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ». رواه أبو داوود والترمذي والنسائي، وفي لفظ لهم: «من قال في كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ».

- قال ابن كثير: (لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه).

١٢: تحرّج بعض السلف عن التفسير خشية القول فيه بغير علم

- قال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: «**أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم؟!**».

- عن ابن أبي مليكة «**أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها**». رواه ابن جرير وقال ابن كثير: (إسناده صحيح).

- قال عبيد الله بن عمر: «**لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع**». رواه ابن جرير.

- قال محمد بن سيرين: سألت عَبيدة يعني السلماني عن آية من القرآن فقال: «**ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن فاتق الله، وعليك بالسداد**».

- قال مسروق بن الأجدع: «**اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله**». رواه أبو عبيد.

- قال إبراهيم النخعي: «**كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه**». رواه أبو عبيد.

- وقال الليث، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: «**إنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن**».

- عن يزيد بن أبي يزيد قال: «**كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع**».

١٣: توجيه الآثار المرويّة عن بعض السلف في التحرّج من التفسير

- قال ابن كثير: (فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا، فلا حرج عليه؛ ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد).

- كما يجب سكوت المرء عما لا علم له به، فكذلك يجب عليه القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

١٤: تنبيه على ضعف حديث في التفسير النبوي

- ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «**ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفسر شيئا من القرآن إلا آيا بعددٍ علَّمهن إياه جبريل عليه السلام**». رواه ابن جرير.

- قال عنه ابن كثير: (حديث منكر غريب).

- وجّه ابن جرير هذا الحديث بأنّه محمول على ما لا يُعلم إلا بالتوقيف من أمور الغيب مما علّمه إيّاه جبريل.

- قال ابن كثير: (وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهله، كما صرح بذلك ابن عباس).

- عن أبي الزناد قال: قال ابن عباس: «**التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله**». رواه ابن جرير.

المقصد الثاني: بيان فضل القرآن

ذكر ابن كثير رحمه الله تحت هذا المقصد جملة من المسائل والأدلة هذا تلخيصها:

١: هيمنة القرآن على ما قبله من الكتب

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾.

- عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ قال: «**المهيمن: الأمين**». قال: «**القرآن أمين على كل كتاب قبله**». وفي رواية: (شهيدا عليه). رواه ابن جرير وعلقه البخاري.

- وقال سفيان الثوري وغير واحد من الأئمة عن أبي إسحاق السبيعي، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ قال: «**مؤتمنا**».

- قال ابن كثير: (وبنحو ذلك قال مجاهد والسدي وقتادة وابن جريج والحسن البصري وغير واحد من أئمة السلف).

- أصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه.

- قدم ابن كثير الفضائل قبل التفسير وذكر فضل كل سورة قبل تفسيرها ليكون ذلك باعثا على حفظ القرآن وفهمه والعمل بما فيه.

٢: الأحاديث الواردة في فضل القرآن

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». رواه البخاري.

- في هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل معجزة أعطيها نبي من الأنبياء؛ لأنها معجزة باقية مؤثّرة.

- عن الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنها ستكون فتنة» فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟

قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم». رواه أحمد والترمذي واللفظ له، وفي إسناده الحارث الأعور متكلّم فيه، قال ابن كثير: (قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما أنه تعمد الكذب في الحديث).

- قال ابن كثير: (وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم).

- عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله عز وجل، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يعوج فيقوم، لا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول لكم الم حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر». رواه أبو عبيد، وفي إسناده مقال.

٣: من فضائل القرآن أنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله

- من فضل القرآن أنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾.

- تحدّى الله العرب أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا وهم أهل الفصاحة والبلاغة؛ قال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

٤: مدّة نزول الوحي على النبيّ صلى الله عليه وسلم

- عن أبي سلمة قال: أخبرتني عائشة وابن عباس قالا: «**لبث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشرا**» رواه البخاري والنسائي.

- قال ابن كثير: (أما إقامته بالمدينة عشرا فهذا مما لا خلاف فيه، وأما إقامته بمكة بعد النبوة فالمشهور ثلاث عشرة سنة؛ لأنه، عليه الصلاة والسلام، أوحي إليه وهو ابن أربعين سنة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح).

- يحتمل أنه حذف ما زاد على العشرة اختصارا في الكلام على عادة العرب في حذف الكسور، أنهما إنما اعتبرا قرن جبريل به عليه السلام؛ لما روى الإمام أحمد أنه قرن به ميكائيل في ابتداء الأمر يلقي إليه الكلمة والشيء، ثم قرن به جبريل.

- ابتُدئ نزول القرآن في مكان شريف وهو البلد الحرام، وفي زمن شريف وهو شهر رمضان، فاجتمع له شرف الزمان والمكان.

٥: الملَك الموكّل بنزول الوحي

– قال معتمر بن سليمان: (سمعت أبي عن أبي عثمان قال: أنبئت أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من هذا؟» أو كما قال، قالت: هذا دحية الكلبي، فلما قام قالت: والله ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يخبر خبر جبريل، أو كما قال.

قال أبي: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أسامة بن زيد). رواه البخاري.

– قال ابن كثير: (والغرض من إيراد هذا الحديث هاهنا أن السفير بين الله وبين محمد صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام).

– جبريل عليه السلام ملك كريم ذو وجاهة وجلالة ومكانة كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ الآيات.

٦: تتابع الوحي على النبيّ صلى اللّه عليه وسلم

– عن ابن شهاب الزهري قال: «**أخبرني أنس بن مالك أن الله تابع الوحي على رسوله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي، ثم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد**». رواه البخاري ومسلم.

– تابع الله نزول الوحي على رسوله صلى الله عليه وسلم شيئا بعد شيء كل وقت بما يحتاج إليه.

– فتر الوحي بعد نزول: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ واختلف في مدة هذه الفترة حتى قيل إنها قريب من سنتين أو أكثر، ثم حمي الوحي وتتابع.

– أول شيء نزل بعد تلك الفترة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾.

- عن جندب بن عبد الله البجلي قال: «**اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا تركك، فأنزل الله تعالى:** ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾». رواه البخاري ومسلم.

- في الحديث دلالة على محبّة الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم وعنايته به إذ جعل الوحي عليه متتابعاً.

- إنما أنزل القرآن مفرقا ليكون ذلك أبلغ في العناية والإكرام.

٧: شدّة نزول الوحي على النبي صلى اللّه عليه وسلم

- روى البخاري حديث يعلى بن أمية أنه كان يقول: ليتني أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه الوحي. فذكر الحديث الذي سأل عمن أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب وعليه جبة، قال: فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم فجئه الوحي، فأشار عمر إلى يعلى أي: تعال، فجاء يعلى، فأدخل رأسه فإذا هو محمر الوجه يغط كذلك ساعة، ثم سري عنه، فقال: «أين الذي سألني عن العمرة آنفا؟» فذكر أمره بنزع الجبة وغسل الطيب.

٨: معرفة المكّي والمدنيّ

- القرآن منه مكّي ومدني؛ فالمكي: ما نزل قبل الهجرة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة، سواء أكان بالمدينة أم بغيرها من البلاد، حتى ولو كان بمكة أو عرفة.

- أجمعوا على سور أنها من المكي وأخر أنها من المدني، واختلفوا في أخر.

- أراد بعض العلماء ضبط الفروق بين المكّي والمدني بضوابط كليّة، وفيما ذكروه عًسرٌ ونظر.

- قال بعضهم: كل سورة في أولها شيء من الحروف المقطعة فهي مكية إلا البقرة وآل عمران، كما أن كل سورة فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهي مدنية.

- وقال علقمة: (كل شيء في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنه أنزل بالمدينة، وما كان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فإنه أنزل بمكة) رواه أبو عبيد.

- وقال ميمون بن مهران: (ما كان في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ فإنه مكي، وما كان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنه مدني). رواه أبو عبيد.

- قال بعض العلماء بتكرر نزول بعض السور مرّة بمكة ومرّة بالمدينة.

- بعض العلماء يقول بالاستثناء في بعض السور؛ فيستثني من بعض السور المكيّة آيات يدّعي أنها من المدني.

- الصواب أن تمييز المكيّ من المدني يرجع فيه إلى ما دلّ عليه الدليل الصحيح.

- قال علي بن أبي طلحة: (نزلت بالمدينة سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، والذين كفروا، والفتح، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والحواريون، والتغابن، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ والفجر، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ و﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ و﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ و﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ﴾ و﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ وسائر ذلك بمكة).

- ذكر علي بن أبي طلحة في المدني سورا في كونها مدنية نظر، وفاته الحجرات والمعوذات.

٩: نزول القرآن باللسان العربي

- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾، وقال تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾.

– عن أنس بن مالك قال: (فأمر عثمان بن عفان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: «**إذا اختلفتم أنتم وزيد في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم**» ففعلوا). رواه البخاري.

– عن جابر بن سمرة، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: «**لا يُمْلِيَنَّ في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش أو غلمان ثقيف**». رواه ابن أبي داوود، وقال ابن ثير: (هذا إسناد صحيح).

– عن عبد الله بن فضالة قال: (لما أراد عمر أن يكتب الإمام أقعد له نفرا من أصحابه وقال: «**إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر، فإن القرآن نزل بلغة رجل من مضر**». رواه البخاري.

– قال البخاري: (نزل القرآن بلسان قريش والعرب، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾).

– القرآن نزل بلغة قريش، وقريش خلاصة العرب.

١٠: نزول السكينة والملائكة عند القراءة

– قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾، وجاء في بعض التفاسير: أن الملائكة تشهده.

– عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» رواه مسلم.

– عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟

فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون». رواه البخاري ومسلم.

- عن أسيد بن الحضير قال: (بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس فسكت فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبا منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «اقرأ يابن حضير، اقرأ يابن حضير». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريبا، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها قال: «أو تدري ما ذاك؟». قال: لا، قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». رواه البخاري معلّقاً.

- عن أسيد بن حضير (أنه كان على ظهر بيته يقرأ القرآن وهو حسن الصوت..) رواه أبو عبيد، ثم ذكر مثل هذا الحديث أو نحوه.

- عن أسيد بن حضير قال: (قلت: يا رسول الله، بينما أنا أقرأ البارحة بسورة، فلما انتهيت إلى آخرها سمعت وجبة من خلفي، حتى ظننت أن فرسي تطلق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقرأ أبا عتيك» مرتين قال: فالتفت إلى أمثال المصابيح ملء بين السماء والأرض، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقرأ أبا عتيك». فقال: والله ما استطعت أن أمضي فقال: «تلك الملائكة تنزلت لقراءة القرآن، أما إنك لو مضيت لرأيت الأعاجيب»). رواه أبو عبيد.

١١: القرآن أعظم إرث النبي صلى اللّه عليه وسلم

- عن عبد العزيز بن رفيع قال: دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس، فقال له شداد بن معقل: أترك النبي صلى الله عليه وسلم من شيء؟ قال: «ما ترك إلا ما بين الدفتين».

قال: ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه فقال: «ما ترك إلا ما بين الدفتين». تفرد به البخاري.

– معناه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يرّث شيئاً من الدنيا، وإنما ترك لنا القرآن، والسنّة مفسّرة للقرآن مبيّنة له.

– قال عمرو بن الحارث أخو جويرية بنت الحارث: «ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا».

– وفي حديث أبي الدرداء: «إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة».

١٢: فضل القرآن على سائر الكلام

– عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، طعمها طيب وريحها طيب. والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها». رواه البخاري.

– طيب الرائحة دار مع القرآن وجودا وعدما؛ فدل على شرفه على ما سواه من الكلام الصادر من البر والفاجر.

– كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة، وهذا القرآن نزل منجما بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به وبمن أنزله عليه.

١٣: الوصايا بكتاب الله

- قال طلحة بن مصرف: سألت عبد الله بن أبي أوفى: أوصى النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: «لا»؛ فقلت: فكيف كتب على الناس الوصية، أُمروا بها ولم يوص؟ قال: «**أوصى بكتاب الله عز وجل**». رواه البخاري.

- المقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى الناس باتّباع كتاب الله عز وجل.

- النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك شيئا من الدنيا يورث عنه، وإنما ترك ماله صدقة جارية من بعده، فلم يحتج إلى وصية في ذلك.

- لم يوصِ النبي صلى الله عليه وسلم إلى خليفة يكون بعده على التنصيص؛ لأن الأمر كان ظاهرا من إشارته وإيمائه إلى الصديق؛ لحديث «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

١٤: معنى التغنّي بالقرآن وفضل حسن الصوت بالقرآن

- عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم يأذن الله لشيء، ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن»، وقال صاحب له: يريد يجهر به. رواه البخاري.

- قال حرملة: (سمعت ابن عيينة يقول: **معناه:** (يستغني به) فقال لي الشافعي: ليس هو هكذا، ولو كان هكذا لكان يتغانى به، وإنما هو يتحزن ويترنم به).

- قال ابن كثير: (**معناه:** أن الله ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك).

- عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته». رواه ابن ماجة بسند جيّد.

- الله تعالى يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم لكن استماع الله لقراءة النبي والمؤمنين استماع تشريف.

- عن عقبة بن عامر قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ونحن في المسجد نتدارس القرآن، فقال: «تعلموا كتاب الله واقتنوه». قال: وحسبت أنه قال: «وتغنوا به، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تفلتا من المخاض من العقل». رواه أبو عبيد، وفي رواية له: «واقتنوه وتغنوا به» ولم يشك، وهكذا رواه أحمد والنسائي.

- عن المهاصر بن حبيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار، وتغنوه واقتنوه، واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون».

- قال ابن كثير: (وهذا مرسل).

- قال أبو عبيد: (قوله: «تغنوه»: يعني: اجعلوه غناءكم من الفقر، ولا تعدوا الإقلال منه فقرا. وقوله: «واقتنوه»، يقول: اقتنوه، كما تقتنون الأموال: اجعلوه مالكم).

- عن فضالة بن عبيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته» رواه أبو عبيد وابن ماجة.

- قال أبو عبيد: (يعني: الاستماع. وقوله في الحديث الآخر: «ما أذن الله لشيء» أي: ما استمع).

- عن السائب قال: قال لي سعد: يابن أخي، هل قرأت القرآن؟ قلت: نعم. قال: غن به، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «غنوا بالقرآن، ليس منا من لم يغن بالقرآن، وابكوا، فإن لم تقدروا على البكاء فتباكوا». رواه أبو القاسم البغوي.

- عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». رواه أبو داوود.

- عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا». رواه ابن ماجة.

- عن سعد بن أبي وقاص قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال وكيع: يعني: يستغنى به). رواه أحمد.

- قال عبيد الله بن أبي يزيد: مرَّ بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته فدخلنا عليه، فإذا رجل رث البيت، رث الهيئة، فانتسبنا له، فقال: تجار كسبة، فسمعته يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال: فقلت لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت قال: يحسنه ما استطاع). رواه أبو داود.

- قال ابن كثير: (فقد فهم من هذا أن السلف، رضي الله عنهم، إنما فهموا من التغني بالقرآن: إنما هو تحسين الصوت به، وتحزينه، كما قاله الأئمة، رحمهم الله).

- واستدلّ لذلك بحديث البراء بن عازب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «زينوا القرآن بأصواتكم». رواه أبو داوود والنسائي وابن ماجه.

- المراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتحزينه والتخشع به،

- عن أبي موسى الأشعري قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو رأيتني وأنا أستمع قراءتك البارحة، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود». قلت: أما والله لو علمت أنك تستمع قراءتي لحبرتها لك تحبيرا). رواه مسلم.

- قال ابن كثير: (والغرض أن أبا موسى قال: لو أعلم أنك تستمع لحبرته لك تحبيرا، فدل على جواز تعاطي ذلك وتكلفه).

١٥: من عُرف بحسن الصوت من الصحابة

- عن أبي سلمة قال: «**كان عمر إذا رأى أبا موسى قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده**». رواه أبو عبيد.

- قال أبو عثمان النهدي: «**كان أبو موسى يصلي بنا، فلو قلت: إني لم أسمع صوت صنج قط، ولا بربط قط، ولا شيئا قط أحسن من صوته**».

- عن عائشة قالت: (أبطأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة بعد العشاء، ثم جئت فقال: «أين كنت؟». قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد، قالت: فقام فقمت معه حتى استمع له، ثم التفت إلي فقال: «هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا»). رواه ابن ماجه بإسناد جيد.

- عن جبير بن مطعم قال: «**سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا أو قال: قراءة منه**». متفق عليه.

- أحسن القراءة ما كان عن خشوع القلب.

١٦: أحسن الناس صوتاً بالقرآن أخشاهم لله

قال طاووس بن كيسان: «**أحسن الناس صوتا بالقرآن أخشاهم لله**». رواه أبو عبيد.

- عن طاوس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أي الناس أحسن صوتا بالقرآن؟ فقال: «الذي إذا سمعته رأيته يخشى الله»). رواه أبو عبيد.

١٧: تحسين الصوت بالقرآن وحكم القراءة بالألحان

- قال ابن كثير: (المطلوب شرعا إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك).

- عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابيين، وسيجيء قوم من بعدي يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم». رواه أبو عبيد.

- عن عُلَيم قال: (كنا على سطح ومعنا رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. قال يزيد: لا أعلمه إلا قال: عابس الغفاري، فرأى الناس يخرجون في الطاعون فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يفرون من الطاعون، فقال: يا طاعون خذني، فقالوا: تتمنى الموت وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يتمنين أحدكم الموت»؟ فقال: إني أبادر خصالا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوفهن على أمته: بيع الحكم، والاستخفاف بالدم، وقطيعة الرحم، وقوم يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليس بأفقههم ولا أفضلهم إلا ليغنيهم به غناء» وذكر خلتين أخرتين). رواه أبو عبيد.

- قال ابن كثير: (وهذا يدل على أنه محذور كبير، وهو قراءة القرآن بالألحان التي يسلك بها مذاهب الغناء، وقد نص الأئمة، رحمهم الله، على النهي عنه، فأما إن خرج به إلى التمطيط الفاحش الذي يزيد بسببه حرفا أو ينقص حرفا، فقد اتفق العلماء على تحريمه).

١٨: اغتباط صاحب القرآن

- عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الكتاب فقام به آناء الليل، ورجل أعطاه الله مالا فهو يتصدق به آناء الليل والنهار». رواه البخاري.

- عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار»، فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل، «ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق»، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل». رواه البخاري ومسلم.

- ينبغي أن يكون صاحب القرآن شديد الاغتباط بما هو فيه، وينبغي لغيره أن يغبطه على ذلك بأن يتمنّى مثل ما هو فيه من النعمة.

- الغبطة غير الحسد المذموم الذي هو تمنّي زوال النعمة.

- ورد في فضل الغبطة أحاديث من أصحّها حديث أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط فيه ينفقه في غير حقه، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فهما في الوزر سواء». رواه الإمام أحمد، وقال ابن كثير: (إسناد صحيح).

١٩: فضل من تعلَّم القرآن وعلمه

-قال سعد بن عبيدة: عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان، رضي الله عنه، حتى كان الحجاج قال: (وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا). رواه البخاري.

- قال ابن كثير: (كان أبو عبد الرحمن السلمي الكوفي أحد أئمة الإسلام ومشايخهم من رغب في هذا المقام، فقعد يعلم الناس من إمارة عثمان إلى أيام الحجاج قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث فيه يعلم القرآن سبعين سنة، رحمه الله، وآتاه الله ما طلبه).

- من شأن خيار الأبرار أن يكمل المرء نفسه ويسعى في تكميل غيره كما قال عليه السلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وكما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٣٣﴾.

- ومن شأن الفجار أنهم لا ينتفعون بالهدى، ولا يتركون أحدا ممن أمكنهم أن ينتفع به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، في أصح قولي المفسرين في هذا.

٢٠: تزويج الخاطب بما معه من القرآن

- عن سهل بن سعد قال: أتت النبي صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت: إنها قد وهبت نفسها لله ورسوله، فقال: «ما لي في النساء من حاجة». فقال رجل: زوجنيها قال: «أعطها ثوبا»، قال: لا أجد، قال: «أعطها ولو خاتما من حديد»، فاعتل له، فقال: «ما معك من القرآن؟». قال: كذا وكذا. فقال: «قد زوجتكها بما معك من القرآن». متفق عليه.

- في رواية لمسلم: «فعلّمها»، وهذا سبب إيراد البخاري لهذا الحديث بعد حديث: «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه».

٢١: وصايا عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه بالقرآن

- قال ابن كثير: (وهكذا أذكر آثارا مروية عن ابن أم عبد، عبد الله بن مسعود أحد قراء القرآن من الصحابة المأمور بالتلاوة على نحوهم).

- قال ابن مسعود: **«كل آية في كتاب الله خير مما في السماء والأرض»**. رواه الطبراني.

- وقال: **«من أراد العلم فليثوّر من القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين»**.

- وقال: **«إن هذا القرآن ليس فيه حرف إلا له حد، ولكل حد مطلع»**.

- وقال: **«أعربوا هذا القرآن فإنه عربي، وسيجيء قوم يثقفونه وليسوا بخياركم»**.

- وقال: **«أديموا النظر في المصحف، وإذا اختلفتم في ياء أو تاء فاجعلوها ياء، ذكروا القرآن فإنه مذكر»**.

وقال: **«أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما يبقى من دينكم الصلاة، وليصلين قوم لا خلاق لهم، ولينزعن القرآن من بين أظهركم»**.

قالوا: يا أبا عبد الرحمن، ألسنا نقرأ القرآن وقد أثبتناه في مصاحفنا؟

قال: **«يسرى على القرآن ليلا فيذهب به من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء»**، وفي رواية: **«لا يبقى في مصحف منه شيء، ويصبح الناس فقراء كالبهائم»**. ثم قرأ عبد الله: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾. رواه عبد الرزاق.

- وقال: **«من قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز»**. رواه الطبراني.

- عن أبي وائل قال: كان عبد الله بن مسعود يقل الصوم، فيقال له في ذلك، فيقول: «**إني إذا صمت ضعفت عن القراءة والصلاة، والقراءة والصلاة أحب إلي**».

شرح طريقة إكمال تلخيص مقاصد مقدمة تفسير ابن كثير:

كما تلحظون لخصت الموضوعات المذكورة تحت كلّ مقصد وأبرزت المسائل ورقمت، وبقي عليكم أن تصنعوا في المقاصد التالية بمثل ذلك لتتمّوا المرحلة الأولى من مراحل عمل تلخيص المقاصد.

وأوصي أن ينظم الدارس عمله على الخطوات التالية:

١: نرصد المسائل المذكورة تحت بقيّة المقاصد.

٢: نستخلص أسماء المسائل فقط من كل مقصد.

٣: نعيد النظر في أسماء المسائل وترتيبها موضوعيا وإذا وجدنا مسألة هي أليق بمقصد آخر نقلناها إليه، وإذا وجدنا بعض المسائل يمكن أن تفرد بمقصد مستقل أفردناها، وهكذا إلى أن يكون لدينا عدد من المقاصد وتحت كل مقصد المسائل التي تخصّه موضوعيا؛ فمثلاً المسائل المذكورة تحت مقصد فضائل القرآن نجعل ما له صلة مباشرة ببيان فضل القرآن تحته متتابعة ومرتبة ترتيباً موضوعيا، وما لا تعلّق له ببيان فضل القرآن يُنقل إلى الموضع المناسب، وهكذا.

٤: نعبّر عن كلّ مقصد بخلاصة ما ذكره المؤلف وما استند إليه، وبذلك يتمّ تلخيص المقاصد، ونكون قد فهمنا الكتاب جيّداً بإذن الله تعالى، وهو فهم فيه ربط بين مسائل الكتاب وإدراك لمدى تناسبها، وتنبّه لبعض المسائل الخفية بسبب هذه الموازنة.

وفق الله الجميع لما يحبّ ويرضى.

المثال الرابع: تقريب مقدمة صحيح الإمام مسلم بن الحجاج رحمه الله

الحمد لله الذي شرّف العلم وأهله، وآتى كلَّ ذي فضل فضله، وجعل العلماء ورثة الأنبياء، وأقامهم على معالم دينه أدلاء، فبيّن بهم السبيل، وأقام بهم الحجة، وجعلهم أئمة يهدون بأمره، ويحفظون دينه، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، ويبيّنون سَنن العلم لطالبيه، ومنهاج الأئمة فيه؛ فمن سلك سبيلهم، وامتثل طريقتهم، وأحبّهم لله، كان من جملتهم، وحشر في زمرتهم.

والصلاة والسلام على الإمام الأعظم، والنبيّ الأكرم، الذي شَرُفَ أهل الحديث بالرواية عنه، والتفقّه في حديثه وسننه وأيامه، والاهتداء بهديه؛ فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

أما بعد:

فهذا تقريب لما تضمنته مقدمة صحيح الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، حرصت فيه على تقصي ما ذكره فيها، واختصار العبارة مع الوفاء بالمعنى، رجاء أن أنتفع بمذاكرته، وينتفع به من يطالعه من طلبة العلم، والله الموفّق والمسؤول أن يتقبله ويبارك فيه.

سبب تأليف الإمام مسلم لصحيحه:

١: إجابة سؤال من طلب منه جمع الأخبار المأثورة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سنن الدين وأحكامه، وما كان منها في الثواب والعقاب، والترغيب والترهيب بلا تكرار ليتفهّمها ويستنبط منها.

٢: ما رآه من سوء صنيع كثير ممن نصب نفسه محدّثا فينشرون الأخبار المنكرة بالأسانيد الضعاف المجهولة بين العامة الذين لا يعرفون عيوبها، وقد يتخذونها ديناً.

فوائد تقديم ضبط الصحيح:

- ضبط الصحيح القليل أولى من معالجة الكثير الذي لا يميز صحيحه من سقيمه.

- جمع المكررات إنما يصلح للخاصّة الذين رُزقوا التيقظ والمعرفة بأسباب التكرار وعلل الأحاديث.

- من عجز عن معرفة القليل الصحيح فلا معنى لاستكثاره مما لا يميّزه.

أسباب تكرار الحديث:

ذكر الإمام مسلم أنه لا يكرر حديثاً إلا لحاجة، وهي:

- إما أن يكون في رواية معنى زائد فيكرر لأن المعنى الزائد يقوم مقام حديث تام.

- وإما أن يتعسّر فصل الحديث وتقطيعه فإعادته بهيئته تاما أسلم.

أقسام الأحاديث:

القسم الأول: ما سلم متنه وإسناده من العلل القادحة، وكان رواته من أهل الاستقامة في الحديث والإتقان.

- **من هؤلاء:** منصور بن المعتمر وسليمان الأعمش وإسماعيل بن أبي خالد.

القسم الثاني: من هم دون أهل القسم الأول في الحفظ والإتقان لكن يشملهم اسم الستر والصدق وتعاطي العلم.

- **من هذا الضرب:** عطاء بن السائب، ويزيد بن أبي زياد، وليث بن أبي سليم، وأضرابهم.

- إنما يذكر الإمام مسلم أحاديث هذا الضرب تبعاً لمعنى يحتاج إليه.

القسم الثالث: المتهمّون بالكذب، وأصحاب الغلط الفاحش، ومنكرو الحديث.

- **من المتهّمين بالوضع:** أبو جعفر المدائني، وعمرو بن خالد، وعبد القدوس الشامي، ومحمد بن سعيد المصلوب، وغياث بن إبراهيم، وسليمان بن عمرو النخعي.

- **من منكري الحديث:** عبد الله بن محرر، ويحيى بن أبي أنيسة، والجراح بن المنهال، وعباد بن كثير، وحسين بن عبد الله بن ضميرة، وعمر بن صهبان.

علامة منكر الحديث:

- **علامة المنكَر في حديث المحدث:** إذا ما عرضت روايته للحديث على رواية غيره من أهل الحفظ والرضا خالفت روايته روايتهم أو لم تكد توافقها.

- من كان هذا هو الغالب على حديثه كان مهجور الحديث غير مقبوله عند أهل الحديث.

شرط قبول تفرّد الراوي:

- أن يكون قد شارك الثقات من أهل العلم والحفظ في بعض ما رووا، وأمعن في ذلك على الموافقة لهم؛ فإذا تفرّد بعد ذلك بشيء ليس عند أصحابه قُبلت زيادته.

- أما من يعمد لمثل الزهري وهشام بن عروة على كثرة الرواة عنهما واتفاقهم في أكثر رواياتهم ثم ينفرد عنهم بعدد من الأحاديث لا يعرفونها وهو لم يشاركهم في الصحيح مما عندهم فلا يُقبل حديثه.

التنبيه على علل الأحاديث:

- ذكر الإمام مسلم أنه بيّن في مواضع من الكتاب عند ذكر الأخبار المعللة مذهب أهل الحديث فيها.

- من أئمة أهل الحديث: مالك بن أنس، وشعبة بن الحجاج، وسفيان بن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي.

من العدل تنزيل الناس منازلهم:

- قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾.

- عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - أنها قالت: «**أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم**».

- لا يقصر بالرجل العالي القدر عن درجته، ولا يرفع متضع القدر في العلم فوق منزلته.

وجوب التثبت في الرواية:

١: بأن لا يروي إلا ما عرف صحة مخارجه والستارة في ناقليه.

٢: وأن يتقي روايات أهل التهم والمعاندين من أهل البدع.

أدلة وجوب التثبّت في الرواية:

١: قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾.

٢: قول الله تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾.

٣: قول الله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

- دلت هذه الآيات على أن خبر الفاسق ساقط غير مقبول، وأن شهادة غير العدل مردودة.

- الرواية تفارق معنى الشهادة من بعض الوجوه، ويجتمعان في أعظم معانيها.

تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

١: الحكم بن عتيبة، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن سمرة بن جندب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين».

- قال أبو عبد الله الحاكم: (هذا وعيد للمحدِّث إذا حدَّث بما يَعلم أنه كذبٌ وإن لم يكن هو الكاذب).

٢: شعبة وحبيب بن أبي ثابت عن ميمون بن أبي شبيب عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله.

٣: منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش أنه سمع علياً رضي الله عنه يخطب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تكذبوا علي فإنه من يكذب علي يلج النار».

٤: إسماعيل ابن علية، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك أنه قال: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثاً كثيراً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من تعمد علي كذباً فليتبوأ مقعده من النار».

٥: أبو حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

٦: سعيد بن عبيد، حدثنا علي بن ربيعة قال: أتيت المسجد والمغيرة أمير الكوفة، قال: فقال المغيرة: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن كذباً علي ليس ككذب على أحد فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

نهي المرء أن يحدّث بكلّ ما سمع:

١: خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع».

٢: سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «**بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع**».

٣: سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع**».

٤: قال عبد الله بن وهب: قال لي مالك: «**اعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ما سمع**».

٥: قال محمد بن المثنى: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: «**لا يكون الرجل إماماً يقتدى به حتى يمسك عن بعض ما سمع**».

٦: قال إياس بن معاوية لسفيان بن حسين الواسطي: «**إياك والشناعة في الحديث؛ فإنه قلما حملها أحد إلا ذل في نفسه وكذب في حديثه**».

٧: الزهري، عن عبيدالله بن عبد الله ابن عتبة، أن عبد الله بن مسعود قال: «**ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة**».

الاحتياط في تحمل الرواية والنهي عن الرواية عن الضعفاء:

١: أبو هانئ، عن مسلم بن يسار، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم».

٢: ابن وهب، حدثني أبو شريح أنه سمع شراحيل بن يزيد يقول: أخبرني مسلم بن يسار أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم؛ فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم».

٣: المسيب بن رافع، عن عامر بن عبدة قال: قال عبد الله [بن مسعود]: «**إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل، فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب،**

فيتفرقون، فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث».

٤: عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «**إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان، يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا**».

٥: هشام بن حجير، عن طاووس، عن ابن عباس قال: «**إنا كنا نحدِّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن يكذب عليه، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه**».

٦: عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: «**إنما كنا نحفظ الحديث، والحديث يحفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأما إذ ركبتم كل صعب وذلول فهيهات**».

٧: رباح، عن قيس بن سعد، عن مجاهد قال: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس، فجعل يحدث ويقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس مالي لا أراك تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع؟!!

- فقال ابن عباس: «**إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف**».

٨: نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة قال: كتبت إلى ابن عباس أسأله أن يكتب لي كتاباً ويخفي عني، فقال ولد ناصح: أنا أختار له الأمور اختياراً وأخفي عنه، قال: فدعا بقضاء علي، فجعل يكتب منه أشياء، ويمر به الشيء فيقول: «**والله ما قضى بهذا علي إلا أن يكون ضلّ**».

٩: سفيان بن عيينة، عن هشام بن حجير، عن طاوس قال: «**أُتِيَ ابن عباس بكتاب فيه قضاء علي رضي الله عنه؛ فمحاه إلا قدر**»؛ وأشار سفيان بن عيينة بذراعه.

١٠: الأعمش، عن أبي إسحاق قال: لما أحدثوا تلك الأشياء بعد علي رضي الله عنه قال رجل من أصحاب علي: «**قاتلهم الله أيَّ علم أفسدوا!**».

١١: قال أبو بكر بن عياش: سمعت المغيرة يقول: «**لم يكن يصدق على علي رضي الله عنه إلا من أصحاب عبد الله بن مسعود**».

الإسناد من الدين:

١: هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين قال: «**إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم**».

٢: عن عاصم الأحول، عن ابن سيرين قال: «**لم يكونوا يسألون عن الإسناد؛ فلما وقعت الفتنة قالوا: سمّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم**».

٣: قال عبدان بن عثمان: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: (الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء).

٤: قال العباس بن أبي رزمة: سمعت عبد الله [بن المبارك] يقول: (بيننا وبين القوم القوائم) يعني الإسناد.

٥: قال إبراهيم بن عيسى الطالقاني: قلت لعبد الله بن المبارك: (يا أبا عبد الرحمن، الحديث الذي جاء إن من البر بعد البر أن تصلي لأبويك مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك)؛ قال: فقال عبد الله: يا أبا إسحاق عمن هذا؟ قال: قلت له: هذا من حديث شهاب بن خراش. فقال: ثقة عمن؟ قال: قلت: عن الحجاج بن دينار. قال: ثقة عمن؟ قال: قلت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: (يا أبا إسحاق، إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي صلى الله عليه وسلم مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي، ولكن ليس في الصدقة اختلاف).

الأخذ عن أهل الحديث العارفين به:

١: الأوزاعي، عن سليمان بن موسى قال: لقيت طاوساً فقلت: حدثني فلان كيت وكيت؛ قال: «**إن كان صاحبك ملياً فخذ عنه**».

٢: سعيد بن عبد العزيز، عن سليمان بن موسى قال: قلت لطاووس: إن فلاناً حدثني بكذا وكذا؛ قال: «**إن كان صاحبك ملياً فخذ عنه**».

٣: الأصمعي، عن ابن أبي الزناد، عن أبيه قال: (أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهله).

٤: سفيان بن عيينة، عن مسعر قال: سمعت سعد بن إبراهيم يقول: «**لا يحدِّثْ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الثقات**».

٥: قال أبو عقيل يحيى بن المتوكّل الضّرير -صاحب بُهيَّة- : كنت جالساً عند القاسم بن عبيدالله ويحيى بن سعيد، فقال يحيى للقاسم: يا أبا محمد، إنه قبيح على مثلك عظيم أن تُسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه علم ولا فرج أو علم ولا مخرج.

فقال له القاسم: وعمّ ذاك؟ قال: لأنك ابن إمامي هدى، ابن أبي بكر وعمر. قال: يقول له القاسم: (أقبح من ذاك عند من عقل عن الله أن أقول بغير علم، أو آخذ عن غير ثقة).

قال: فسكت فما أجابه.

٦: قال سفيان بن عيينة: أخبروني عن أبي عُقَيل -صاحب بُهيَّة- أن أبناءً لعبد الله بن عمر سألوه عن شيء لم يكن عنده فيه علم، فقال له يحيى بن سعيد: والله إني لأعظم أن يكون مثلك وأنت ابن إمامي الهدى - يعني عمر وابن عمر - تُسأل عن أمر ليس عندك فيه علم.

فقال: (أعظم من ذلك والله - عند الله وعند من عقل عن الله - أن أقول بغير علم، أو أخبر عن غير ثقة).

قال: وشهدهما أبو عقيل يحيى بن المتوكل حين قالا ذلك.

* **قال النووي:** (القاسم هذا هو ابن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فهو ابنهما، وأم القاسم هي أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ فأبو بكر جده الأعلى لأمه وعمر جدّه الأعلى لأبيه، وابن عمر جده الحقيقي لأبيه، رضي الله عنهم أجمعين).

* **إشكال:** كيف روى مسلم عن أبي عُقيل وهو مضعّف؟ وكيف استشهد برواية المجهولين في خبر ابن عيينة؟

* **الجواب:** قال النووي: (ذكره متابعة واستشهاداً، والمتابعة والاستشهاد يذكرون فيهما من لا يحتجّ به على انفراده؛ لأنَّ الاعتماد على ما قبلهما لا عليهما).

٧: قال عفان بن مسلم: حدثنا همام قال: قدم علينا أبو داود الأعمى؛ فجعل يقول: حدثنا البراء قال، وحدثنا زيد بن أرقم، فذكرنا ذلك لقتادة، فقال: «**كذب ما سمع منهم؛ إنما كان ذلك سائلاً يتكفف الناس زمن طاعون الجارف**».

٨: قال يزيد بن هارون: أخبرنا همام قال: دخل أبو داود الأعمى على قتادة، فلما قام قالوا: إن هذا يزعم أنه لقي ثمانية عشر بدرياً. فقال قتادة: «**هذا كان سائلاً قبل الجارف لا يعرض في شيء من هذا ولا يتكلم فيه، فوالله ما حدثنا الحسن عن بدري مشافهة، ولا حدثنا سعيد بن المسيب عن بدري مشافهة إلا عن سعد بن مالك**».

جرح الرواة بما فيهم من النصيحة في الدين لا من الغيبة المحرّمة:

١: قال يحيى بن سعيد القطّان: سألت سفيان الثوري وشعبة ومالكاً وابن عيينة عن الرجل لا يكون ثبتاً في الحديث، فيأتيني الرجل فيسألني عنه؟ قالوا: (أخبر عنه أنه ليس بثبت).

٢: قال علي بن شقيق: سمعت عبد الله بن المبارك يقول على رؤوس الناس: (دعوا حديث عمرو بن ثابت؛ فإنه كان يسب السلف).

٣: قال: أبو إسحاق الطالقاني: سمعت ابن المبارك يقول: (لو خيرت بين أن أدخل الجنة وبين أن ألقى عبد الله بن محرر، لاخترت أن ألقاه ثم أدخل الجنة، فلما رأيته كانت بعرة أحب إلي منه).

٤: قال عبد الله بن المبارك: قلت لسفيان الثوري: (إن عبّاد بن كثير من تعرف حاله، وإذا حدّث جاء بأمر عظيم، فترى أن أقول للناس لا تأخذوا عنه؟).

قال سفيان: بلى.

قال عبد الله: (فكنت إذا كنت في مجلس ذكر فيه عبّاد أثنيت عليه في دينه، وأقول: لا تأخذوا عنه).

٥: قال عبد الله بن المبارك: انتهيت إلى شعبة فقال: «**هذا عبّاد بن كثير فاحذروه**».

٦: قال الفضل بن سهل: سألت معلَّى الرازي عن محمد بن سعيد الذي روى عنه عبّاد، فأخبرني عن عيسى بن يونس قال: (كنت على بابه وسفيان عنده، فلما خرج سألته عنه، فأخبرني أنه كذاب).

٧: قال عبد الرزاق: قال معمر: (ما رأيت أيوب اغتاب أحداً قط إلا عبد الكريم -يعني أبا أمية-، فإنه ذكره فقال: رحمه الله كان غير ثقة؛ لقد سألني عن حديث لعكرمة ثم قال: سمعت عكرمة).

٨: قال حماد بن زيد: ذكر أيوب رجلاً يوماً فقال: (لم يكن بمستقيم اللسان). وذكر آخر فقال: (هو يزيد في الرقم).

٩: قال حماد بن زيد: ذُكر فرقد عند أيوب، فقال: (إن فرقداً ليس صاحب حديث).

١٠: قال معاذ بن معاذٍ العنبري: كتبت إلى شعبة أسأله عن أبي شيبة قاضي واسط، فكتب إلي: (لا تكتب عنه شيئاً، ومزّقْ كتابي).

- قال النووي: (أبو شيبة: هو إبراهيم بن عثمان وكان قاضي واسطٍ وهو ضعيفٌ متّفقٌ على ضعفه).

١١: قال النضر بن شميل: سُئل ابن عون عن حديث لِشَهْر [بن حوشَب] وهو قائم على أُسْكُفَّة الباب، فقال: (إن شَهْراً نزكوه، إن شهراً نزكوه).

قال مسلم رحمه الله: (يقول: أخذته ألسنة الناس، تكلموا فيه).[1]

١٢: قال شبابة بن سوّار: قال شعبة: (وقد لقيت شهراً فلم أعتد به).

١٣: قال عفّان بن مسلم الصفّار: حدثت حماد بن سلمة عن صالح المري بحديث عن ثابت، فقال: (كذب)، وحدثت هماماً عن صالح المري بحديث، فقال: (كذب).

١٤: قال عفان بن مسلم: كنا عند إسماعيل بن علية، فحدث رجل عن رجل، فقلت: إن هذا ليس بثبت. قال: فقال الرجل: اغتبته. قال إسماعيل: (ما اغتابه ولكنه حكم أنه ليس بثبت).

١٥: قال أبو داود الطيالسي: قال لي شعبة: إيت جرير بن حازم فقل له: لا يحل لك أن تروي عن الحسن بن عمارة؛ فإنه يكذب؛ قال أبو داود: قلت لشعبة: وكيف ذاك؟

فقال: حدثنا عن الحكم بأشياء لم أجد لها أصلاً.

---

(١) «نزكوه» بالنون أي رموه بما يُعاب به وطعنوا فيه؛ والنَّيزك هو الرمح القصير دقيق السِّنان، قال ذو الرمّة:

فيا من لقلب لا يزال كأنّه ... من الوجد شكّته صدور النيازك

ويستعمل في الطعن المعنوي كما يستعمل في الطعن الحسّي بالنيازك؛ فالنَّزّاك من الناس: هو العَيّاب، ويُروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه ولا يصح: «**الأولياء ليسوا بنزّاكين**».

وقد تصحّفت هذه اللفظة في بعض نسخ الصحيح إلى «تركوه»، وتفسير مسلم يدلّ على خلاف هذا المعنى.

قال: قلت له: بأي شيء؟

قال: قلت للحكم: أصلى النبي صلى الله عليه وسلم على قتلى أحد؟ فقال: لم يصل عليهم. فقال الحسن بن عمارة: عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى عليهم ودفنهم.

قلت للحكم: ما تقول في أولاد الزنا؟

قال: يصلى عليهم.

قلت: من حديث من يروى؟ قال: يروى عن الحسن البصري؛ فقال الحسن بن عمارة: حدثنا الحكم عن يحيى بن الجزار، عن علي.

١٦: قال مسلم: سمعت عبيدالله بن عمر القواريري يقول: سمعت حماد بن زيد يقول لرجل بعد ما جلس مهدي بن هلال بأيام: ما هذه العين المالحة التي نبعت قبلكم؟ قال: نعم يا أبا إسماعيل.

١٧: قال بشر بن عمر: سألت مالك بن أنس عن محمد بن عبد الرحمن الذي يروي عن سعيد بن المسيب؟ فقال: «**ليس بثقة**». وسألته عن صالح مولى التوأمة؟ فقال: «**ليس بثقة**». وسألته عن أبي الحويرث؟ فقال: «**ليس بثقة**». وسألته عن شعبة الذي روى عنه ابن أبي ذئب؟ فقال: «**ليس بثقة**». وسألته عن حرام بن عثمان؟ فقال: «**ليس بثقة**». وسألت مالكاً عن هؤلاء الخمسة؟ فقال: «**ليسوا بثقة في حديثهم**». وسألته عن رجل آخر نسيت اسمه؟ فقال: هل رأيته في كتبي؟ قلت: لا. قال: «**لو كان ثقة لرأيته في كتبي**».

١٨: قال يحيى بن معين: حدثنا حجاج، حدثنا ابن أبي ذئب عن شرحبيل بن سعد وكان متهماً.

١٩: قال عبد الرحمن بن بشر العبدي: سمعت يحيى بن سعيد القطان ذكر عنده محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي، فضعفه جداً. فقيل ليحيى: أضعف من

يعقوب بن عطاء؟ قال: نعم. ثم قال: (ما كنت أرى أن أحداً يروي عن محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير).

٢٠: قال بشر بن الحكم: (سمعت يحيى بن سعيد القطان ضعف حكيم بن جبير، وعبد الأعلى، وضعف يحيى بن موسى بن دينار قال: حديثه ريح، وضعف موسى بن دهقان، وعيسى بن أبي عيسى المدني).

قال: وسمعت الحسن بن عيسى يقول: قال لي ابن المبارك: (إذا قدمت على جرير فاكتب علمه كله إلا حديث ثلاثة؛ لا تكتب حديث عبيدة بن معتب، والسري بن إسماعيل، ومحمد بن سالم).

سبب كلام الأئمّة النقّاد في الرواة وجرحهم

٢١: قال مسلم: (وأشباه ما ذكرنا من كلام أهل العلم في متهمي رواة الحديث وإخبارهم عن معايبهم كثير يطول الكتاب بذكره على استقصائه، وفيما ذكرنا كفاية لمن تفهم وعقل مذهب القوم فيما قالوا من ذلك وبينوا).

- قال مسلم: (وإنما ألزموا أنفسهم الكشف عن معايب رواة الحديث وناقلي الأخبار، وأفتوا بذلك حين سئلوا، لما فيه من عظيم الخطر؛ إذ الأخبار في أمر الدين إنما تأتي بتحليل أو تحريم أو أمر أو نهي أو ترغيب أو ترهيب؛ فإذا كان الراوي لها ليس بمعدن للصدق والأمانة، ثم أقدم على الرواية عنه من قد عرفه ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته، كان آثماً بفعله ذلك غاشاً لعوام المسلمين، إذ لا يؤمن على بعض من سمع تلك الأخبار أن يستعملها أو يستعمل بعضها، ولعلها أو أكثرها أكاذيب لا أصل لها، مع أن الأخبار الصحاح من رواية الثقات وأهل القناعة أكثر من يضطر إلى نقل من ليس بثقة ولا مقنع).

جريان الكذب والغلط على ألسنة بعض الصالحين

١: قال محمد بن أبي عتاب: حدثني عفان، عن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، عن أبيه قال: (لم نر الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث).

- قال ابن أبي عتاب: فلقيت أنا محمد بن يحيى بن سعيد القطان فسألته عنه، فقال عن أبيه: (لم تر أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث).

- قال مسلم: (يقول يجري الكذب على لسانهم ولا يتعمدون الكذب).

٢: قال حماد بن زيد: قال أيوب: (إن لي جاراً - ثم ذكر من فضله -، ولو شهد عندي على تمرتين ما رأيت شهادته جائزة).

أصناف المجروحين:

ذكر الإمام مسلم في مقدمته أنواعاً من المجروحين؛ وهم على درجات:

- **فمنهم من جمع البدعة في الدين والكذب في الحديث** كالحارث الأعور وجابر بن يزيد الجعفي وعمرو بن عبيد المعتزلي.

- **ومنهم المعروفون بوضع الأحاديث** كعبد القدوس الشامي، وأبان بن أبي عياش، والمغيرة بن سعيد البجلي، وأبي جعفر عبد الله بن مسور المدني، وزياد بن ميمون الثقفي.

- **ومنهم المتّهمون بالكذب** كهشام بن زياد الأموي، وغالب بن عبيد الله العقيلي الجزري، ويحيى بن أبي أنيسة الغنوي، والمعلّى بن عرفان الأسدي، وروح بن غطيف الثقفي.

- **ومنهم أهل الأهواء** كالحارث بن حصيرة الأزدي، وشقيق الضبي الخارجي كانا من رؤوس الضلالة والدعاة إليها وإن لم يكونا متّهمين بالكذب.

- **ومنهم كثيرو الوهم والغلط** كسليمان بن الحجاج الطائفي.

- ومنهم المدلّسون كبقية بن الوليد الكلاعي وإن كان صدوقاً في نفسه جليل القدر لكنّه يروي عن الثقات ما سمعه من الضعفاء عنهم، ويسقط ذكر الضعفاء أو يكنّيهم بما لا يُعرفون به؛ فوجب فحص حديثه فيؤخذ ما استقامت روايته، ويردّ ما استبان التدليس فيه.

تفصيل أحوال بعض المجروحين

الحارث الأعور

١: جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة [بن مقسم الضبّي]، عن الشعبي قال: «**حدثني الحارث الأعور الهمداني وكان كذاباً**».

٢: مفضل بن مهلهل، عن مغيرة قال: سمعت الشعبي يقول: «**حدثني الحارث الأعور وهو يشهد أنه أحد الكاذبين**».

٣: مغيرة بن مقسم، عن إبراهيم [النخعي] قال: قال علقمة: «**قرأت القرآن في سنتين)؛ فقال الحارث: (القرآن هين، الوحي أشد**».

٤: الأعمش، عن إبراهيم، أن الحارث قال: «**تعلمت القرآن في ثلاث سنين، والوحي في سنتين**». أو قال: «**الوحي في ثلاث سنين، والقرآن في سنتين**».

٥: زائدة، عن منصور والمغيرة، عن إبراهيم أن الحارث اتُّـهِم.

٦: جرير بن عبد الحميد، عن حمزة الزيات قال: سمع مرة الهمداني من الحارث شيئاً، فقال له: اقعد بالباب؛ قال: فدخل مرة، وأخذ سيفه. قال: وأحس الحارث بالشر فذهب.

جابر بن يزيد الجُعفيّ

١: قال أبو غسان محمد بن عمرو الرازي: سمعت جريراً يقول: (لقيت جابر بن يزيد الجعفي فلم أكتب عنه؛ كان يؤمن بالرجعة).

٢: قال يحيى بن آدم، حدثنا مسعر قال: (حدثنا جابر بن يزيد قبل أن يُحْدِثَ ما أحدث).

٣: قال الحميدي: حدثنا سفيان قال: (كان الناس يحملون عن جابر قبل أن يُظْهِرَ ما أظهر؛ فلما أظهر ما أظهر اتهمه الناس في حديثه، وتركه بعض الناس).

فقيل له: وما أظهر؟ قال: (الإيمان بالرجعة).

٤: قال الجراح بن مليح: سمعت جابراً يقول: (عندي سبعون ألف حديث عن أبي جعفر عن النبي صلى الله عليه وسلم كلها).

٥: قال أحمد بن يونس: سمعت زهيراً يقول: قال جابر أو سمعت جابراً يقول: (إن عندي لخمسين ألف حديث ما حدثت منها بشيء).

قال: ثم حدث يوماً بحديث، فقال: (هذا من الخمسين ألفاً).

٦: قال أبو الوليد: سمعت سلام بن أبي مطيع يقول: سمعت جابراً الجعفي يقول: (عندي خمسون ألف حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم).

٧: قال الحميدي: حدثنا سفيان قال: سمعت رجلاً سأل جابراً عن قوله عز وجل: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾. فقال جابر: (لم يجئ تأويل هذه). قال سفيان: (وكذب).

فقال لسفيان: (وما أراد بهذا؟).

فقال: (إن الرافضة تقول إن علياً في السحاب، فلا نخرج مع من خرج من ولده حتى ينادي مناد من السماء -يريد علياً أنه ينادي اخرجوا مع فلان-). يقول جابر: (فهذا تأويل هذه الآية وكذب كانت في إخوة يوسف صلى الله عليه وسلم).

٨: قال الحميدي: حدثنا سفيان قال: (سمعت جابراً يحدث بنحو من ثلاثين ألف حديث، ما أستحل أن أذكر منها شيئاً وأن لي كذا وكذا).

عمرو بن عبيد المعتزلي

١: أبو داود الطيالسي، عن شعبة، عن يونس بن عبيد قال: (كان عمرو بن عبيد يكذب في الحديث).

٢: قال عمرو بن علي: سمعت معاذ بن معاذ يقول: قلت لعوف بن أبي جميلة: إن عمرو بن عبيد حدثنا، عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من حمل علينا السلاح فليس منا». قال: (كذب والله عمرو ولكنه أراد أن يحوزها إلى قوله الخبيث).

٣: قال حماد بن زيد: كان رجل قد لزم أيوب وسمع منه، ففقده أيوب، فقالوا: يا أبا بكر، إنه قد لزم عمرو بن عبيد.

قال حماد: فبينا أنا يوماً مع أيوب وقد بكرنا إلى السوق، فاستقبله الرجل فسلم عليه أيوب وسأله، ثم قال له أيوب: بلغني أنك لزمت ذاك الرجل.

قال حماد: سماه يعني عمرواً.

قال: نعم يا أبا بكر، إنه يجيئنا بأشياء غرائب. قال: يقول له أيوب: (إنما نفر أو نفرق من تلك الغرائب).

٤: قال حماد بن زيد: قيل لأيوب: إن عمرو بن عبيد روى عن الحسن؛ قال: لا يجلد السكران من النبيذ. فقال: (كذب؛ أنا سمعت الحسن يقول: يجلد السكران من النبيذ).

٥: قال سلام بن أبي مطيع: بلغ أيوب أني آتي عمرواً، فأقبل علي يوماً فقال: (أرأيت رجلاً لا تأمنه على دينه، كيف تأمنه على الحديث؟).

٦: قال الحميدي: حدثنا سفيان قال: سمعت أبا موسى يقول: (حدثنا عمرو بن عبيد قبل أن يحدث).

عبد القدوس بن حبيب الكلاعي الشامي

- حدثنا حسن الحلواني قال: سمعت شبابة قال: كان عبد القدوس يحدثنا فيقول: سويد بن عقلة قال شبابة، وسمعت عبد القدوس يقول: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ الرَّوح عرضاً.

قال: فقيل له: أي شيء هذا؟

قال: يعني تتخذ كوة في حائط ليدخل عليه الروح.

- قال عبد الرزاق: (ما رأيت ابن المبارك يفصح بقوله كذاب إلا لعبد القدوس، فإني سمعته يقول له كذاب).

المغيرة بن سعيد البجلي

- حماد بن زيد، عن ابن عون قال: قال لنا إبراهيم: (إياكم والمغيرة بن سعيد وأبا عبد الرحيم؛ فإنهما كذابان).

- أما المغيرة بن سعيد فقال عنه النسائي: (كوفيٌّ دجّالٌ أحرق بالنّار زمن النّخعيّ، ادّعى النّبوّة)، وقال عنه الخطيب البغدادي: (كان غالياً في الرفض، وله طائفة تنسب إليه يقال لها (المغيرية) صلبه خالد بن عبد الله لأجل مقالته).

- قال أبو بكر بن عياش: (رأيت خالدا القسري حين أُتي بالمغيرة بن سعيد وأصحابه، وكان يريهم أنه يحيي الموتى، فقتل خالد واحدا منهم، ثم قال للمغيرة: أحيه فقال: والله ما أحيي الموتى، قال: لتحيينه أو لأضربن عنقك، ثم أمر بطن من قصب فأضرموه، وقال: اعتنقه، فأبى، فعدا رجل من أتباعه فاعتنقه.

قال أبو بكر: فرأيت النار تأكله وهو يشير بالسبابة، فقال خالد: هذا والله أحق بالرئاسة منك، ثم قتله وقتل أصحابه).

- قال الذهبي: (كان رافضيا خبيثا كذابا ساحرا، ادعى النبوة، وفضّل علياً على الأنبياء، وكان مجسّما).

- وأمّا أبو عبد الرحيم فقد اختلف فيه؛ قال ابن حجر: (قال أبو حاتم: قال مسدد: زعم عليّ أن أبا عبد الرحيم سلم بن عبد الرحمن النخعي، له عندهم حديث واحد في كراهة الشكال من الخيل.

قلت: ما زلت أستبعد قول علي هذا لأنَّ سلماً يصغر عن أن يقول فيه إبراهيم هذا القول ويقرنه بالمغيرة بن سعيد إلى أن وجدت أبا بشر الدولابي جزم في الكنى بأن مراد إبراهيم النخعي بأبي عبدالرحيم شقيق الضبي، وهو من كبار الخوارج وكان يقص على الناس)ا.هـ.

أبان بن أبي عياش

- قال عفان بن مسلم: سمعت أبا عوانة قال: (ما بلغني عن الحسن حديث إلا أتيت به أبان بن أبي عياش فقرأه علي).

- قال سويد بن سعيد: حدثنا علي بن مسهر قال: (سمعت أنا وحمزة الزيات من أبان بن أبي عياش نحواً من ألف حديث)، قال علي: (فلقيت حمزة فأخبرني أنه رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- في المنام، فعرض عليه ما سمع من أبان، فما عرف منها إلا شيئاً يسيراً؛ خمسة أو ستة).

غالب بن عبيد الله العقيلي الجزري

- قال يزيد بن هارون: أخبرني الخليفة بن موسى قال: (دخلت على غالب بن عبيد الله فجعل يملي عليَّ: حدثني مكحول، حدثني مكحول، فأخذه البول فقام؛ فنظرت في الكراسة فإذا فيها؛ حدثني أبان عن أنس، وأبان عن فلان؛ فتركته وقمت).

- قال عنه يحيى بن معين: (ليس بثقة)، وقال البخاري: (منكر الحديث)، وقال النسائي: (متروك الحديث)، وقال أبو حاتم: (متروك الحديث منكر الحديث).

أبو جعفر عبد الله بن مسور الهاشمي المدني

- قال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن رقبة أن أبا جعفر الهاشمي المدني كان يضع أحاديث كلام حق، وليست من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يرويها عن النبي صلى الله عليه وسلم.

زياد بن ميمون الثقفي

١: قال الحسن الحلواني: سمعت يزيد بن هارون -وذكر زياد بن ميمون- فقال: (حلفت ألا أروي عنه شيئاً، ولا عن خالد بن محدوج).

وقال: (لقيت زياد بن ميمون، فسألته عن حديث فحدثني به عن بكر المزني، ثم عدت إليه فحدثني به عن مورق، ثم عدت إليه فحدثني به عن الحسن، وكان ينسبهما إلى الكذب).

قال الحلواني: (سمعت عبد الصمد، وذكرت عنده زياد بن ميمون فنسبه إلى الكذب).

٢: قال محمود بن غيلان: قلت لأبي داود الطيالسي: قد أكثرت عن عباد بن منصور، فمالك لم تسمع منه حديث العطارة الذي روى لنا النضر بن شميل؟

قال لي: اسكت، فأنا لقيت زياد بن ميمون وعبد الرحمن بن مهدي فسألناه، فقلنا له: هذه الأحاديث التي ترويها عن أنس؟ فقال: أرأيتما رجلاً يذنب فيتوب أليس يتوب الله عليه؟ قال: قلنا: نعم. قال: (ما سمعت من أنس من ذا قليلاً ولا كثيراً، إن كان لا يعلم الناس فأنتما ألا تعلمان أني لم ألق أنساً؟).

قال أبو داود: فبلغنا بعد أنه يروي، فأتيناه أنا وعبد الرحمن فقال: أتوب، ثم كان بعد يحدث فتركناه.

المعلّى بن عُرفان الأسدي

- قال عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي: سمعت أبا نعيم -وذكر المعلَّى بن عُرْفان- فقال: قال حدثنا أبو وائل، قال خرج علينا ابن مسعود بصفين، فقال أبو نعيم: أتراه بعث بعد الموت؟.

- المعلى بن عرفان هو ابن أخي شقيق ابن سلمة قال عنه البخاري: (منكر الحديث)، وقال يحيى بن معين: (ليس بشيء، وكان عرافاً في طريق مكة).

يحيى بن أبي أنيسة الغنوي الجزري

١: قال الفضل بن سهل: حدثنا وليد بن صالح قال: قال عبيد الله بن عمرو: قال زيد -يعني ابن أبي أنيسة-: (لا تأخذوا عن أخي).

٢: قال عبد السلام الوابصي: حدثني عبد الله بن جعفر الرقي، عن عبيدالله بن عمرو قال: (كان يحيى بن أبي أنيسة كذاباً).

هشام بن زياد الأموي

- قال الحسن بن علي الحلواني: رأيت في كتاب عفان حديثَ هشام أبي المقداد، حديثَ عمر بن عبد العزيز، قال هشام [بن زياد الأموي]: حدثني رجلٌ يقال له يحيى بن فلان، عن محمد بن كعب)

قال: قلت لعفان: إنهم يقولون: هشام سمعه عن محمد بن كعب. فقال: (إنما ابتلي من قِبَل هذا الحديث؛ كان يقول: حدثني يحيى عن محمد، ثم ادعى بعد أنه سمع عن محمد).

سليمان بن الحجّاج الطائفي

- قال عبد الله بن عثمان بن جبلة: قلت لعبد الله بن المبارك: من هذا الرجل الذي رويت عنه حديث عبد الله بن عمرو يوم الفطر يوم الجوائز؟

قال: (سليمان بن الحجاج انظر ما وضعتَ في يدك منه).

- قال العقيلي: (الغالب على حديثه الوهم).

روح بن غطيف الثقفي

- قال سفيان بن عبد الملك: قال عبد الله [ابن المبارك]: (رأيت روح بن غطيف -صاحب الدم قدر الدرهم- وجلست إليه مجلساً، فجعلت أستحيي من أصحابي أن يروني جالساً معه كره حديثه).

- روى عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة يرفعه: «تعاد الصلاة من قدر الدرهم من الدم».

- قال البخاري: (هذا الحديث باطل وروح هذا منكر الحديث)

- قال ابن عدي: (وروح بن غطيف رأيته قليل الرواية، ولا يُعرف إلا بحديث «تعاد الصلاة من قدر الدرهم» وضعف مجراه، ومقدار ما يرويه من الحديث ليس بمحفوظ).

الحارث بن حُصيرة الأزدي

- قال أبو غسان محمد بن عمرو الرازي: سألت جرير بن عبد الحميد فقلت: الحارث بن حصيرة لقيته؟ قال: (نعم، شيخ طويل السكوت، يصر على أمر عظيم).

- قال أبو الحجاج المزّي: (قال إبراهيم بن محمد بن عرعرة عن أبي أحمد الزبيري: كان الحارث بن حصيرة وعثمان أبو اليقظان يؤمنان بالرجعة).

- قال ابن حجر: (قال ابن معين: خشبي ثقة، ينسبونه إلى خشبة زيد بن علي التي صلب عليها، وقال النسائي: ثقة، وقال أبو حاتم: لولا أن الثوري روى عنه لترك حديثه، وقال ابن عدي: عامة روايات الكوفيين عنه في فضائل أهل البيت، وإذا روى عنه البصريون فرواياتهم أحاديث متفرقة، وهو أحد من يعد من المحترقين بالكوفة في التشيع، وعلى ضعفه يكتب حديثه).

شقيق الضبي الخارجي

– قال حماد بن زيد: حدثنا عاصم قال: كنا نأتي أبا عبد الرحمن السلمي ونحن غلمة أيفاع، فكان يقول لنا: «**لا تجالسوا القُصَّاص غير أبي الأحوص، وإياكم وشقيقاً**».

قال: وكان شقيق هذا يرى رأي الخوارج وليس بأبي وائل.

بقيّة بن الوليد الكلاعي

– قال سفيان بن عبد الملك، عن ابن المبارك قال: (بقية صدوق اللسان، ولكنه يأخذ عمن أقبل وأدبر).

– قال زكرياء بن عدي: قال لي أبو إسحاق الفزاري: (اكتب عن بقية ما روى عن المعروفين، ولا تكتب عنه ما روى عن غير المعروفين، ولا تكتب عن إسماعيل بن عياش ما روى عن المعروفين ولا عن غيرهم).

– قال إسحاق بن راهويه: سمعت بعض أصحاب عبد الله قال: قال ابن المبارك: (نعم الرجل بقية لولا أنه كان يكني الأسامي ويسمي الكنى؛ كان دهراً يحدثنا عن أبي سعيد الوحاظي فنظرنا فإذا هو عبد القدوس).

– قال ابن أبي خيثمة: (سئل يحيى بن معين عن بقية بن الوليد قال: إذا حدث عن الثقات مثل صفوان بن عمرو وغيره؛ فأما إذا حدث عن أولئك المجهولين فلا، وإذا كنى ولم يسمّ اسم الرجل فليس يساوي شيئا).

– قال ابن خزيمة: سمعت أحمد بن الحسن الترمذي يقول: سمعت أحمد بن حنبل رحمه الله يقول: (توهمت أن بقية لا يحدث المناكير إلا عن المجاهيل فإذا هو يحدث المناكير عن المشاهير فعلمت من أين أتي).

– قال ابن حبان: (لم يسبه أبو عبد الله رحمه الله، وإنما نظر إلى أحاديث موضوعة رويت عنه عن أقوام ثقات فأنكرها، ولعمري إنه موضع الانكار، وفي

دون هذا ما يسقط عدالة الانسان في الحديث، ولقد دخلت حمص وأكثر همّي شأن بقية؛ فتتبعت حديثه وكتبت النسخ على الوجه، وتتبعت ما لم أجد بعلو من رواية القدماء عنه فرأيته ثقه مأمونا، ولكنه كان مدلسا، سمع من عبيد الله بن عمر وشعبة ومالك أحاديث يسيرة مستقيمة، ثم سمع عن أقوام كذابين ضعفاء متروكين عن عبيد الله بن عمر وشعبة ومالك مثل المجاشع بن عمرو، والسري بن عبد الحميد وعمر بن موسى الميتمي وأشباههم وأقوام لا يعرفون إلا بالكنى، فروى عن أوليك الثقات الذين رآهم بالتدليس ما سمع من هؤلاء الضعفاء، وكان يقول: قال عبيد الله بن عمر عن نافع، وقال: مالك عن نافع - كذا - فحملوا عن بقية عن عبيد الله، وبقية عن مالك، وأسقط الواهي بينهما فالتزق الموضوع ببقية، وتخلص الواضع من الوسط، وإنما امتحن بقية بتلاميذ له كانوا يسقطون الضعفاء من حديثه ويسوونه فالتزق ذلك كله به، وكان يحيى بن معين حسن الرأي فيه)ا.هـ [المجروحين]

ذمّ من يريد التكثّر برواية الحديث

قال الإمام مسلم: (ولا أحسب كثيراً ممن يعرج من الناس على ما وصفنا من هذه الأحاديث الضعاف والأسانيد المجهولة، ويعتد برواياتها بعد معرفته بما فيها من التوهن والضعف إلا أن الذي يحمله على روايتها والاعتداد بها إرادة التكثر بذلك عند العوام، ولأن يقال: ما أكثر ما جمع فلان من الحديث وألف من العدد!!).

- قال: (ومن ذهب في العلم هذا المذهب وسلك هذا الطريق فلا نصيب له فيه، وكان بأن يسمى جاهلا أولى من أن ينسب إلى علم).

الأقوال المحدثة في علوم الحديث

- الإعراض عن القول المطَّرَح أحرى لإماتته وإخمال ذكر قائله، وأجدر أن لا يكون ذلك تنبيهاً للجهال عليه.

- إذا خُشي انتشار القول واغترار الجهلة بمحدثات الأمور وإسراعهم إلى اعتقاد خطأ المخطئين وتصحيح الأقوال الساقطة عند العلماء؛ فمن النصيحة في الدين الكشف عن فساد هذا القول ورد المقالة الباطلة بقدر ما يليق بها.

- قد يتكلم ببعض محدثات الأقوال بعض منتحلي الحديث والمتصدرين لتصحيح الأسانيد وتسقيمها.

الرد على من اشترط ثبوت اللقي في الحديث المعنعن

- زعم مدّعي هذا الشرط عدم الاحتجاج بكل إسناد لحديثٍ فيه (فلان عن فلان) تعاصرا ولم يثبت أنهما التقيا ولو مرة واحدة.

- يكون الخبر عنده موقوفاً حتى يرد عليه سماعه منه لشيء من الحديث قلّ أو كثر في رواية مثل ما ورد.

- أمثلُ ما يحتجّ به أن يقول: استجازة بعض الرواة لرواية المراسيل دعت إلى الاحتياط لثبوت السماع؛ فقد يقع الإرسال عن معاصر كما يقع عن غيره.

أوجه الردّ على هذه الشبهة:

الوجه الأول: أنه قول محدث مخترع غير معروف عن أحد من الأئمة العارفين بتمييز الروايات والأسانيد.

الوجه الثاني: القول الشائع المتفق عليه بين أهل العلم بالأخبار والروايات قديماً وحديثاً قبول رواية الثقة عن مثله إذا أمكن لقاؤه له وسماعه منه، وإن لم يأت في خبر قط أنهما اجتمعا ولا تشافها بكلام.

- والرواية بهذا ثابتة والحجة بها لازمة إلا أن يكون هناك دلالة بينة أن هذا الراوي لم يلق من روى عنه أو لم يسمع منه شيئاً.

الوجه الثالث: أنه إضافة شرط جديد مضى العمل على عدم اعتباره، ولا تقبل الشروط إلا بأن يكون عليها عمل الأئمة أو يستدلّ لها من يذكرها بدليل تقوم به الحجة، وهذا الشرط غير معروف عن أحد من الأئمة، ولا دليل عليه ألبتة.

الوجه الرابع: أنه يلزم منه أن لا يُثبت إسناداً معنعناً حتى يثبت السماع فيه من أوله إلى آخره.

الوجه الخامس: أنه كما يمكن أن يرسل الراوي عن معاصره الذي لم يلقه، فكذلك يمكن أن يرسل عمن سمع عنه بعض ما لم يسمعه؛ بل هو مستفيض معروف مستفيض من فعل ثقات المحدثين وأئمة أهل العلم.

- قد ينزل الراوي في بعض الرواية، فيسمع من غير من عُرف بالرواية عنه بعض أحاديثه ثم يرسله عنه أحياناً ولا يسمي من سمع منه، وينشط أحياناً فيسمي الرجل الذي حمل عنه الحديث ويترك الإرسال، ولذلك أمثلة منها:

١ : أن أيوب السختياني وابن المبارك ووكيعاً وابن نمير وجماعة غيرهم رووا عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كنت أطيب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لحله ولحرمه بأطيب ما أجد**».

- فروى هذه الرواية بعينها الليث بن سعد، وداود العطار، وحميد بن الأسود، ووهيب بن خالد، وأبو أسامة، عن هشام قال: أخبرني عثمان بن عروة، عن عروة، عن عائشة، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

٢ : وروى هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: «**كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا اعتكف يدني إلي رأسه فأرجله وأنا حائض**».

- فرواها بعينها مالك بن أنس، عن الزهري، عن عروة، عن عمرة، عن عائشة، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

٣: وروى الزهري وصالح بن أبي حسان، عن أبي سلمة، عن عائشة: «**كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبّل وهو صائم**».

- فقال يحيى بن أبي كثير في هذا الخبر في القُبلة: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، أن عمر بن عبد العزيز أخبره، أن عروة أخبره، أن عائشة أخبرته «**أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبلها وهو صائم**».

٤: وروى ابن عيينة وغيره، عن عمرو بن دينار، عن جابر قال: «**أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيل، ونهانا عن لحوم الحمر**».

- فرواه حماد بن يزيد، عن عمرو، عن محمد بن علي، عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

- وهذا النحو في الروايات كثير يكثر تعداده، وفيما ذكرنا منها كفاية لذوي الفهم.

الوجه السادس: أنه يلزمه على علّة قوله أن لا يحتج بخبر روي بإسناد معنعن حتى يثبت لديه سماع الراوي من شيخه في نفس الخبر الذي ورد معنعناً.

- الأئمة الذين نقلوا الأخبار كانت لهم تارات يرسلون فيها الحديث إرسالاً ولا يذكرون من سمعوا منه، وتارات ينشطون فيها فيسندون الخبر على هيئة ما سمعوا، فيخبرون بالنزول فيه إذا نزلوا، وبالصعود إن صعدوا.

الوجه السابع: إلزامه بتضعيف روايات متّفق على تصحيحها قد وردت على هذا النحو، منها:

١: أن عبد الله بن يزيد الأنصاري وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم قد روى عن حذيفة، وعن أبي مسعود الأنصاري، وعن كل واحد منهما حديثا يسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وليس في روايته عنهما ذكر السماع منهما، ولا حفظنا في شيء من الروايات أن عبد الله بن يزيد شافه حذيفة وأبا مسعود بحديث قط، ولا وجدنا ذكر رؤيته إياهما في رواية بعينها.

- قال مسلم: (ولم نسمع عن أحد من أهل العلم ممن مضى ولا ممن أدركنا أنه طعن في هذين الخبرين اللذين رواهما عبد الله بن يزيد عن حذيفة وأبي مسعود بضعف فيهما، بل هما وما أشبههما عند من لاقينا من أهل العلم بالحديث من صحاح الأسانيد وقويها، يرون استعمال ما نقل بها والاحتجاج بما أتت من سنن وآثار).

- قال مسلم: (وهي في زعم من حكينا قوله من قبل واهية مهملة حتى يصيب سماع الراوي عمن روى).

٢: وهذا أبو عثمان النهدي، وأبو رافع الصائغ، وهما من أدرك الجاهلية وصحبا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البدريين هلم جرا، ونقلا عنهم الأخبار حتى نزلا إلى مثل أبي هريرة وابن عمر وذويهما، قد أسند كل واحد منهما عن أبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً، ولم نسمع في رواية بعينها أنهما عاينا أبياً أو سمعا منه شيئاً.

٣: وأسند أبو عمرو الشيباني وهو ممن أدرك الجاهلية، وكان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً، وأبو معمر عبد الله بن سخبرة، كل واحد منهما عن أبي مسعود الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم خبرين.

٤: وأسند عبيد بن عمير، عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً، وعبيد بن عمير ولد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

٥: وأسند قيس بن أبي حازم وقد أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي مسعود الأنصاري، عن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أخبار.

٦: وأسند عبد الرحمن بن أبي ليلى وقد حفظ عن عمر بن الخطاب، وصحب علياً عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً.

٧: وأسند ربعي بن حراش، عن عمران بن حصين، عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثين، وعن أبي بكرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً، وقد سمع

ربعيٌّ من علي بن أبي طالب وروى عنه.

٨: وأسند نافع بن جبير بن مطعم، عن أبي شريح الخزاعي، عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً.

٩: وأسند النعمان بن أبي عياش، عن أبي سعيد الخدري ثلاثة أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

١٠: وأسند عطاء بن يزيد الليثي، عن تميم الداري، عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً.

١١: وأسند سليمان بن يسار، عن رافع بن خديج، عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً.

١٢: وأسند حميد بن عبد الرحمن الحميري، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث.

قال مسلم: (فكل هؤلاء التابعين الذين نصبنا روايتهم عن الصحابة الذين سميناهم، لم يحفظ عنهم سماع علمناه منهم في رواية بعينها، ولا أنهم لقوهم في نفس خبر بعينه).

- (وهي أسانيد عند ذوي المعرفة بالأخبار والروايات من صحاح الأسانيد، لا نعلمهم وهنوا منها شيئاً قط، ولا التمسوا فيها سماع بعضهم من بعض، إذ السماع لكل واحد منهم ممكن من صاحبه غير مستنكر؛ لكونهم جميعاً كانوا في العصر الذي اتفقوا فيه).

- قال مسلم: (لو ذهبنا نعدد الأخبار الصحاح عند أهل العلم ممن يهن بزعم هذا القائل ونحصيها - لعجزنا عن تقصي ذكرها وإحصائها كلها، ولكنا أحببنا أن ننصب منها عدداً يكون سمة لما سكتنا عنه منها).

منهج الأئمة النقّاد في الحديث المعنعن

- لم يكن أحد من أئمة السلف ممن يستعمل الأخبار ويتفقد صحة الأسانيد وسقمها مثل أيوب السختياني، وابن عون، ومالك بن أنس، وشعبة بن الحجاج، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، ومن بعدهم من أهل الحديث يفتشون عن موضع السماع في الأسانيد.

- إنما كان تفقد من تفقد منهم سماع رواة الحديث ممن روى عنهم.

- إذا كان الراوي ممن عرف بالتدليس في الحديث وشهر به؛ فحينئذ يبحثون عن سماعه في روايته، ويتفقدون ذلك منه، كي تنزاح عنهم علة التدليس.

- من ابتغى ذلك من غير مدلس على الوجه الذي زعمه صاحب الشبهة فهو قول محدث ليس عليه عمل أهل العلم بالحديث.

تلخيص مقاصد مقدّمة الإمام مسلم بن الحجاج رحمه الله لكتابه الصحيح

اشتملت مقدمة الإمام مسلم بن الحجاج لصحيحه على جملة من المقاصد الجليلة والفوائد المهمة، وهذا تلخيصها:

١: بيان سبب تأليفه كتابه الصحيح، وأنّه استجابة لسؤال من طلب منه جمع الأخبار الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما رأى من سوء صنيع كثير ممن نصب نفسه محدّثا فنشر الأخبار المنكرة بالأسانيد الضعيفة والواهية بين العامّة الذين لا يعرفون عيوبها وقد يتّخذونها دينا.

٢: بيان فوائد تقديم ضبط الصحيح القليل على معالجة الكثير الذي لا يميَّز صحيحه من سقيمه، وأن جمع المكررات إنما هو من شأن الخاصة أولي البصيرة بعلل الأحاديث.

٣: ذكر منهجه في تكرار الأحاديث وأنه لا يكرر الحديث إلا إذا كان فيه معنى زائد أو تعسّر فصله وتقطيعه؛ فتكون إعادته بهيئته تاماً أسلم.

٤: بيان أقسام الأحاديث ومنهجه في الاختيار منها، وأنه يقدّم رواية الأثبات لما سلم متنه من العلل القادحة، ثم يتبعها بروايات لقوم يشملهم اسم الستر والصدق وتعاطي العلم.

٥: ذكر أنّه يتجنّب الرواية عن المتّهمين بالكذب ومنكري الحديث وأصحاب الغلط الفاحش.

٦: بيّن علامة المنكر في حديث المحدّث وهي أنّك إذا عرضت روايته على رواية الثقات أهل الضبط لم تكد توافقها؛ ومن كثر هذا منه تُرك حديثه.

٧: بيّن شرط قبول تفرّد الراوي وهو أن يشارك الثقات في بعض ما رووا ويمعن في الموافقة لهم؛ ثم إذا تفرّد بعد ذلك بشيء ليس عند أقرانه قبل منه.

٨: ذكر أنه يبيّن في مواضع من كتابه عند ذكر الأخبار المعلة مذهب أهل الحديث فيها.

٩: ذكر أن من العدل تنزيل الناس منازلهم فلا يقصر بالرجل العالي القدر عن درجته ولا يرفع متّضع القدر في العلم فوق منزلته.

١٠: بيّن وجوب التثبّت في الرواية بأن لا يروي المحدّث إلا ما عرف صحّة مخارجه والستارة في ناقليه وأن يتّقي روايات أهل البدع والمتّهمين.

١١: ساق الأدلّة على وجوب التثبّت في الرواية، وبيّن أن الرواية وإن كانت تفارق الشهادة من بعض الوجوه إلا أنهما يجتمعان في أعظم معانيهما.

١٢: بيّن تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وساق في ذلك نحو ستة أحاديث.

١٣: ساق حديثاً مرفوعا ونحو ستة آثار في نهي المرء أن يحدّث بكلّ ما سمع.

١٤: استدلّ بحديثين ونحو عشرة آثار على وجوب التثبّت في تحمّل الرواية والنهي عن الرواية عن الضعفاء والمجاهيل.

١٥: بيّن فضيلة الإسناد وأنه من الدين وساق في ذلك نحو خمسة آثار.

١٦: بيّن أن أخْذ الحديث إنما يكون عن أهله العارفين به وساق في ذلك نحو ثمانية آثار عن الأئمة من التابعين وتابعيهم.

١٧: بيّن أنّ جرح الرواة بما فيهم من النصيحة في الدين وليس من الغيبة المحرمة، وأورد في ذلك نحو عشرين أثراً.

١٨: عقّب على تلك الآثار ببيان أن الأئمة النقّاد إنما تكلّموا في المجروحين لحفظ الدين ونصيحة المسلمين ونفي الكذب والغلط عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٩: بيّن أن الكذب والغلط قد يجري على ألسنة بعض الصالحين من غير تعمّد منهم لذلك، وإنما بسبب عدم معرفتهم بتحمّل الحديث وروايته وما يعترض الراوي فيهما من العلل.

٢٠: ثمّ أطنب في ذكر أصناف من المجروحين؛ منهم من جمع البدعة في الدين والكذب في الحديث، ومنهم المعروفون بوضع الأحاديث، ومنهم المتهمون بالكذب، ومنهم أهل الأهواء والبدع، ومنهم كثيرو الغلط والوهم، ومنهم المدلّسون.

٢١: مثّل لهذه الأصناف بأمثلة شملت سبعة عشر راوياً من المجروحين، وذكر بعض ما قاله الأئمة النقّاد فيهم.

٢٢: ذمّ - رحمه الله - من يريد التكثّر برواية الحديث فيجمع الروايات الواهية تزيّداً وتكثّراً عند العوام، وبيّن أنّ من سلك هذا المسلك فلا حظ له في العلم.

٢٣: بيّن أن الأولى الإعراض عن الأقوال المحدثة في علوم الحديث، وأنّ ذلك أحرى لإماتتها وأجدر أن لا يتنبّه لها الجهّال فيغترّوا بها، فأما إذا خشي فشوّ القول المحدث واغترار الجهّال به فإن النصيحة تقتضي التحذير من هذا القول وبيان فساده.

٢٤: نبّه إلى أنّ بعض الأقوال المحدثة قد تصدر من بعض منتحلي علم الحديث والمتصدّرين لتصحيح الأسانيد وتسقيمها.

٢٥: ردّ على من اشترط ثبوت اللقي في الحديث المعنعن ولو مرّة واحدة ولم يكتفِ بثبوت المعاصرة وإمكان اللقي.

٢٦: ذكر أنّ أولى ما يَستدلّ به صاحب هذه الشبهة أن يقول: استجازة بعض الرواة لرواية المراسيل دعت إلى الاحتياط لثبوت السماع؛ فقد يقع الإرسال عن معاصر كما وقع عن غيره.

٢٧: ردّ الإمام مسلم هذه الشبهة من نحو سبعة أوجه، هذا تلخيصها:

أ: أنه قول محدث غير معروف عن أئمة أهل الحديث السابقين.

ب: أن عمل الأئمة على قبول الحديث المعنعن إذا أمكن اللقاء ولم يُعرف المعنعِن بالتدليس ولم تنكشف علّة تقدح في اتّصال السند.

ج: أنّ هذا القول يتضمّن إضافة شرط مضى العمل على عدم اعتباره، ولا تقبل الشروط إلا بأن يكون عليها العمل، أو يستدلّ لها المشترط بحجة لازمة، وهما أمران منتفيان هنا.

د: أنه يلزم المشترطَ أن لا يثبت إسناداً معنعنا حتى يثبت السماع فيه من أوّله إلى آخره.

هـ: أنه كما يرسل الراوي عن معاصره الذي لم يلقه؛ فكذلك قد يرسل عمن سمع منه بعض ما لم يسمعه، بل ذلك معروف مستفيض من فعل ثقات المحدثين، وساق له أربعة أمثلة.

و: أنه يلزمه على أصل قوله أن لا يحتجّ بخبر روي بإسناد معنعن حتى يثبت لديه سماع الراوي من شيخه في نفس الخبر الذي ورد معنعنا.

ز: إلزام المشترط بتضعيف روايات متّفق على تصحيحها قد وردت على هذا النحو وساق لذلك اثني عشر مثالاً.

٢٨: بيّن رحمه الله منهج الأئمة النقّاد في الحديث المعنعن وأنّهم لم يكونوا يتفقّدون موضع السماع إلا إذا كان الراوي ممن عرف بالتدليس في الحديث.

٢٩: بيّن رحمه الله أن من ابتغى ذلك من غير مدلس على الوجه الذي زعمه صاحب الشبهة فهو قول محدث ليس عليه عمل أهل العلم بالحديث.

تمّ تلخيص هذه المقاصد صبيحة يوم الأحد ١٢ رجب ١٤٣٥هـ، والله الموفق والمستعان.

قائمة المراجع

١ : **الأدب الكبير**، ابن المقفّع: أبو محمد عبد الله [روزبه بن ذادويه] الفارسي (ت:١٤٢هـ)، تحقيق: أحمد زكي باشا، مدرسة محمد علي الصناعية، الإسكندرية.

٢: **الأدب الصغير**، ابن المقفّع: أبو محمد عبد الله [روزبه بن ذادويه] الفارسي (ت:١٤٢هـ)، تحقيق: وائل بن حافظ بن خلف، دار ابن القيم، الإسكندرية، مصر.

٣: **مصنف ابن أبي شيبة**، أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة الكوفي (ت:٢٣٥هـ)، تحقيق: حمد بن عبد الله الجمعة ومحمد بن إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرشد، الرياض.

٤ : **مسند الإمام أحمد**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت:٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥ **كتاب الحيوان**، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (ت:٢٥٥هـ)، عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

٦: **البيان والتبيين**، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (ت:٢٥٥هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

٧: **صحيح البخاري**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت:٢٥٦هـ)، عناية: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة.

٨: **الأدب المفرد**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت:٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق.

٩ : **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج القشيري (ت:٢٦١هـ)، عناية: نظر الفريابي، دار طيبة، الرياض.

١٠ : **سنن ابن ماجه**، محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني (ت:٢٧٣هـ)، تحقيق: د.بشار عواد معروف، دار الغرب، بيروت.

١١ : **سنن أبي داود السجستاني**، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت:٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد عوامة، دار المنهاج.

١٢ : **أدب الكاتب**، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري (ت:٢٧٦هـ)، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة.

١٣: **سنن الترمذي**، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت:٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
١٤: **الكامل**، المبرِّد محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثُّمالِيّ (ت:٢٨٥هـ)، تحقيق: د. أحمد محمد الدالي، مؤسسة الرسالة.
١٥: **مسند البزار**، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار (ت:٢٩٢هـ)، تحقيق: د.محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.
١٦: **سنن النسائي الصغرى (المجتبى)**، أحمد بن علي بن شعيب النسائي (ت:٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا.
١٧: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ)، تحقيق: جماعة بإشراف: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة.
١٨: **تفسير القرآن**، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت:٣١٨هـ)، تحقيق: د.سعد بن محمد السعد، دار المآثر، المدينة النبوية.
١٩: **المحاسن والمساوئ**، إبراهيم بن محمد البيهقي (ت: نحو ٣٢٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، القاهرة. [ضمن سلسلة ذخائر العرب]
٢٠: **كتاب الضعفاء الكبير**، أبو جعفر محمد بن عمر بن موسى العقيلي (ت:٣٢٢هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار الصميعي، الرياض، ١٤٢٠هـ.
٢١: **الجرح والتعديل**، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ابن أبي حاتم الرازي (ت:٣٢٧هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دائرة المعارف العثمانية، الهند.
٢٢: **جواهر الألفاظ**، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (ت:٣٣٧هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣: **عمدة الكتّاب**، أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت:٣٣٨هـ)، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، الجفان والجابي للطباعة والنشر.
٢٤: **الأمالي**، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي (ت:٣٥٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية.
٢٥: **الكامل في ضعفاء الرجال**، أبو أحمد عبد الله بن عَدي بن عبد الله الجرجاني (ت:٣٦٥هـ)، تحقيق: مازن بن محمد السرساوي، مكتبة الرشد، الرياض.

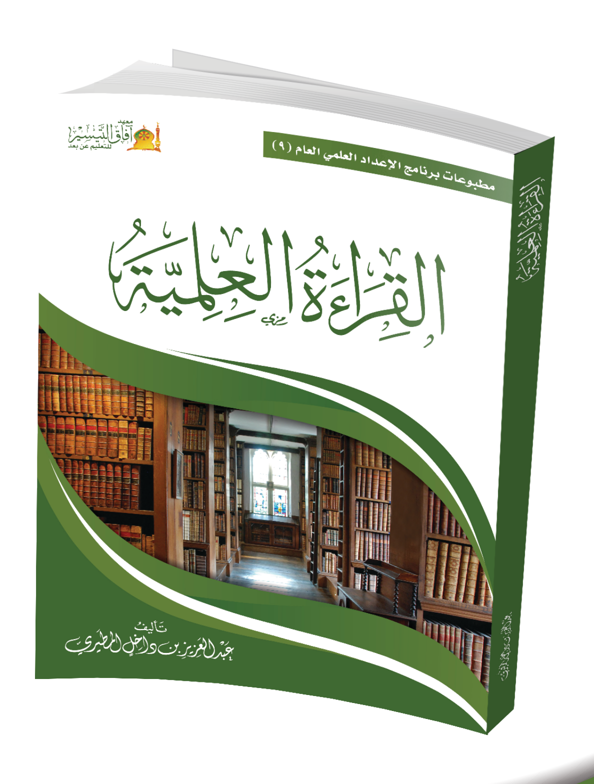
٢٦: **العظمة**، أبو الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني الأنصاري (ت:٣٦٩هـ)، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض.
٢٧: **العلل الواردة في الأحاديث النبوية**، أبو الحسن علي بن عمر الدارَقطني (ت:٣٨٥هـ)، تحقيق: محمد صالح الدباسي، مؤسسة الريان، بيروت.
٢٨: **حلية المحاضرة**، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي (ت:٣٨٨هـ)، تحقيق: د.جعفر الكتاني، دار الرشيد للنشر، العراق.
٢٩: **الصاحبي في فقه اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت:٣٩٥هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة.
٣٠: **كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)**، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت:بعد ٣٩٥هـ)، تحقيق: محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية.
٣١: **المستدرك على الصحيحين**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن حمدويه الحاكم النيسابوري (ت:٤٠٥هـ)، تحقيق: سليمان الميمان وأيمن الحنيحن، دار الميمان، الرياض.
٣٢: **التمثيل والمحاضرة**، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت:٤٢٩هـ)، عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب.
٣٣: **رسائل ابن حزم الأندلسي**، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت:٤٥٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٣٤: **السنن الكبرى للبيهقي**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت:٤٥٨هـ)، تحقيق جماعة بعناية د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ١٤٣٢هـ.
٣٥: **شعب الإيمان**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت:٤٥٨هـ)، تحقيق: د.عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي.
٣٦: **تاريخ بغداد**، الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت:٤٦٣هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
٣٧: **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت:٤٦٣هـ)، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض.
٣٨: **طبقات الحنابلة**، أبو الحسين محمد بن محمد ابن أبي يعلى الفراء (ت:٥٢١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

٣٩: **تاريخ دمشق**، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر (ت:٥٧١هـ)، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت.
٤٠: **معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)**، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت:٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
٤١: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن الأثير الشيباني (ت:٦٣٧هـ)، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.
٤٢: **المجموع شرح المهذب**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت:٦٧٦هـ)، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، بتكملة السبكي والمطيعي، الرياض: عالم الكتب، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
٤٣: **شرح صحيح مسلم**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت:٦٧٦هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة.
٤٤: **رسالة أمراض القلوب وشفاؤها**، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت:٧٢٨هـ)، ضمن مجموع الفتاوي، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
٤٥: **التحفة العراقية**، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت:٧٢٨هـ)، تحقيق: د.يحيى بن محمد بن عبد الله الهنيدي، مكتبة الرشد، الرياض.
٤٦: **تهذيب الكمال**، جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت:٧٤٢هـ)، تحقيق: د.بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٤٧: **تاريخ الإسلام**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت:٧٤٨هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
٤٨: **سير أعلام النبلاء**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت:٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٤٩: **ميزان الاعتدال**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت:٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
٥٠: **الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت:٧٤٨هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم الموصلي، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

٥١: **تذكرة الحفاظ**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت:٧٤٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند.
٥٢: **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ابن قيّم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٥٣: **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، ابن قيّم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: مسعد بن كامل، تقديم: مصطفى العدوي، دار ابن رجب.
٥٤: **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ابن قيّم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الرياض.
٥٥: **مدارج السالكين**، ابن قيّم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: ناصر السعوي وعلي القرعاوي وصالح التويجري وخالد الغنيم ومحمد الخضيري، تحقيق: جماعة من أساتذة العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم، دار الصميعي، السعودية.
٥٦: **الفروع**، محمد بن مفلح المقدسي (ت:٧٦٣هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٥٧: **ذيل طبقات الحنابلة**، عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي (ت:٧٩٥هـ)، تحقيق: د.عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض.
٥٨: **كلمة الإخلاص وتحقيق معناها**، عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي (ت:٧٩٥هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.
٥٩: **تهذيب التهذيب**، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)، تحقيق: إبراهيم الزيبق، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة.
٦٠: **مقدمة ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)**، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون أبو زيد الحضرمي الإشبيلي (ت: ٨٠٨هـ)، تحقيق: د.علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة.
٦١: **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى المقري التلمساني (ت: ١٠٤١هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم

الإبياري، وعبد العظيم شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
٦٢: **أبجد العلوم**، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت:١٣٠٧هـ)، تحقيق: عبد الجبار الزكار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دمشق، دار الكتب العلمية، دار ابن حزم.
٦٣: **قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث**، محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ)، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٦٤: **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (ت: ١٣٧٧هـ)، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، السعودية.
٦٥: **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، محمد عبد الخالق عضيمة (ت:١٤٠٤هـ) تصدير: محمود محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.
٦٦: **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، محمد ناصر الدين الألباني (ت:١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض.
٦٧: **سلسلة الأحاديث الضعيفة**، محمد ناصر الدين الألباني (ت:١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض.
٦٨: **أحكام الجنائز**، محمد ناصر الدين الألباني (ت:١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت.
٦٩: **حلية طالب العلم**، بكر بن عبد الله أبو زيد (ت:١٤٢٩هـ)، دار العاصمة، الرياض.
٧٠: **أقوال الصحابة المسندة في مسائل الاعتقاد (جمع ودراسة وتحقيق)**، د.هشام بن إسماعيل الصيني، جامعة أم القرى.
٧١: **المشوق إلى القراءة وطلب العلم**، علي بن محمد بن حسين العِمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
٧٢: **تلخيص الدروس العلمية**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.
٧٣: **المرتبع الأسنى في رياض الأسماء الحسنى**، جمعه وأعدّه من كتب ابن القيّم: عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.
٧٤: **أعمال القلوب**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.

الفهرس


مطبوعات برنامج الإعداد العلمي العام (٩)
القراءة العلمية
تأليف
عبد العزيز بن داخل المطيري


معهد
آفاق التيسير
للتعليم عن بعد